

كتاب
الشيخ

سليم بركات

فقهاء الظلام

الحمقى الذين قبلوا الاشتراك في هذه الرواية :

الملا بيناف بن كوجري .
برينا بنت عقدي ساري . زوج الملا
كرزو ، زيان ، عاني ، حمزات : أولاد الملا من زوجه الأولى .
خاتي بنت كوجري ، أخت الملا
بيكاس ، ابن الملا بيناف من زوجه برينا .
سينم بنت مهمد بن كوجري ، زوج بيكاس .
مهمد بن كوجري ، اخو الملا بيناف .
مجيدو بن عقدي ساري ، أخو برينا .
باقي جواني ، الضحية الثائرة (يقتله مجيدو) .
ابن زاري ، جد برينا
عقدي ساري ، والد برينا . وجد بيكاس .
جهور ساري ، أخو عقدي .
عيشانه بنت أوسي بدرخان ، زوج مهمد .
سظامو لاوي حجي عباس ، مهرّب التبغ .
جشمو ، زوج خاتي .
حيندر ، صاحب الثور
حسين بن كوجري ، ذو القرنين ، والد الملا بيناف .
حسو (حسين) الميرسي ، جد الملا بيناف .
باران بن ساري ، جد عقدي .
عبد الصمد بن باران ، والد عقدي .
زبركه ، أم برينا .
كلش ، أخو عيشانه . خال سينم
سرنست (حجر النشادر) بن كلش .
جكرخوين ، خال الملا بيناف .

الفصل الاول

حاول المَلَأ «بيناف»، ابن «كوجري»، أن يبدو وقوراً كعادته. ابتسم من دون افتراءٍ لشفتيه عن أسنانه الكبيرة القوية. ثم رفع يديه، وقرأ الفاتحة تَمَتَّةً.

عمد بعض الرجال المحيطين بمجلسه الى تَمَلُّقه بكلمات اطناب ممطوطة فلم يلتفت اليهم، بل نهض في هدوء. فرد سجادة، وصلى ركعتين في اطالة ظاهرة خَفَّت فيها تَمَتَّات الشكر، وكلمات المديح. وحين انتهى من ذلك طوى السجادة، ثم لَفَّها. انتعل حذاءه البلاستيكي، وخرج من الباب الى الساحة المَسَوَّرة.

الساحة واسعة. تقع المضافة في الجانب الشمالي منها، حيث كان المَلَأ «بيناف». وفي الجهة الشرقية غرف متلاصقة، ذات أبواب مستقلة تطل على الساحة. أما في الجهة الجنوبية الغربية فتقع الحظيرة، التي تجاورها مساحة صغيرة مسقوفة بصاج متموج عار، مخصصة للتور.

اتجه «بيناف» الى احدى الغرف، تاركاً وراءه سلسلة من آثار صفراء في رقعة الثلج الرقيقة. توقف فجاءةً، وانحرف يسيراً مسافة مترين من باب الحظيرة. كان ثمت عصفور يتخبط في فخ. انحنى والتقطه في دعة. صاح ابنه «زيوان» الراكض اليه: «بابا، هذا هو الثاني، اليوم». أرخى المَلَأ ما بين فكي الفخ فطار العصفور مترنحاً. فتح ابنه فمه دهشاً، فعاجله أبوه: «عسى أن يكون خيراً ما فعلناه يا بني. سأعوّض عليك»، وألقى اليه بقطعة نقدية ثقيلة غاصت في الثلج، فاسترجعها الطفل فرحاً، قبضته التي امتلأت

بحشائش اجتثتها من تحت الطبقة البيضاء. أكمل الاب سيره ودخل احدى العرف. خرج وفي يده سكين طويل، متجهاً الى الخطيرة.

خرج الحُروف الاول من باب الخطيرة راکضاً، ثم هوى فوق الثلج. تبعه ثان، فثالث، فراع. كلها كانت تخرج راکضة ثم تهوي. تنهض فتدور حول نفسها، ثم تهوي، راسمة فوق الثلج رشاشاً أحمر، وبركاً حمراء صغيرة، ذات بخار خفيف. إذ ذاك خرج الملاً «بيناف» يسكينه المخضب، فهرول اليه رجلاً تناولاه منه، ثم انكبا على الحرفان سلخاً.

زغردت امرأة من جهة الغرف المتلاصقة فرفع الملاً «بيناف» يده اشارة بالسكوت، فسكتت. «كل الناس ينجبون ابناء، ولست الاول»، قالها وهو يمشي في اتجاه غرفة المضافة. خلع حذاءه أمام العتبة، ودخل. أفسح الرجال مكاناً له قرب موقد المازوت المتوهج، فتربع. التفت الى شماله، ثم الى يمينه، بنظرة رضا، مومناً، كأنها يرّد على التهئة بشكر خفي. مد يده الى علبة التبغ الفضية، ذات النقوش، وناولها الى جاره. أخذها، ثانية، وناولها الى شخص قبالة، وراء الموقد، بحركة دفع دائرية خفيفة على السجادة، فتناولها ذلك الشخص.

كان تبادل علب التبغ المعدنية على أتمه بين الجالسين. من يدفع بعلبته الى شخص يرد له الشخص ذلك بعلبته الخاصة. لفافات رقيقة، واخرى ثخينة، من ورق شفيف وتبع رطب، وأنامل كثيرة مشغولة بعقدها في حذاقة لا تخطيء.

«ماذا ستسميه يا سيدنا الملاً» سأله أحد الحاضرين. «بيكاس» ردّ الملاً، كأنها هيئاً الاسم من زمن. حاول السائل مجاملته، وقد فاجأه الاسم قليلاً: «لماذا تدعوه بالوحيد، يا سيدنا، وسلالتكم كبيرة بحمد الله؟»، ردّ الملاً: «ليس لأحد سوى خرافه، وبيته، وقمحه الذي يخذله احياناً فيتركه عارياً». ازدد السائل الردّ، وانكب يشغل على لفافته بلسانه، يرطب الورق ليلتصق طرفاه.

في الغرف المتلاصقة، شرقي الساحة، كان النساء يدخلن من باب، ويخرجن من باب، كلهنّ في شغل. قماطات بيضاء، وصحاف من ثريد الخبز المحلى تنتقل معهن في فرج ذائب كالثلج الذائب من آثار الاقدام، بين الابواب. أما المسافة الممتدة بين تلك الغرف والزربية، حيث الرقعة البيضاء غير المسوسة، والتي نصب الاطفال فيها فخاخهم المدفونة، اذ لا يظهر منها

الاقطع خبز صغيرة، فكانت العصافير تحوم فيها، ثم تطير الى الاعمدة البارزة، أفقيًا، تحت الاسطحة، متوجسة خوفًا، بعد تحبّط عصفورين فوق تلك القطع الطاهرة من الخبز المتبلّ. ولو انها تمحصت الامر قليلًا لانقضت دون خوف. فالخبز في الثلج. بعد ساعة على أبعد تقدير، يتحول الى شيء هش تمامًا، وفي امكان المناكير ان تلتقطه كسرة كسرة دون ان تنفك إبرة السابض عن المحبس. كان هذا ما يحدث، عادة، حين يترك الاطفال فخاخهم في الثلج طويلًا: تبتلع العصافير الخبز من غير ان ينغلق فكا الفخ، فيعضون على أصابعهم قهراً، صارخين من وراء زجاج النوافذ المطلة على الساحة: «اكسر رقبته يا أحمق»، ويظل الفخ احمق صامتًا. وهم لا يقدرّون على تغيير الخبز في الفخاخ كل برهة، لأن آثار أقدامهم، في الثلج، تجعل العصافير نفورة عادة، لذلك ينتظرون اختفاء آثار أقدامهم ليكون التمويه على أتمّه، وهنا تقع الواقعة اذا استمر هطول الثلج اكثر من اللازم.

من المتبع أن تكون حبات القمح هي الطعم في الفخاخ، لكن الثلج يغطي الحبات في سر لا يجاوز الدقيقة، لذلك يستبدلون القمح بقطع كبيرة من الخبز لتبقى ظاهرة للعيان فترة أطول، وهنا الضعف في هذه الطريقة. الوقت. آه. للطعم وقت، وللملأ «بيناف» وقت في التفكير. كانت الساعة تشير الى النصف بعد التاسعة صباحًا. نُدْفُ أخيرة كسولة من الثلج تهوي على مهل. لا ريح. بضعة زراير تثبت بسلك كهربائي يمر فوق الساحة، وقد نفشت ريشها حتى اختفت أعناقها في السواد المرقط. كلب يقف على قائمته الخلفيتين خارج البوابة الخشبية، ناظرًا من الشقوق إلى بقايا أحشاء الخراف وجلودها المهملة. جيران الملأ «بيناف» هم أول من وفدوا. في ساعة الفجر كان مخاض امرأته. المرأة الأشورية التي كانت تتوقع الأمر، منذ المساء، اصطحبت زوجها في الصباح الباكر، وكان هذا الرجل هو «المدني» الوحيد بين الرجال، ذلك ما كانوا يطلقونه على من يرتدون البناتيل والسترات. وقد قدم الملأ «بيناف» لضييفه كرسياً قرب الموقد، بينما اقتعد الآخرون، جميعاً، السجاد المطرّز، ملتفين بعباءات ثقيلة مبطنة بالفراء. ومن ثم مد يده اليه بعلبته الفضية، فاعتذر الأشوري، لأنه لا يتقن لفّ اللفافات، وهو يفضل - عل كل حال - السجائر الجاهزة ذات الفلتر.

سيأتي الأقربون والأبعدون. هكذا يفكر الملأ «بيناف»، وتلك مسألة تضايقه قليلًا. لا يهيمه الوافدون اليه من هذه المدينة الصغيرة، فهم لن يكلفوه

ما لا طاقة له به، بل يهيمه الآتون من القرى، الذين سيمضون أياماً في ضيافته، والحال على قَدَرها. صيفه الماضي قصم الظهر. لم ترتفع السنابل مقدار شبر عن الأرض، فلم تُحَصَّد، بل تُركت للرعي. أبته تنحسر، والمكان يضيق. بات يفكر كم ذبح من الخراف، وكم سيدبح. كم كيس طحين سيكفي القادمين، وكم فراشاً سيتسخ بفعل الاقدام التي غسلتها عصارة الثلج والطين المتسربة الى الاحذية. وهو وقور بفعل انقباضه الدائم، الذي لا يستمزج المرح، مترفع قليلاً ليحفظ ما تبقى.

كان غير آبه، فيما مضى، بالذي يجري داخل بيته. غائب وإن كان حاضراً. ثلاثة أرباع النهار في «سوق التجارة» - حيث تتجاور غرف صغيرة تسمى «مكاتب». تشتمل كل واحدة على بضعة كراسي من القش، وطاولة لنشر عيّنات القمح عليها، وهي مسقوفة بالاسمنت الذي تتخلله نوافذ ضيقة، في الاعلى، ذات زجاج سميك - وربع نهاره الاخير في البيت. ربع نهار طويل يمتد فيشمل المساء وبعض الليل، لا مع العائلة وشؤونها، بل مع زائريه، الذين يكملون أحاديث النهار حول تجارتهم.

في الصيف، بالطبع، تكون المشاغل أكثر، فما لم ينته إنجازها في «سوق التجارة» يُنجز في ساحة البيت. تبقى البوابة مفتوحة، سائقو شاحنات نقل يأتون ويمضون. حمولات حنطة تأتي من الحصاد مباشرة الى الشاحنات. عتالون يأتون ويمضون. بعضهم يُستبدل ببعض آخر، والباقيون يقبضون أتعابهم. عيّنات حنطة تأتي في مناديل الرجال الملونة، ليجري اختيار الافضل. رجال من جمارك الشحن يتسللون، أيضاً، مع هؤلاء، لينالوا حصصهم لقاء «تسهيل» الامور. وفي الخريف تختلف المسألة: يجري البحث طويلاً في استئجار أراضٍ مشهود لها بالخصب، وفي جرارات الحراثة، والحبّ الانقى. في الشتاء يتم رصد المطر. في الربيع تتعلق العيون بأسواق القمح، ومداهمات البرد المفاجئة، الى آخر ما هنالك من تلزيم لأصحاب الحصادات، واختيار الطواقم، بدءاً بالطباخ وانتهاء بسائق عربة التموين.

كان غير آبه، فيما مضى، بشؤون بيته، فالامور تجري بانتظام تلقائي. كل من يملك جهاً تجري أموره بانتظام تلقائي. نساء الجيران يجزن في التنور للعائلة، لقاء مؤونة الشتاء من أكياس القمح. اللحم يختار من اللحم أحسنه، وينقله الى البيت بنفسه، حتى من دون طلب. الاطفال مدللون، الأقرباء يتسابقون في ذلك لكسب ودّ زوجه، وهي ستخبره، بالطبع، عمن

يليق باهدائه فائضاً من كرمه . حتى شجيرة الزيتون الوحيدة في ساحة الدار، والتي لم يزد نموها عن متر خلال سبع سنين، ستجد من يتبرع بنكش التراب من حولها . غير أن الملا «بيناف» يشهد انحساراً كبيراً في رقعة مشاغله، فلا يجد نفسه الا في مواجهة البيت : «لماذا تطأ طرف السجادة بحذائك الوسخ أيها الصبي؟»، وحين لا يردّ الصبي الخائف يصفعه . «من أهمل قارورة الموقد فلم يملأها من جديد؟»، واذا لا يجد جواباً يركل الموقد فيتمايل، وقد انثى الدخان من مفاصل المواسير المنمخمة، التي تتجه الى السقف . «أغلق الباب وراءك يا حمار . الريح الباردة تملأ البيت» . «اوقفوا صراخ هذا الولد المسعور» . «أشتم رائحة البرغل المحترق . الا تتبهين يا امرأة؟» . «حمر . عاتلة من الحمير» .

ثمة غضب ما يتجه الى غير المسبب، وهو يدرك ذلك في صفائه، الذي يواكبه حين ينكبّ على دفاتر حساباته المهلهلة من كثرة التنقيب فيها . ينظر من حوله في حنان مشوب باعتذار صامت الى الوجوه التي لا تتنفس حين لا يتنفس هو، ولا تبسم اذا لم يتسم . وهو لا يتسم على كل حال، بل يعود بنظرته تلك الى دفاتره، حيث الحسابات المدوّنة بقلم الرصاص .

الأمور طوّيت كلّها، وبقيت الأرقام الفضية الباهتة . «من يخصّ الحساب هذا؟» يسأل نفسه، أحياناً، بتمتمة، ثم يفكر طويلاً ليجيب : «آه» . دفاتر متدرّجة في أحجامها : صغيرة ذات أسلاك لولبية للجيب، وأخرى متوسطة ذات مربعات زرقاء، وما تبقى كبيرة الحجم، بأغلفة سميكة، مرتسمة عليها آثار الأنامل حتى حالّ لونها . والملا «بيناف» ينقب على شيء ما، أفلت من فكره فصار رقماً . من يدري .

على أية حال، لم يكن هذا الصباح كغيره من الصباحات . جاءه الرقم الخامس في سلسلة نسله، وكان صبيّاً، جرت تسميته على الأقل في رأس والده، باسم «بيكاس» . قد يكون الملا فرحاً قليلاً بهذه الهبة الجديدة، لكن الثلج يجعل الجزم بالامر صعباً . أن تقوم وتقعّد، وتودّع وتستقبل، فاتحاً الباب، كل مرة، لهبوب وهج قارس من الخارج، أمور لا تدعو الى البهجة . ومع انتشار النهار، دقيقة دقيقة، تكبر المهمة الرتيبة، التي يقطعها سعال خفيف، من جراء انتقاله بين الموقد المتوهج والباب البارد .

في العاشرة وسبع دقائق، على وجه التحديد، اي حين نظر الملا «بيناف» للمرة الاولى الى ساعة الجيب المعلقة بسلسلة فضية الى زر من ازار سترته، دخل عليه «كرزو»، أكبر ابنائه، مشيراً اليه من الباب كأنها يسأله أن

يقترب ليحدثه، فتجاهله «بيناف»، مكتملاً حديثه مع احد الجالسين. وحين ألحف الصبي بالاشارات الصامتة، صاح به والده في وقار، كعادته بين الناس: «تقدّم، ولا تقف كاليربوع على الباب. لقد جلدتُنا».

كان الصبي قد أطلّ بنصف جذعه الأعلى من الباب، تاركاً قدميه خارجاً حتى لا يطاء طرف البساط، فاضطر الى خلع حذائه، بعد أن دق بكعبيه طويلاً على العتبة حتى تنسلّ قدماه. ربما كانت فردتا الحذاء البلاستيكيّتان ضيقتين. ثم دخل في خُفر. قرفص قرب والده، وتمتم بكلام في أذنه، من وراء الحطة البيضاء المنسدلة على أذنيه ورقبته. نظر «بيناف» الى الصبي في ريبة، ثم محا الريبة عن وجهه بابتسامة بليدة، ناظراً الى الجالسين، لكنهم كانوا في حديث ما فلم يلمحوا انقلابات وجهه. اشار على الصبي بالانصراف، فانصرف. بقي شبه ذاهل لدقيقتين، قبل أن ينهض ويخرج لاحقاً بالصبي.

حين صار خارجاً، رأى النساء يتجهن الى غرفة أخرى غير غرفة زوجه، حيث ينبغي ان تكون مع وليدها. ورأى أخته، التي تبرعت بنهارها له، واقفة في الباب تصرفهن في رقة: «الى الغرفة، هناك، من فضلكن. برينا ليست على ما يرام»، لكن وجهها كان ينم عن عصبية تكاد تنفلت بين برهة وأخرى، وإذ لمحته قادماً حدّقت فيه، من بعيد، دون أن تطرف عيناها، مشدوهة بصورة ما، تتألاً على الحدقتين كباشق. حدّق الملاً «بيناف» فيها، بدوره، ليتأكد من كلام الصبي في وجهها قبل أن تنطق.

اقترب حتى كاد أنفه يلامس أنف أخته. النُدْف البيضاء الكسولة، التي سقطت على أهدابها بتطفّل، لم تطرف لهما جفنًا. مد يده الى مقبض الباب فالتفتت بعينيهما الى يده؛ الى الحركة البطيئة التي ستجعلها ترتعش بعد قليل. دفع الباب وهو مايزال ناظراً الى أخته من خلف كتفه. أردف الباب خلفه، وجمال بنظره على الغرفة: زوجه على فراش ممدّد على السجادة، وقربها، في الفراش ذاته، ابنه الجديد، مغطى حتى قمة رأسه، وأكبر حجماً من طفل. ظن ذلك للوهلة الاولى، غير أن وهلته الاولى لم تحطّ تقديره للأحجام. خلع حذاءه عند طرف البساط وتقدّم. نظرت اليه امرأته في عياء ظاهر، مشوب بقلق غريب.

جثا على ركبتيه قرب الفراش، شاداً طرفي عباءته السمكية على فخذيه. «كيف حالك؟» سأها، فظلت محدّقة فيه بالعياء ذاته، لكن شفتها

السفلى ارتجفت على دفعتين، فأشاح بنظره عنها، متفرساً في الغطاء الذي يلاصقها. مدّ يده، في هدوء، الى قمة الغطاء. سحبه فظهر شعر كثيف أسود. سحبه أكثر فباء جبين وردّي، فتغضن قليلاً. حدقتا الملاً تتسعان، ويده ترتجف. ضيق ما بين جفنيه وتمتم بكلام غير مسموع، ثم سحب الغطاء عن الوجه بأكمله.

الخبر يتسرب من الغرفة الموصدة التي تقف أخت الملاً على بابها، والوجوم يأخذ طريقه الى وجوه الزائرين. التهئة تستحيل، الآن، الى نوع من التطفل: «أحقاً.. يا سيدنا الملاً؟»، وقبل أن يكمل السائل يرّد الملاً: «هبة الله أيها الجار. هبة الله».

كل نصف ساعة يجد الملاً نفسه متجهاً الى الغرفة الموصدة، ثم يخرج أشدّ عبوساً. يطلب من أخته أن تحذ من الزائرين قليلاً قليلاً، وأن توصل البوابة، بعد ذلك، فلا يدخل أحد. وحين تنظر اليه في استغراب، كأنها تسأله: «وكيف لنا أن نمنع كل هؤلاء؟»، يجيبها ماشياً: «نحن لم نعد هنا. قولي لهم لم نعد هنا».

الثلج الكسول، المتفرق على مهل من سماء حليبية، يمحو الآثار دقيقة بعد دقيقة. الرزازير ماتزال على السلك ذاته، الذي يصل الأعمدة من فوق الساحة. العصافير، وحدها، لم تعد بعد ذلك الهدوء. اقترب ابن الملاً، ذو السنوات الست، وسأله أن يسمح له بنصب الفخاخ من جديد. تحدّق أبوه فيه طويلاً، ولم يكن، بالتأكيد، يتفكر في جواب. بادره الابن، ثانية: «هل العصافير مقيدة حقاً؟»، فألوى الملاً شفته السفلى، ورفع حاجبيه: «هكذا يقولون. في أرجلها قيود غير مرئية، لذلك تنتقل قفزاً». «من قيدها، بابا؟» سأله ابنه. «الله يا بني. لا بد أنها اقترفت ذنباً يستأهل القيد».

بات الوقت ظهراً. عمر الوليد يتراوح بين سبع ساعات او ثنائي. يدخل الملاً الى الغرفة ويطلق المكوث، والأخت تروح وتجيء أمام الباب، نافخة في يديها الثلجيتين، وقد تقف أحياناً لتنصت الى الباب، ثم تكمل الحركة المقفلة ذهاباً وإياباً، غير آبهة بالطرقات التي تتناهى من بوابة الساحة، بين وقت وآخر.

النار ماتزال تحت القدر الكبير قرب التّنور. بخار كثيف يتصاعد ممتزجاً بدخان الروث المبتل، الذي يستخدمونه وقوداً. امرأة عجوز تحرك ما في القدر بعضاً طويلاً، ثم تحشو أمام النار مُستدِفَةً. وليمة ينقصها حاضرون جاءوا في

الصباح، واختفوا قبل أن ينضج لحم الخراف. وعلى مقربة من ذلك الاحتفاء الباهت بزائرين لا تُفَتَح لهم البوابة، انكبَّ ابن المَلَأ على الطبقة البيضاء يغطي بها فخاخه الباردة.

«أين رأى كل هذا، بحقِّ الله؟» قالها المَلَأ حين سألته أخته عن الأحوال داخل الغرفة، وما يجري هناك. وأضاف: «إنه يعرف أنني بقيت نائماً فسهوت عن صلاة الفجر، بسبب سهر الليل. أتصدقين؟». سألته: «وكيف حال المرأة؟»، «مذهولة» أجابها. «ماذا سنفعل الآن؟»، ردَّ مطرقاً: «من يستطيع أن يردَّ قَدْرَه. لكن الذي يخيفني هو أين سيتوقف الأمر».

تقدَّم المَلَأ، وسط ثلج الساحة، الى حيث المرأة العجوز المنكبة على تحريك الطعام في القَدْر بعصاها. صاح به ابنه، من زاوية الزريبة التي اتخذها مرصداً يرقب منها الفخاخ: «حاذر يا أبي، لقد وطأت فخاً». لم يتبته المَلَأ، حقاً، الى القرقة الخفيفة للفتح تحت قدميه. نظر الى أسفل لبرهة، ثم أكمل مشيه. «كيف حال الخراف؟» بادرَ المرأة، فابتسمت ابتسامة مجمَّدة: «إنها دافئة الآن، وهذا خير لها من صقيع الزريبة». تتمم: «و حال النار؟». لم يكن سؤالاً هذا، بل محاولة إبعاد شبح سؤال آخر يستعصي جوابه. إذ ذاك جثا، بدوره، قرب القَدْر، وبسط يديه للوهج المتسرب من ألسنة صفراء تعلق الركائز الحجرية، ثم تنحسر.

«أخي». كان شاردّاً أمام الدفء الذي أحال نَدَف الثلج العالقة بعباءته الى خيوط من الماء، ما تلبث أن تغيب في النسيج الأسود. «أخي»... سمعها حين هتفت أخته للمرة الثانية، فالتفت وهو ما يزال جائئاً. لم تكن تنظر اليه، بل الى الباب، فأدرك، على فوره، أن البرهة التي انتظرها قد حانت.

كان شاب وردِّي البشرة، بشعر أسود كثيف، ولحية منبثة في مناطق من الوجه دون أن تتصل تماماً، يطلُّ من الباب، مظلاً عينيه بيده ليتقي وهج الثلج، وقد شدَّ بالآخرى على غطاء سميك لفَّ به جسمه. قصير القامة، لكن بتناسق. ربما يكون في السابعة والعشرين او الثلاثين. نهض اليه المَلَأ بثناقل، وحين صار قبالة قال: «سيؤذي الثلج عينيك يا بني». ضيق الشاب ما بين جفونه، وردَّ: «ينبغي أن أرى أشياء كثيرة أعرفها بإحساسي فقط يا أبي». صمت لبرهة، مجيلاً بعينه في الساحة، وأردف: «أين إخوتي؟». التفت المَلَأ الى أخته، وأوماً، فاتجهت المرأة الى غرفة مجاورة. وقبل ان تعود،

كان المَلَأ وابنه الشاب يدخلان الى غرفة الأم من جديد، ثم يجلسان قريبا، على الفراش .

بعد برهة دخل أبنائهُ الاربعة . صَبِيَّة، أصغرهم في الرابعة، وأكبرهم في العاشرة من عمره . كانت أخت المَلَأ ترشدهم الى حيث ينبغي ان يجلسوا حول الموقد، بينما أخذتهم نوبة من هرج خفيف . صاح الاصغر على حين غرة: «أريد أن أكبر مثل بيكاس»، فنهز الأكبر: «أسكت» . والأكبر يدرك بإحساسه، ومن خلال ذلك الدهول الذي يستحيل الى استسلام في وجه الأب، أن الأمر ليس للتفكُّه .

لم يجد الأب ما يقوله، ليجعل التعارف ممكناً بين ابنائه الاربعة من جهة، وبين هذا الوليد الذي يختزل السنوات، كل ساعة، من جهة أخرى . بأي مثل يسترشد ليجعل الفهم محتملاً، وبأي ظاهرة يستنجد أمام هذه الطفرة التي لا يشبهها إلا ما يعرفه عن نبيِّ تكلم، وهو في المهد، بكلام كبير؟ ينتقل ببصره الحائر بين وجه زوجه المستندة الى وسادة، وبين وجه أخته . وحين أعيته الحيلة، قال في ما يشبه الهمس: «هذا أخوكم بيكاس . . وهؤلاء هم إخوتك يا بيكاس» . وفيما الكلام الذي نطق به المَلَأ يترقق كنقر على صفيحة، تقدم الشاب، زحفاً على ركبتيه، الى حيث إخوته حول الموقد . ابتسم فاستعت حدقات الصغار . مدَّ يده الوردية الى شعر أخيه الصغير مداعباً ومستأنساً، فأحنى الطفل رأسه ليتلافى تلك اليد .

الابن الأكبر «كرزو» لم يبادل أخاه العجيب ما بادله الصغير من نفور . جرّ نفسه على البساط، وهو جالس، مبادراً «بيكاس» بقوله: «أهلاً أخي»، ثم مدَّ يده مصافحاً . وكانت هذه التوطئة من الابن البكر مدخلاً الى كسر الوجوم الدافئ بفعل وهج الموقد . همس الثلاثة الآخرون: «أهلاً بيكاس» . وكأنها نسي الأب والأم ما هما فيه من غرابة، إذ غرَّتهما هذه التوطئة الحكيمة للصَّبِيَّة، فاندفعا يبحثن الجميع، في حماسة، أن: «قَبَلُوا بعضكم بعضاً . هؤلاء إخوتك، هذا أخوكم . يا للعار، تتهامسون كغرباء . إرفعوا أصواتكم . نعم، هكذا» .

بات الصَّبِيَّة يرفعون الكلفة التي لم يرفعها الأبوان في أعماقهما . فهذا الـ «بيكاس» أغلق صورة الأبوة على نفسه بعد ساعتين من ولادته، حيث رأياه وليداً فاخترنا ما تحتزن الأبوة تجاه وليدٍ، ثم نما خارجها على نحو يجعل الحيرة والدَّهْش سيدين على أحاسيسهما .

الأبوان يرقبان فحسب. الأمور تأخذ مجراها خارج أي تدبير. يقول «زيوان»، ناصب الفخاخ، موجّها الكلام الى أخيه «بيكاس»: «أتحب صيد العصافير؟». «العصافير؟» تساءل بيكاس، «آه. العصافير. تصيدت منها الكثير قبل مجيئي»، ونظر مبتسماً الى أخيه الذي فاجأه الجواب، ثم أكمل ليدفع عن هذا الصغير حيرته الهشة: «لم تكن نتصيد العصافير بالخبز، مثلك، بل كنا نضع الفخاخ بين ورق الأشجار، ونجعل الفاكهة طعماً». بعد ذلك الجواب التفت الى الأكبر «كرزو»، تاركاً ناصب الفخاخ في تساؤلاته المتسارعة: «لماذا لا تسألني كيف أنمو بهذه السرعة؟». فتح «كرزو» فمه كمن وجد سؤالاً، فلم يدعه «بيكاس» ليكمل، ملتفتاً الى الخلف، حيث الأبوان اللذان تلاً في عيونهما السؤال ذاته. «اللعة» تتم، «كيف سأشرح ما لا طاقة لي به. أنا مذهول مثلكم. أراكم كل ساعة أشخاصاً آخرين، ينمون معي سنة بعد سنة، في تسارع يختلط فيه فهمي الثابت لأشياء أعرفها عنكم قبل مجيئي». صمت برهة، وأضاف: «حيرتي حيرتان: حيرتكم بي وحيرتي بكم. فلتقبل الأمر معاً، إذ لم يبق من الوقت إلا أقله. انظروا، قد أصبح في الأربعين عصراً، وفي الخمسين مساءً. والليل؟.. لا أعرف. ثمت شؤون عليّ انجزها معك يا أبي، فالدورة دورة، سواء أأكملت في يوم أم في عشرين ألف يوم. سيكون قاسياً عليك شرح ذلك لهؤلاء الواقفين خلف البوابة، والمنتظرين جواباً قاطعاً. إنها محنة، فتهياً لذلك فقط، وانس حيرتك في».

ربت الأصغر، من إخوته، على فخذه ليجعله يلتفت إليه، فالتفت. «أعندك دفتر؟ أنا عندي دفتر»، قالها الصغيرة. «أوه» ردّ بيكاس، «دفتر! كل الدفاتر التي في حوزة والدي هي دفاتري»، فقطب الصغير: «لا. إنها دفاتر بابا».

تملّمل «بيكاس»، فالاسئلة المشروعة لهؤلاء الصبية ستطول: «أبي، أريد أن أبحث معك أمراً يلح عليّ»، ثم نظر الى أمه مكماً: «ومعك أنت أيضاً».

«خاتي» صاح الأب، فدخلت أخته التي بدت، بسرعة دخولها، وكأنها كانت تنتصت من الباب طوال الوقت. «نعم؟» سألتها. «خذي الأولاد وأطعمهم يا أختي» ردّ الملاً، وأضاف: «تأخر الوقت ولم يأكلوا بعد». تقدمت أخت الملاً فأخذت بيد الصغير، ودفعت الآخرين أمامها كخراف مرحة.

زحف «بيكاس» على ركبتيه مقترباً من فراش أمه، بالطريقة ذاتها التي اقترب بها من الموقد. «اسمعاني» بادرهما، وهو عارف أنها سيستمعان حتى رؤوس أناملهما. «أريد أن أتزوج»، وصمت ليقراً شفاههما التي ارتخت قليلاً، ووجهيهما الخاليين من أي تعبير. وكأنها أراد أن يقيدهما أكثر بسحر يزيد ارتخاءهما، حتى ينزلق اللحم عن العظام في ارتجاج مطاطي، أردف: «إنها المحنة». تتمم الأب: «محنة..». كمن يهذي، أما الأم فغاصت كتفها في المخدة التي تستند إليها، وغدت قطعة رمادية من الفراش الرمادي. «إنها محنة ستسببها حين تنقضي، أما أنا فلن أجد الوقت لأنساها.. أريد أن أتزوج، وهو مطلب يسبق سؤالي عن ثياب أردديها»، قال ذلك، في حين تعلقت عينا الأب بمربع أزرق في البساط، نافر صليد، تكاد تختفي إحدى زواياه تحت الفراش. وقد بات يرتب الأضلاع في ذهنه، دائراً من خط أفقي إلى زاوية فإلى خط عمودي، صاعداً هابطاً، لا يعثر على كلمة. كابوس المربع الأزرق يسيطر على اللغة فيجعلها زرقاء ممتدة في المساحة، لا في الحروف ذات الهندسة. امتداد بليغ، يحصر تاريخ الملاء، وتاريخ أسلافه، في عدم أزرق لا محطة فيه ولا انعطاف. مسافة بكاء في مربع تذوب زواياه، وتمحي فلا يعودان، هو وامراته، واقعيين إلا بهذا الصمت المهرج.

«سيتزوج» همست الأم، فأفاق الأب مردداً: «سيتزوج...». وبدا أن كليهما لا يفقهان معنى الكلمة، عدا «بيكاس»، المبتسم من هذا الوجوم الفكاهي. «نعم» قالها جازماً: «أنت تعرف أعمامي بالطبع، وفي مقدرتك أن تختار من بناتهم». «أعماكم» رد الأب الكلمة مرتين، «أه»، ثم انزلق إلى هاوية مربع البساط الأزرق. «أعماكم؟»، وانتفض: «أتمزح؟ قل إنك تمزح.

لن يصدقوا ما سنقول. نحن لم نصدق الأمر بعد، فمن سيهب ابنته من أجل كذبة يا بيكاس؟». رد الابن: «عليك أن تحاول يا أبي. لم يبق من الوقت الكثير»، فاحتدم الأب: «وقت من يا عجيب؟ من يهتم إذا بقي وقت أو لم يبق؟ ولماذا علي أن أنصت إلى إلحاحك هذا لتجعل المحنة أقسى؟ استرنا بحق الله، فانت تجهز علينا». «لا» رد بيكاس، «الأمر محسوم، وستفعلها يا أبي». نهض الملاء على ركبتيه، متوعداً: «ومن حسم الأمر؟»، فأجابه ابنه «ستفهم ذلك فيما بعد يا أبي». «لا أريد أن أفهم شيئاً فيما بعد، ولا أريده الآن. لست معنياً بفهم هذه المحنة، فليفهمها ربك». أمسكته امرأته من

كمه، كأنها توبّخه على كلام لا يليق بشخص في مقامه، فانتزع الكم بذراعه منها، متممًا: «لماذا أنا؟» مشيرًا بأصبعه الى صدره. «إذا كنت المُختار لهذا الامتحان فلست بقادر عليه. للانسان حدود في الاحتمال، ولا تجاوز حدودي هذه الساحة التي يتصيد فيها أخوك العصافير. إسمع . . .». كان نبضه يعلو فتهتز العباءة، كأنها استحال الملاً بجسده كله الى قلب مذعور: «يتهيأ لي أنك تعرف كل شيء، فدلّنا على منفذ»، وتراجع جالساً بمؤخرته فوق فراش الأم، مستسلمًا بمرارة لما سيقوله هذا الذي تزداد الأخاديد الصغيرة حول عينيه عمقًا.

كانت علبة التبغ الفضية، المجاورة للمربع الازرق في البساط، تدور حول نفسها تحت الأنامل العابثة لبيكاس، والأب ينظر الى الحركة مرتقباً جواباً ما. رفع «بيكاس» العلبة على راحته ومدّها الى أبيه: «لفّ لي سيجارة يا أبي». «سيجارة. نعم، سيجارة»، ردّد الملاً وهو يتناول العلبة كالمَنُوم. فتحها وعقد الورق الشفيف على بعض التبغ، ثم بلّل حوافها بلسانه فاكتملت. قدّمها لابنه وهو يشعل ولّاعة الكيروسين ذات الفتيل. عبّ الابن الدخان ملء فمه دون أن يتلعه، ونفخه في هدوء. «التبغ مُرّ يا أبي، كيف تطيقونه؟»، ثم ازدرد لعابه في ما يشبه القرف، لكنه احتفظ باللفافة مشتعلة بين إصبعيه، اللّتين كان يحذّق أبوه فيهما. «والآن يا بيكاس؟» تتمم من غير أن ينظر الى وجهه. ردّ الابن: «السؤال ذاته يا أبي. سأنزّوج، فتدبر الأمر مع أعمامي». نهض الأب واقفاً، ثم ركل ابنه الجالس ركلة خفيفة تنم عن غضب لا يوصف: «لوم تكن . . . لوم تكن . . .»، وكان يبحث عن كلمة يصفه بها فلا يجدها. قد تكون «لوم تكن عجيباً»، أو «غريباً»، أو «شيئاً يدعى إبناً»، أو «وافداً ماتزال الكلفة قائمة بينه وبينني»، أو . . . من يعرف بمَ كان يفكر في فورته، غير أنه أضاف: «لركلتك على وجهك. ورطّنتي حتى أنني أوصدت البوابة في وجوه الزائرين، وها أنت تورط أناساً آخرين في طلب لن يفهمه أحدٌ من كائن لن يفهمه أحد»، ثم اتجه الى الباب صارخاً: «سأهرب. عليّ أن أهرب من هذا البيت». لبس حذاءه البلاستيكي ذا العنق الطويل، وصفق الباب خلفه.

نهض «بيكاس» مسرعاً بدوره، عارياً تحت الغطاء السميك الذي يلفّ به جسده، وخرج خلف أبيه.

نُدّف الثلج تزداد رخاء وتكاثف. لا ريح بعد، والزرراير ذاتها على

السلك الكهربائي فوق ساحة البيت . الملاً يتجه الى البوابة الخارجية مهرولاً، هارباً من شبح ابنه الخافي الذي يهرول بدوره . أخت الملاً تطل برأسها من الباب الذي قادت اليه اولاد أخيها، خالية الوجه من أي تعبير، ثم تغلقه، في هدوء، على المشهد، كأنها الأمر يعني القَدَر وحده .

فتح الملاً البوابة، وخرج هائماً في الساحة البيضاء التي تجاور سور البيت . والمساحة ممتدة شملاً . بضعة بيوت متناثرة تلوح في البعيد الذي يجعله الثلج المتساقط أكثر عمقاً . الملاً يمضي بثقل من أثر قدميه اللتين تغوصان، وابنه يمضي بثقل أيضاً، عاري القدمين، وثمة أمتار بينهما لا تنقص ولا تزيد، فالأب متمهل الآن، والابن متمهل مثله، كشخص يتبع الدليل .

الأم، وحدها، التي تركها الأب والابن في سباقهما، لا تعرف مسافة غير مسافة ذهولها . مربعات البساط تستحيل الى عيون متسائلة، والجدران تقهقه . تشد اللحاف السميك الى ما فوق انفها، وتبقى عيناها محدقتين في فراغ يقرقع بسوطه في الهواء . «إلهي، لو محوت كل هذا في لحظة . .» تقوها صامتة، فيكبر الواقع الذي يشبه جسده جسد ابنها: شعر كثيف ينسدل من لا مكان، وأنامل وردية تعبت بالاسئلة .

يختفي الأب والابن في ما وراء البيوت المتناثرة شملاً . آثار أقدامهما المتعرجة تكاد تلحق بهما تحت مكنسة الثلج البليدة، وفي مسافة أبعد، حيث تكاد تحوم المدينة الصغيرة هذه أن تلحق بتخوم تركيا، أدرك الابن أباه . «أبي، لا حاجة بك الى كل هذا» قالها «بيكاس» صارخاً، فالتفت الأب وقد بان عليه العياء والسلاجدوى . وقف سائلاً ابنه في إشفاق: «ألا تؤلك قدماك الخافيتان؟» . رد الابن: «لا أحس بهما، لكن عيني ستسقطان من محجرهما إذا استمرت المطاردة يا أبي» .

مسح الأب على لحيته بيده الزرقاء التي أخرجها من تحت عباءته، ثم قلبها أمام عينيه متفحّصاً: «لقد ربحت يا بني . إلى أين سأهرب مني؟»، فتقدم منه ابنه ممسكاً بتلك اليد: «فلنعد، إذاً، يا أبي» .

مقبض الباب يدور من الداخل بفعل حركة اليد التي تديره من الخارج . همستان تعقبان تلك الحركة: «تفضّل»، يسأل أحدهما، فيرد الآخر: «تفضّل أنت» . سحبت الأم جسدها من تحت الغطاء لتستند بظهرها الى المخدة . يدخل الأب خالِعاً حذاءه على حدود البساط، بينما يدخل الابن وقد

خلت قدماه من أي لون. يقف حائراً: أبطأ البساط أم ينتظر؟. يصيح الأب: «خاتي» فترد أخته من الغرفة المجاورة: «نعم يا أخي». «هاتي بئاء فاتر» يضيف الملاً. يأتي الماء الفاتر في إبريق نحاسي، وهم يحتفظون في كل غرفة بابرّيق فوق موقد المازوت. «صُبِّيه على قدميه» فتصبُّ الأخت الماء على قدمي ابن أخيها في رفق. ينزلق الماء على الجلد فيتورّد قليلاً قليلاً، منسرباً من مجرى إسمتي في الزاوية يُفْضي الى الخارج، حيث يأخذ طريقه بين الثلج في أخدود ضيق.

حيرة الملاً تجعل يده تنزلق في حركة آلية على لحيته، ثم على صدره ففخذة الأيمن. يتقرّى حدود المربعات في البساط قبل أن يمسك بخيط يتدلّى من حاشية قفطانة. يسحب الخيط فتتفرط عُقْدُ على مسافة بوصة في الحاشية. يتوقف لأنه يدرك أن استمراره في سحب الخيط سيجعل الثنية تتدلّى. يعقد عقدة صغيرة في المكان الذي انتهى إليه سحب الخيط، ثم يقطعه بجمرة لُفافته. يلتفت الى امرأته سائلاً: «من منهم أختار؟». تجيبه: «مَهْمَدُ. أنت تعرف أن لدى أخيك مَهْمَدُ ابنة...». ثم ترفع يدها الى مستوى وجهها، كأنها تضيف: «ربّما».

الملاً يفهم حركة امرأته. لدى أخيه «مَهْمَدُ» ابنة بسيطة العقل، جاوزت العشرين ولا تعرف العدّ حتى العشرين. يحسّ بأسى وهو يفكر على هذا النحو: «ألا يليق ابني بفتاة لا عيب فيها؟» يسأل نفسه. تنخفض عيناه خجلاً من أن تلتقيا بعيني ابنه، لكن عليه أن يحبك المؤامرة على هذه المحنة، وعليه أن يعفي نفسه، في الوقت ذاته، من مساءلة مرفوضة بالتأكيد. ستكون حجته أمام إخوته الآخرين ضعيفة جداً، لكنه إن سأل «مَهْمَدُ» يد ابنته المسكينة هذه فانها يمسك بضعف أخيه كله في يد واحدة.

خمس دقائق الى الخامسة مساء. يعيد الملاً ساعته ذات الغطاء الى جيب صدرته. «فلأَمْضِ الآن» يقولها بصوت عال، من غير أن يعني أحداً بقوله. ينهض في اتجاه الباب، وقبل أن يكمل ارتداء الفردة الاولى من حذائه البلاستيكي، المبطّن بصوف أشعث، ينادي أخته «خاتي» فتأتي اليه. يسألها أن تهياً لتمضي معه فتجيبه أنها جاهزة. ينظر إليها الملاً متوقفاً أن تسأله في الأمر، لكنها لا تسأل. «خاتي» تعرف التسلسل المرّ للمهزلة، من غير أن تسمع أو ترى إلا القليل. هادئة كمن عليه إنجاز مهمة أحيط بها علماً من قبل. تفكر

بين الحين والحين في أطفالها الذين تركتهم في البيت طوال النهار، لكنها عارفة أن زوجها الوديع يقوم بالأمر على أحسن ما يكون.

كانت «خاتي» مُهَمَّلَةً في العادة، لا يستدعيها أخ من إخوتها إلا لترعى أطفاله إذا مرضت الأم، أو للطبخ إذا كثر الضيوف. وكذلك يفعل إخوة زوجها وأخواته. عمر متواصل من غسل ملابس طفل متسخة، أو ملابس أم وضعت وليدًا. عمر متواصل تحت أئداء الأبقار والأغنام، حيث تطفو رغوة الحليب النّيء في قدور سوداء من الخارج بفعل الدخان. عمر من غربله سَقَطَ القمح الرخيص الذي يشتريه زوجها قبل إرساله الى المطحنة، وها هي فخورة، الآن، بمواكبة أخيها في أمر صعب.

تتبع «خاتي» أخاها في الظلام الذي يحل باكراً في هذا الوقت من السنة، وكلاهما يستهدي بشعاع الثلج الذي يخترق الأزقة غير المرصوفة في طرف المدينة. حَذَبَاتٌ صغيرة، وحفر في الطريق، تجعلهما يتعثران، أو يغوصان. لا صوت. لهاث فقط. الأخت تفكر في المسألة على نحو قدرّي متّصل بالأعالي التي تغيب فيما وراء الثلج، والملا يفكر في مدخل الى زيارته، ثم ينسيان، معاً، أسئلتهما، حين يقرعان على البوابة الخشبية التي تتوسط السور الطيني. يقرعان بقوة حتى يسمع أهل البيت فيرتفع النبض في صدغيهما. صوت بعيد يجيبهما: «لحظة.. لحظة».

يفتح الباب فتى في الثالثة عشرة، فيميزهما: «عمي. عمتي». يدخلان دون أن يجيباه بشيء، فيردّ الفتى البوابة بقوة حتى تنغلق، ثم يدفع الرتاج الحديدي الصدى في الحلقة الصدئة، فينبعث صوت كائنين كلب. يسمع الملا وأخته، في مرورهما، نهوض بقرة في الزريبة، وقافأة دجاج في القن ما تلبث أن تهدأ فور عبورهما. يصلان الى باب البيت الذي يبعد عن البوابة مسافة ثلاثين متراً، فيدفعانه دون استئذان. ضوء سراج الكيروسين خفيف في الداخل، لكن وهج النار في المدفأة يضيفي لألأة منيرة، وظلالاً أنيسة على الجدران. ينهض الجالسون من مفاجأة الزيارة. لقد حاولوا زيارته للتهنئة فكانت بوابته موصدة، وها هو يزورهم، مُبَاغِتاً، فينفضون في آلية من يباغت لصاً. أكانوا يتحدثون، في تلك اللحظة، عن بوابة الملا؟ أم عن قِحتِه التي دفعته الى الاختفاء في مناسبة هي للفرح؟. بوغتوا وهم يتحدثون، مُرْخِنين سيقانهم حول الموقد، وعلى وجوههم أقنعة من دخان اللفافات. «تفضل. تفضل»، دبّتِ الهمهمة.

عائلة أخيه «مهمد» حول الموقد بأنفارها التسعة . «مهمد» يكبر الملاً بستة أعوام . وثمة جيران أيضاً، أتوا يتسامرون . لم يرد الملاً كثيراً على إيماءات الترحيب، كأنها هو في عجلة من أمره . والفاصل الوحيد بين صمته ووجوم الجالسين كان أن عَقَدَ لُفافة من علبة أخيه التي انزلقت على البساط حتى لامست يده . نفخ سحابة من الدخان من فمه ، أما ما خرج من منخريه فقد استقر في لحيته ، متموجاً كضباب خفيف في حقل فلفل . «أريدك أنت وزوجك في خلوة» قالها لأخيه . ولأن كلامه ، هذا ، خلا من أي انفعال ، فقد أحس الجالسون ما يريب ، فاستأذن الجيران وخرجوا ، أما أفراد العائلة فالتمسوا موقداً في غرفة أخرى ، كان يفصلها عن هذه الغرفة باب واطىء تخفيه ستارة سميكة من القنب الملون .

«أخي» بادر الملاً الرجل الآخر ، الجالس محتضناً ركبتيه الى صدره ، «جئت أسألك ابتك سينم» ، وجال بنظره على أخته وزوج أخيه .

حدّق في اللهب خلف النافذة السيلوفانية الضيقة في صفيح الموقد ، عارفاً ما يحول في رأس الزوجين . كان يقرأ وجهيهما اللذين ينتظران ، بعد الزيارة المباحثة ، أن يفاجئتهما بموت الوليد الذي جاءه فجر هذا اليوم ، لا أكثر ، إذ ما من إشارة الى غير ذلك في وجهه هو . «أنصتا إليّ» أضاف ، «لن تفهما ما سأقوله ، لأنني لم أفهمه بعد ، لكنني أرجو أن تستسلما للأمر كما استسلمت له . إيني . . . » ، وارتشف من لُفافته نَفْساً أتى على نصفها ، فمال الجمر حتى كاد يسقط ، فصَحّح الوضع بإصبعه بعدما بلّلها بلسانه . «إيني بيكاس ، الذي وُلِدَ فجراً ، ينمو في الساعة الواحدة ما يقارب ثلاث سنين . مشيئة الله . وإيني يريد أن يتزوج اليوم ، أعتقد أنكما فهمتما لماذا أغلقنا البوابة في وجوه الزائرين . لا أريد أسئلة كثيرة ، لأنني منتفخ بالاسئلة التي تدور في رأسي . أريدكما أن تستسلما لأكذوبة ، لا أكثر ، ولا أقل» .

لم يُجرِ «مهمد» جواباً . زوجه وضعت يدها على فمها كأنها تسند عينيها حتى لا تسقطا . «أوه» نفخ الملاً . «ما يحصل لكما من دَهَش حصل لي حين رأيته بأَم عيني ، للمرة الأولى ، وهو ينمو دقيقة بعد دقيقة . تصوّر يا أخي أنك إذا سهوت قليلاً ، وأنت تلف لُفافتك ، وأفقت ثانية ، تجد شعراً على صدغيه ، ثم شارباً ينمو ، ثم ترى تجاعيد تأخذ مكانها ، الواحدة تحت الأخرى ، في هدوء . وهو يعرف ما نعرف من غير أن يكون قد رأى . لطيف جداً ، ينسبك

ما أنت فيه من حيرة»، وابتسم ليبدد ما لن يبده أحد. «لن تخسرا شيئاً. شاركاني هذه المحنة من غير أن يسمع أحد صخب هذه المحنة. قصدتكم لأنكما تقيان».

رفع «مهمد» وجهه المنكس وقد اختفت عيناه بفعل الظلال التي يرسمها لهب الموقد: «اخترت ابنتي بسبب قصورها العقلي؟». غمغم الملا فلم تسعفه إلا مخارج حروف لا يبين فيها جواب. بادره أخوه، ثانية، كأنها ينقذه: «لن يطلبها مني غيرك. أعرف ذلك. لكنها ابنتي على كل حال. .»، فردّ الملا بصوت يشوبه احتداد خفيف: «وبيكاس ابني على كل حال. المسألة ليست مساومة على الأبوة بيني وبينك، بيد أنني لن أجد فتاة أخرى تهب نفسها لهذا الموقف المحير»، وصمت الملا ليعقد لفافة جديدة من علبة أخيه، وإذا رفعها الى فمه أردف: «نعم يا أخي، قصدتك لضعف موقفك بطلب ليس فيه إغراء»، وأشعل اللفافة في هدوء من أدلى باعتراف ينتظر مغفرة مضمونة.

قال «مهمد»، موجهاً سؤاله الى زوجه: «وماذا ترين، أنت؟»، فردّت حيرى: «إنه أخوك. . .» ولم تكمل. تتمم «مهمد»: «ومتى تريدها جاهزة؟». «الآن. . . سنأخذها معنا» ردّ الملا، وأضاف: «لا نريد الابلاغ عن ذلك حتى الغد. فلنكن وحدنا في عقد القران».

قامت زوج «مهمد» على فورها، هاربة من مواجهة نفسها وزوجها بأسئلة كثيرة، ثم دخلت من وراء الستارة القنبية الى الغرفة المجاورة. مضت دقائق ارتفع بعدها صوت أطفال وصبيّة يهتفون في نشيد ساخر: «سيي نم. . . سينم. . . نم نم»، فعرف الكبار أن المرأة اضطرت الى إبلاغهم بالأمر، لتبرر مغادرة أختهم الساذجة للبيت على هذا النحو المضحك. وبعد ربع ساعة، على التقريب، كانت الفتاة البسيطة تقف قريهم بابتسامة بلهاء تتحول بين الحين والحين الى نصف ضحكة مكتومة، ومن خلفها تقف أمها، حاملة كيسين صغيرين هما عبارة عن ملابس الفتاة وحوائجها. «سأسبقكم» قالها الملا وهو ينهض: «سأعرج في طريقي على الشيخ عارو لأصطحبه لعقد القران». ثم انتعل حذاءه وهم بالخروج، غير أنه توقف ملتفتاً الى أخيه: «لا تفعلها إذا لم تكن مقتنعاً يا أخي»، ورمى بعقب لفافته خارج الباب الذي فتحه قليلاً، فأشار عليه أخوه بحركة من يده: «إمض. إمض» من غير أن يقولها.

كانت «خاتي»، أخت الملاء، أكثر خفة في سيرها، ترى خط الثلج الرمادي بعيني بوم، وتحس بالأثلام كخفاش. وحين صارت على مقربة من سور بيت أخيها هرولت. فتحت البوابة على مصراعها، ثم انعطفت في اتجاه غرفة الأم. دخلت هامسة في فحيح عال: «لقد جاءوا، فليرجع الأولاد إلى الغرفة الأخرى». ردّ «بيكاس»، الذي كان جالساً خلف الموقد، ولا يرى منه سوى طرف قفطان أبيه الأكبر من مقاسه: «فليبقوا يا عمتي، لا ضرر في ذلك». وقبل أن تستنفر عمته كلمات أخرى كان الوافدون في الباب. قالت «خاتي»: «تفضلوا» فدخلوا، الأب أولاً، فابنته، ومن خلفها أمها بالكيسين الصغيرين. ردّت «خاتي» الباب في سرعة، عازمة على أن تجعل الجوا الصارم أكثر ليناً، لكن «بيكاس» أخذ المبادرة منها، ناهضاً مادّاً يده المفتوحة: «أهلاً عمي» فذهل العم. أخذ «بيكاس» يد الرجل المرتحية بين يديه، وهزّها. «تفضل» وأشار إلى وسادة قرب الموقد، فانزلق العم ثقيلاً بجسمه عليها. رفع «بيكاس» عينيه إلى وجه المرأة، ثم جاوزها إلى وجه الفتاة. ردّ بابتسامة بلهاء على الابتسامة البلهاء. فم الفتاة مفتوح أبداً، وثمرت ضحكة محتبسة بين الأسنان. تدخّلت «خاتي»: «اجلسا. اجلسا»، وقدمت وسادتين للفتاة وأمها. أمّ «بيكاس» ردّت الغطاء عن جسمها فبدت كأنها تهبّأت للموقف: ثيابها كأكمل ما تكون، وعلى رأسها غطاء موصليّ أحمر مرقط ببقع سوداء، وحول استدارة الرأس منديل زهرّي من الحرير.

الصمت يتصيّد الصمت بصنارته بين الوجوه. كلُّ يراقب الآخر، مُطرقاً حيناً وملتفتاً حيناً، أو عابثاً بأي شيء يقع بين يديه ليداري العبث المخيم على الموقد. حتى أولاد الملاء، الذين بقوا في الغرفة بتوصية من أخيهم «بيكاس»، كانوا يلكزون بعضهم البعض دون نأمة، ومن يتألم منهم يفتح فمه على آخره، ثم يعود فيعض على أسنانه. حاول الصغير، ذو السنوات الأربع، الاقتراب من العروس المرتقبة فشده أحدهم من حاشية جلبابه، فسقط على وجهه، بينما ظلت مؤخرته في الهواء. هم أن يبكي فتلقّفت إحدى الأيدي فمه وسدّته.

على حين غرة دخل الشيخ «عارو» يتبعه الملاء. نهوض جماعي وجلس جماعي. إيهاءات بالرؤوس لا معنى لها حول الموقد. «اقرب يا بني. اقرب يا ابنتي» قالها «عارو» مستعجلاً. قطعة ورقية من فئة الخمس والعشرين ليرة جنببت العائلة اسئلة الشيخ. «بسم الله. أنكحتها لك... تأخذينه،

تأخذها. عُهدَةٌ. المهر مقدّما... خمس ليرات رشادية...». هذه الكلمات، إضافة إلى كلمات أخرى، استقرت على البساط الصوفي ذي المربعات. بعدها نهض الشيخ متمتًا: «على بركة الله»، وخرج يودّعه الملاً في الباب.

الصمت يزداد ثقلًا، من غير أن تقطعه التفاتات الفتاة البسيطة الفجائية إلى هذا الوجه، وإلى ذاك، مسترسلة في ابتسامتها البلهاء. «خاتي» ألقت بثقلها على الموقف: «أيّ غرفة نختار للعروسين يا برينا؟»، فردّت زوج الملاً: «غرفة المضافة»، وأومأ الملاً برأسه موافقًا، فهرولت الأخت لتهيء ما يلزم لليلة كهذه.

ما من أحد في حاجة إلى قليل من السمر. هكذا بدا الموقف بين الملاً وزوجه من جهة، وبين أخيه وزوجه من جهة أخرى. قد يُبدّد الصباح شيئًا من هذا الكابوس: الوجوه يميل إلى تخمين كهذا. علبة تبغ الملاً، وعلبة أخيه انتقلت بالتناوب بينهما. حركة آلية من الأفواه والأنوف لنفخ الدخان. تجاسر الملاً بكلمات قليلة إلى أخته: «حان وقت العشاء يا خاتي. أطعمي الأولاد واذهي إلى بيتك. نشكرك على كل شيء. سيفتقدك أطفالك وزوجك». واستدرك فأضاف: «سأتدبر لي ولأخي وزوجه شيئًا نأكله»، فردّ «مهمد»: «اعذرنا. يجب أن نعود إلى أولادنا لتتغشى معًا يا أخي»، فلم يلحّ الملاً، كأنها يودّ أن تغيب الصورة الماثلة في أسرع ما تكون. «كرزو» هتف الأب بابنه البكر: «دلّ أخاك وعروسه على غرفة المضافة».

لم يكن يهم الملاً، في هذا الموقف، أن يرشد ابنه «بيكاس» إلى ما ينبغي فعله، فالعادة أن يقوم رجل وامرأة، كلٌ بدوره، بإرشاد العريس والعروس إلى ما يتوجب عليهما في هذا اللقاء الأول، لكن الاستثناء في الموقف أنسى الحاضرين لعبة المرح التي يُفصح فيها العارف عن معرفته للساذج الجاهل بهذه الأمور. النساء كنّ يتفكّهن بالعرائس، قائلات: «أحرقن خصلة من شعرن قرب الفراش، قبل أن يدخل عليك الرجال، لتجعلنهم متعلقين بأجسادكن إلى الأبد»، وإذ يرين أن الفكاهة انطلت عليهن يُقهقهن: «لا. نمزح. أرفضن الاستسلام ليشعر الرجال بعقّتكن». وكان الأمر يكلف العرائس ما يشبه الاغتصاب من جراء ذلك. أما الرجال فينصحون المقبلين على الزواج قائلين: «لا تطيلوا المكوث في الداخل. فضوهن واخرجوا على

الفور، لأن في الاطالة انتقاصاً من ذكورتكم»، وقد كلف ذلك الكثيرين عنة من هفتهم الى السرعة فما استطاعوا.

«كرزو» يقود أخاه وعروسه الى المضافة بخطى تترك خشخشة في الثلج، حاملاً قنديل الكيروسين ذا الشعلة المرتشعة. فتح الباب ودخل، فدخل من خلفه. علق القنديل الى مسار في الحائط، وانكب على المدفأة يشعلها بخرقه مبللة بالمازوت، معلقة الى سلك طويل، وحين تيقن من ديب اللهب في القاع الصفيحي للمدفأة، انسل خارجاً.

كان الفراش الممدد قرب الموقد مجهزاً على عجل، فاللحاف السميك مكوم فوقه دون ترتيب، والشرشف القرمزي ملقى قرب الوسادة في إهمال، منتظراً من يقوم ببسطه على الفراش. جلس «بيكاس» على اللحاف تماماً، فبدأ عالياً عن الأرض. أشار الى «سينم» لتجلس، فاختارت مكاناً على البساط قرب الموقد، متجهة بقدميها العاريتين صوب الصفيح الذي بدأ يتوهج. وكانت تبدو، في جلستها تلك، كطفل على وشك أن يستلقي ليتلقفه أحد قبل ارتطام ظهره بالأرض. الابتسامة البلهاء تتحول الى هأهأة، و«بيكاس» يتفكر في الأمر على نحو من يُقبل على لعبة. مد إصبعه مداعباً خاصرته فتلوت مُقهقهة. نزل عن اللحاف المكوم زحفاً، وشد غطاء رأسها الموصلي فاهتزت جديلتاها السوداوان. بدا خائفاً قليلاً، أو مُتهيباً، لكن سذاجة الفتاة الضاحكة، وخفتها، سهلتا عليه إمعانه في اكتشافه الغريب.

لهائه الغرائزي يرتفع، متستراً بابتسامة كابتسامتها. ينحدر بيده من كفتها الى ثديها فلا تجفل. تنظر الى يده بهأهأة تجعل اللعاب يتلأأ في زاوية فمها. أرجع يده الى حضنه، وسألها بصوت متقطع: «أتعرفين لماذا أنت هنا؟»، فردت الفتاة محدقة بعينيها الساخرتين: «للتزوج». سألها ثانية: «أتعرفين معنى الزواج؟»، فردت ووجهها على الحال ذاتها: «يعني أن تصبح زوجي». باتت بلاهتها تخيله الى واثق لا يتقطع الكلام في فمه: «هل أخبرك أحد قصتي؟». ابتسمت من غير أن تفهم السؤال. «من أنا؟» سألها، فردت: «أنت بيكاس». تتم: «أعرف أنني بيكاس...»، فقاطعت: «أنت ابن عمي». «أوه» نمت بيكاس ساخراً من اكتشافها هذا.

مد «بيكاس» ساقيه مثلها قرب الموقد، ملاسماً بقدمه قدمها في دغدغة خفيفة. الفتاة لا تتوقف عن الهأهأة بفم مغلق. بادرها، وهي تنظر الى حركة قدمه: «أتصدقين أنني ولدت اليوم؟». «هأ. هأ»، ردت الفتاة. «ولدت

اليوم، وكبرت حتى صرت رجلاً». «هأ. . هأ». كان مسترسلاً في دغدغة قدمها: «عمر الانسان، في الأصل، يوم واحد، ومن يعيشون لسنين هم استثناء»، قالها هامساً، وقد توقف عن الدغدغة، غير أن الفتاة بادرت، حال توقُّفه، الى التحرش بقدمه، بغية الاستزادة من هذه اللعبة التي أعجبتها، فاستسلم «بيكاس» لتحرشها، مكماً حديثه: «يوم واحد يكفي. كم عمرك؟ عشرين سنة؟ كنتِ وفِّرتِ على نفسك مليارات من هذه الهأهأ لو عشتِ يوماً واحداً فقط. لقد مللت من نظراتهم الفاحصة في ساعاتٍ، فماذا يحدث لو امتدت هذه النظرات لسنين؟. كل يوم ستقابلين النظرات ذاتها من غريب يشمُّمُك كالكلب، قبل أن يطمئن إليك»، واستدرك، كأنها يسأل نفسه: «أين تعرِّفتِ على الكلاب؟. كنتِ حاضراً على كل شيء، في مكان ما، ولا يهم أن استقصي ذاكرتي لأعرف المكان ذاك. لقد رأيت الكثير، وهذا يكفي».

الفتاة مسترسلة في دغدغة قدمه بقدمها. التجاعيد تأخذ أمكنة لم تكن قد بلغتها من قبل. لحيته تتصل وتزداد كثافة. الهأهأ تترافق، أحياناً، مع تكتكة خفيفة في صفيح المدفأة، الذي يتمدد بفعل اللهب، فتساقط نثارات من قشرته الداخلية المتفحمة على القاع. «أعجبتني اللُفافات»، قالها مُستذِكرًا، وقد أرخى رأسه على كتفه. «لتيني اصطحبت علبة أبي. أتعرفين. . .» التفت إليها فرأها تحدِّق فيه في وداعه لا استفسار فيها. «أتعرفين أنني ملِّمٌ بالاشياء، لكنني افتقر الى الاحساس بطعمها. لقد رأيت من قبل، في مكان ما - لن أستقصيه، فأنا متعب - من يأكل خبزاً ولحماً، لكنني تذوقتهما اليوم فكأنني عرفتهما تَوًّا، لا من قبل. والمرأة. . رأيتها. أشعر برعشة أسفل المعدة. الأمعاء، نعم. لماذا أشعر برعشة في الامعاء؟ لأنني مقبل على تذوقها؟». إذ ذاك استدرك تناقضاً ما، فأردف: «يوم واحد يكفي. أن تستمر في التذوق يعني أن تعيش أكثر. المعرفة تكفي، والاحساس بالطعم شواذ في القاعدة».

«هأهأ. . . امي ستطعم الدجاجات غداً، لاني سأبقى هنا». ألقت الفتاة بكلماتها هذه فاستعاد «بيكاس» احساسه بدغدغة قدمها لقدمه. «الدجاجات» ردَّد من ورائها، وصاح متفكهاً: «كأ كأ كأ كيك» مقلداً صوت الدجاج، فازداد هرج الفتاة حتى كادت تصدمه برأسها المهتر قام من جلسته، ثم احنى ظهره، رافعاً رجله اليمنى عن الارض: «كأكأكأ»، فتشظَّت القهقهة في فمها مبللاً بلعاب متطاير. «كأكأ كيك» ودار حول

المدفأة. رددت البلهاء بدورها: «كأكأ» واستلقت على ظهرها. جثا «بيكاس» قرب صدرها. ثم جعل ينقرها بأنفه أسفل الثدي اليسر، مثلما تفعل الدجاجة حين تلتقط الحب، فارتفعت ساقاها المرتعشتان من الضحك في الهواء.

كان «بيكاس» ماضياً في لهوهِ حين بادرتهُ البلهاء، وسط القهقهة المبللة بلعابها: «عليك ان تقول كوكو، كوكوو»، فسألها، وقد رفع رأسه عن صدرها: «لماذا؟»، فردت: «لأنك ديك، ولست دجاجة». رفع «بيكاس» حاجبيه في تساؤل ساخر: «وكيف تعرفين انني ديك؟»، ردت الفتاة: للديك خصيتان، وللرجل خصيتان». «أوه. لقد نسيت ذلك»، قالها مبتسماً، ثم استلقى قربها على ظهره، متكئاً على مرفقيه، وجعل يدغدغ قدمها من جديد.

نظر الى المدفأة لبرهة، ثم التفت اليها فرآها تحديق في قدمه اللاهية. سحب ساقه اليسرى في هدوء حتى اكتملت زاوية حادة في مثلث ضلعاها الساق والفخذ، وقاعدته ارضية الغرفة. انحسر جلبابه عن ركبتهِ في ذلك الوضع، وقد تعمد ان يشده باطراف انامله، خلصة، لينزلق حتى منتصف فخذهِ. نظر اليها من جديد فرآها تتبّع حركته المُفتّضة بفم مبتسم مفتوح. رفع يده الى فخذهِ وانحدر بحاشية الجلباب فتجمع في ملتقى الفخذين، اللذين يكسوهُما شعر خفيف فوق بشرة لا لون لها الا لون ضوء القنديل، الذي يعلو او يخفت بفعل امتصاص الفتيل السريع حيناً، والبطيء حيناً آخر، للكبروسين.

يتراقص نبضه فيخرج زفيره متقطعاً. المعرفة مُنَجّزة، لكن نكهة المعرفة مازال على مرمى حركة صغيرة من جسده: «ضعي يدك هنا»، وأشار بعينه الى حيث تجمّع الجلباب فوق ملتقى فخذيه، فمدّت البلهاء يدها المخفورة بهأداة خفيفة حتى استقرت في المكان الذي اشار اليه. «ارفعي الجلباب» قالها هامساً، فسحبت يدها في حركة مباغتة، مصحوبة بقهقهة عالية: «كوكووو. . ديك».

كان واضحاً ان البلهاء مستمرة في اللعبة التي بدأها، غير حافلة بزفيره المتقطع. لكن «بيكاس» امسك بيدها، واعادها الى حيث كانت بردّة عصبية لم تبين على وجهه، اذ ذاك هدأت القهقهة، لكن الابتسامة ذاتها ظلت تحوم على فم «سينم»، التي اراحت يدها على ملتقى الفخذين، ولم تسحبها بعد

ذلك. «ارفعني الجلباب» ردد الكلمة مرة ثانية، فشددت البلهاء الجلباب حتى سُرته.

نظر «بيكاس» الى نصفه العاري، ثم التفت الى الفتاة فألفاها محذقة في اعضائه. دفع يده في خَفر حتى استقرت على فخذها. بدأ يسحب ثوبها بدوره، لكن الفتاة اعتدلت في جلستها، مطوقة ركبتيها بذراعيها في وضع مضموم، وعيناها لا تفارقان ذلك الظهور الغريب لاستطالات في جسد الرجل. البلاهة تنحسر الى مكنم الفضول. يد «بيكاس» المرتعشة تذرهما بشيء أبعد من لعبة، ووجهه الذي يكتسي صرامة في إقدامه الحائر لا يخفى حتى على دجاجة بلهاء مثلهما. همس: «مايك؟»، فلم ترفع عينيها عن نصفه العاري. همس ثانية: «قلتُ للديك خصيتان، وللرجل خصيتان، وانا رجل...». وكأنها استأنست البلهاء بعودة الكلام بعد وجوم متحفز، فنذت عنها هأهأة خفيفة. «كأكأ» ارتفع صوت «بيكاس»، عارفاً ان ترئصه الفجائي كذكر بها قد صعب عليه استسلامها كأثى، فقهقهت البلهاء من معاودة اللعبة.

على «بيكاس» إذأ، ان يعود بإغوائه الى أوله. دغدغ خاصرتها فتلوت. قلّد الدجاج من جديد، ناقراً بأنفه على ثدييها فاستلقت. انسل بجسده قليلاً قليلاً حتى استقر فوقها، متذرعاً، في اللعبة، بإمساك ساقها المتأرجحتين، في الهواء، بين ساقيه. يده اليسرى تستمر في دغدغة الخاصرة، بينما تشد اليمنى الثوب حتى ملتقى الفخذين. اشتداد صخب البلهاء بحركاتها العنيفة من تحت، وبقهقهاتها، جعلها تسهو عن التسلل العاري لحيلة اللحم. ساق الرجل تستقر في فرجة بين ساقها، ثم تشتغل دفعاً بينهما ليتمكن الحوض من حصاره. سكنت البلهاء وقد فاجأها ارتطام صلب بمكان حرصت طويلاً على اخفائه بغريزتها. يد «بيكاس» كانت اسرع من تصوورها لما يجري، فقد استقرت على فمها بإحكام، بينما اندفع الحوض في حركته التي استقاها من أول اتصال بين الخليقة.

انتهى الامر في ثوان. تهيو «بيكاس» جعله سريعاً الى درجة لم يدرك معها ما جرى، لكنه في استلقائه قربها، حين استقر خائراً على البساط بحركة دفع قوية من يدها، أحس فضول الجسد السرمدى: اكتشاف ما لن يُكتشف قط، وقد قطعت البلهاء عليه ذلك شبه مولولة: «دم.. دم..»، رافعة يدها

اليمنى الى مستوى عينيها، فصرخ بملء فمه: «اسكتي»، فخيم عليها وجوم صلب، ويدها مازال في الهواء.

كان ثمت حلة وإبريقان في زاوية قرب الباب، حيث مساحة دائرية ضيقة من الاسمنت، ذات انحدار يؤدي إلى مَسْرَب يمضي خارجاً. والزاوية تلك مخصصة للاغتسال عادة. أحضر «بيكاس» الأبريق ووضعهُ على سطح المدفأة، ثم جلس قرب «سينم» التي بدت خائفة مرتعشة. لم يقل لها شيئاً، بل مَسَّ براحته كتفها، وربت عليها مطمئناً. بعد دقائق جسَّ «بيكاس» الإبريق. أنزله، ومدّه إليها: «اغتسلي هناك»، وأشار الى زاوية الباب. تناولت البلهاء الابريق ومضت إلى الدائرة الاسمنتية. رفعت ثوبها حتى الخاصرة ثم قرفصت، وجعلت تغسل نفسها. تركت الابريق هناك فمضى إليه «بيكاس»، وفعل ما فعلته، مجففاً ما بين فخذه بجلبابه كما جففت الفتاة نفسها.

حين صارا جالسين حول المدفأة من جديد، بادرها: «هاتي يدك» فمدتها إليه. تحسسي هذه الاسنان»، وفتح فمه على آخره. «بدأت تتدخل قلها حين استعادت الفتاة يدها، فأجابته وهي تُهايم من جديد: «أسنان أبي تتدخل. إذا خلعت أسنانك ارميها الى الفضاء وغمض العيني». سألها بمرح: «ولماذا علي أن أفعل ذلك؟»، فردت: «حتى لا يأخذها الشيطان. ارميها إلى الفضاء مُغمض العينين». هم أن يسألها أكثر في الأمر، فراها تمد يدها، خلصة، تحت ثوبها، فسحب يدها محتدأ: «إنسي يا سينم. كل النساء يجري لهن ذلك»، وزحف متراجعا حتى استقرَّ على الفراش، فتمدد.

لأول مرة يحسَّ «بيكاس» بازدحام غير متجانس من المشاهدات في ذاكرته. يد أمه التي مرّت على وجهه في حنان، ثم في حيرة، بعد ذلك، مستقرّة نمواً لا تجد إليه فهماً. كبش ينهار بضربة من سكين تلتمع شفرته تحت ضوء الشمس. أين رأى ذلك؟ رجال كثيرون على باب موصل يذوب رويداً رويداً كشحم فوق النار، ليبدو رجال آخرون، من جهة الداخل، يقفون الوقفة ذاتها. «أبي». رأى نفسه راكضاً ليقحم الواقفين، صارخاً «أبي».

كرة كبيرة بيضاء تتدحرج على مستوى أعلى من رؤوس الرجال، ثم تنحدر صوبه في هدوء. يرفع يديه ليصدّها متشبثاً بالأرض بقدميه. يزداد ثقل الدفع و«بيكاس» يصرخ: «أبي». الأب على مقربة منه، خارج الجمعين المتقابلين من

الرجال، الذين يفصلهم الباب الذائب. يعض «بيكاس» على أسنانه لاهثاً، وينظر إلى أبيه ليقول في حشجة: «ظننتك في وسطهم يا أبي».

«ظننتك»، كان يرددها لنفسه في استلقائه على الفراش، بما يشبه نوبة حُمى. بعد قليل تراخى جسده المُجهد فرفع رأسه لينظر إلى عروسه، فأراها تحدّق فيه. همس: «كأكأ» مداعباً، فلم تردّد إلّا وجوماً. استند على مرفقيه، سائلاً: «ما بك يا سينم»، فأشارت بإصبعها إليه، رفع ظاهريده بطريقة مائلة الى مستوى عينيه، لينعكس الضوء عليها، مدرّكاً من وجوم الفتاة ما كان يحسّ به في أعماقه، فأراها مألّى بالتغضّضات، وقد تقوّست أصابعه فلا تستقيم برغم جهده. «أوو» همس، «اللعبة تكتمل».

رعيشة فرع عامضة تعتريه. كان يبدو واثقاً من دورته الغريبة، لكن ثقته تتزعزع في كل مرة يرى الحيرة ذاتها على وجه أحد ما. فترات سلامه هي ان يستسلم المراقب، قبل عودة المراقب، نفسه، الى حيرة جديدة من زمن لا يراه إلّا على جسد «بيكاس». «ما هم» يقولها لنفسه، «لو وضعوا خصيتي في كفة ميزان، ووضعوا سنواتهم في الكفة الاخرى، لرجحت كفتي». اذ ذاك رفع رأسه عن الوسادة في وهن: «أوه، سينم»، نادها ولم يكن من داع لمناداتها، فهي لا تفارق وجهه بعينيهما،: «كم مرة يضاجع الرجل المرأة في حياته؟»، ولما ظلت ساكته، اردف: «في وهنه سينسى كل شيء، ضارِعاً الى دقائق قلبه حتى لا تحونه». ثم اشار اليها: «اقتربي»، فاقتربت، زحفاً، من الفراش. قال: «ارفعي ثوبك»، فانتابتها هأهأة خافتة لا طعم لها. «ارفعيه. ارفعيه» ردّد الكلمة آمراً، فرفعته البلهاء حتى ثدييها. ظلّ يحدّق بعنق ملتوية الى ملتقى الفخذين، هامساً: «هذا هو. هذا هو».

نُدْفُ الثلج تتلاحق في ساحة البيت بعد سكون قصير. الليل المرتجف كطريدة في شبكة رمادية، يلوح مضاء في هذه الجهة من جسده المستطيل، أو في تلك، بوهج بارد يتضوّع كالرائحة من الارض. غرفة الملاء وزوجه، حيث تكوّم الاولاد بعضهم قرب بعض تحت الاغطية، ترسل لألاء باهتة من النافذة، ومن ثقب المفتاح الكبير، الذي نسي أحدهم أن يسده بخرقه، حتى لا يتسلل منه الهواء. باب الزريبة مغلق علي بعضه اغنام وبقرتين، لكن دفناً خفيفاً ينبعث مما يسمّى «غرفة التنور»، المسقفة بصاج عار. ذلك ما يمكن أن تحس به أية روح عابرة في ذلك الوقت، فوق الساحة؛ روح كلب أو إنسان.

بصرير لا يسمعه إلا من يكون قريباً يُفتحُ باب غرفة «بيكاس». شبح يستند بظهره الى عارضة الباب ليرتدي حذاءه، ثم يوصد الباب خلفه بصرير لا يسمعه إلا من يكون قريباً. يتقدم الشبح في الساحة ساحباً قدميه وراه، في خشخشة عالية، متوجّهاً صوب بوابة السور، وحين يدركها يستند عليها قليلاً، كمن يلتقط أنفاسه. يرفع المزلاج ويسحبه يمينا فتتحرر الدفة اليسرى من البوابة. يختارها ويردّ الدفة خلفه، ثم يمضي شمالاً ليغيب في الشبكة الرمادية المنسوجة من الليل والثلج.

قال «بيكاس» للبلهاء، قبل خروجه بدقائق من الغرفة: «هاقي عباقي»، وكان يشير الى العباءة المبطنّة بالفرو، التي تكوّمت حيث كانا يلهوان. وهي عباءة استعارها من والده على كل حال، في يوم لم يكن كافياً لأن يشتغل خياط على مقاساته المحيرة. وحين حملت الفتاة العباءة اليه، وقف في عياء، سائلاً ان تساعده في ارتدائها، ولما اكتمل له ذلك جعل يتفرّس فيها من وراء حاجبيه المرتخين. «سينم. . اجلسي»، فجلست الفتاة بآلية مبهمة. كشف العباءة، بيديه، عن جلبابه، في الصدر حتى القدمين، هامساً: «تشمّيني من الاسفل الى الاعلى». بدت الفتاة واجمة، في مزيج من الحيرة والبلاهة، فأمسك برأسها ضاغطاً عليه الى اسفل: «ابدأي من هنا»، وكاد رأسها أن يلامس البساط من ضغطه.

عادت الهاهأة الى فم البلهاء وهي تشمه من اسفل الى اعلى، ككلب وديع، ثم تنحدر من أعلى الى أسفل، في لعبة لن تنتهي. أوقفها وهو يضم ذقنها براحة يده، ثم يرفع وجهها اليه، قائلاً: «أوصدي الباب خلفي»، فأومأت «سينم» برأسها إيجاباً في راحته. مضى الى الباب وفتح فافتحمت وجهه لفحة كريمة من الثلج الكريم. استند الى عارضة الباب، وارتنى حذاءه الذي بدا ضيقاً، ثم أغلق الباب خلفه منسللاً الى قدره.

آثار الخطى تمّحي من خلفه في الثلج العجول، والبيوت التي تبدو على مرمى خطوات تختفي بعد عبورها بخطوات. الجهة الشمالية نفق تحدّد العين دائرته في الظلام. هذا ما يحسّه «بيكاس» الذي يزداد وهناً وإبطاءً. يفتح ذراعيه على وسعهما فلا يلمس أيّ جدار للدائرة اللولبية. إمض إمض «بيكاس». لا مراثيات فضولية تواكب خشخشة قدميه في الثلج، وإذ يقف ليتنصّت اليها، تعود الى مزيجها الظلامي الصامت. شبكة واحدة، عريقة تضمّ جسده الى العراء. كم يحسّ بضيقه وتّساعه: هذه، إذًا، هي الكرة

المنفلتة من ماضيه؛ كرة اليوم الواحد المعلوم بفجره، وصباحه، وظهره، وعصره، ومغيبه، ومسائه، وليله؛ كرة اللامعلوم؛ الكرة الجاثية بعينين مغمضتين خشوعاً امام معرفة تعبر الجهة الاخرى على ظهر حمار. «والمذاق؟» يسأل «بيكاس» نفسه، ليردّ: «فتحت عينيّ فرأيت كل ما اعرفه، اما المذاق فليس الا هذا الوهن». «عَم . . عَم» تلك كانت حركة فمه الذي يقضم الهواء والثلج. «عَم . . عَم» يصرخ «بيكاس» مقضضاً بأسنانه، كأنها يلتهم اللامرئي، دائراً حول نفسه، ويداه تشبّثان بغده الذي لن يأتي.

«خاتي»، أخت الملاً، كانت تسرد، في الوقت ذاته، الامر لزوجها في تقطّع، بحسب ما رأت وما سمعت، وكان الزوج الساذج يصغي اليها في ذهول. وبيت «خاتي»، الذي يقع على مقربة من بيت اخيها، لم يكن قد استكمل الاعداد للنوم برغم تقاوم الليل. فالأب، الذي حاول جهده ليستحصل من الاولاد على مواعيد الاكل والنوم، اخفق في ذلك، ثم استسلم اليهم، فبات يخبرهم باقاصيص اكثر بساطة منه، ينسى خواتيمها فيلجّ عليه الاولاد، او يخترعون ما يجدونه مناسباً، ليخرجوا الاب من ورطته، فيحاججهم، بدوره، كطفل، في أن ما يقولونه غير مقنع. اذ ذاك تدور الدائرة. يقول الاب: «وجد الكلب زورقاً وهو مشرف على الغرق، فتشبّث به»، فيسأله الاطفال: «وأين كان الزورق؟». يرد الاب: «كان هناك، في النهر. . . انتم تعرفن»، فيردّ الاولاد صائحين: «سقط الكلب في البئر، وليس في النهر، فيستدرك الاب: «انا آسف. تشبّث الكلب بالدلو».

فيضيف الاولاد: «بالدلو الذي ألقي الثلب به إليه»، فيهزّ رأسه: «نعم. نعم. الثعلب ألقي اليه بالدلو»، فينظر الاولاد بعضهم الى بعض مقهقهين: «أيّ ثعلب؟ الكلب سقط في البئر سهواً، ولم يكن هنالك من ثعلب». فيحتدّ الرجل البسيط قليلاً: «ولماذا تسألونني عن قصص تعرفونها اكثر مني؟»، فيجيبونه: «لنتأكد ممّا تقوله أمنا عنك». ويسألهم: «ماذا تقول أمكم عني؟»، فيردون: «غبي، خصية قنفذ»، وتكون ردّة فعل الرجل ان ينهض كالبهلول، ملوّحاً في الهواء بحطّته التي يتزعها عن رأسه، دون أن يهوي بها على أحد. أما الاولاد فيبقون جالسين، مصفقين لحركاته المضحكة، وتهديده الذي لا يخيفهم قط.

كانت «خاتي» تسرد ما يفوق فهم زوجها، الذي اقتصرت ردّات فعله على «واو»، «أووو»، «هاي هاي»، بينما راح الاطفال يردّون عن وجوههم

الاغطية، مادّين ألسنتهم سخرية من خلف طهر أبيهم. «خاتي» تراهم، لكنها مسترسلة في شرح ما لن يشرحه أحد، بحركات من يدها، وبأنصاف كلمات توحى ببلبلتها أكثر مما توحى بفهمها. وحين تُخفق، أو تشعر بأنها أخفقت في جعل هذا الأبله يلمس الذي تقوله مَلَمَس إدراك، تنتفض صارخة بالاولاد اللاهين: «فليتبول عليكم عزرائيل»، ثم تقذفهم بعلبة زوجها النحاسية، التي تقشّرت طبقة القصدير عن حوافها، فترتطم بالحائط، لينثر على الوسائد تبغها المطحون.

«صدّقي يا حشمو» تقولها «خاتي» لزوجها، بعد برهة الغضب العابرة: «صدّقي أن قلبي كان يحس بانقباض منذ البارحة»، وتصمت لتتفرّس في وجهه المتنبه. «البارحة. نعم. كانت دجاجة بيت رمّو راقدة لتبيض. لماذا اختارت هذا الوقت البارد لتبيض؟ الله اعلم. فأقأت طويلاً وهي تروح وتجيء من طرف الساحة الى طرفها، وسط الثلج، وكان ابن رمّو الأعور يتبعها، بدوره، من طرف الساحة الى طرفها. ابن رمّو جائع. طلب من أمّه كسرة خبز عليها سمن محلى كالذي يأكله ابن حوّي فنهزته، صارخة به: اتبع الدجاجة ولك يبيضتها». توقفت «خاتي» قليلاً لتسأل زوجها: «اتصدقني ان قلبي أحسّ بانقباض حين اخبرتي زوج رمّو بذلك؟»، فهز «حشمو» رأسه بحركة سريعة الى اعلى وإلى اسفل. «ابن وصلنا؟» سألت «خاتي» نفسها، واسترسلت من جديد: «نعم. قالت زوج رمّو ان ابنها تبع الدجاجة حتى دخلت القن، ثم انتظر اكثر من ساعة فلم يظهر شيء. ذهب الى امه صارخاً: أنا جوعان. لن انتظر هذه الدجاجة التي لن تبيض. استغربت الام ذلك التأخير، فحملت المكنسة متجهة الى القن ذي الباب الضيق الشبيه بفتحة التّنّور. حوّمت بالمكنسة داخل القن فخرجت الدجاجة مذعورة». رفعت «خاتي» اصبعها الى مستوى حاجبيها، سائلة زوجها: «اتعرف ماذا رأت؟»، فرد الرجل: «لا». أضافت المرأة: «رأت طرف البيضة ظاهراً من مؤخرة الدجاجة. الامر واضح: لقد اصابها عسر في الطرح. وفي هذه الحال - قالت زوج رمّو - ان عليها ان تكسر البيضة، وتستخرجها باصبعها حتى لا تموت الدجاجة. حالات كثيرة كهذه ذهب ضحيتها دجاج ثمين. ركضت مع ابنها لتلتقط الدجاجة المذعورة، وحين حاصراها في زاوية السور الطيني طارت، بقدرة قادر، حتى بلغت اعلى السور. جاءت زوج رمّو بعضا طويلة لتتدبّر نزول الدجاجة فلم تفلح، بفعل انتقالها السريع من جهة الى جهة.

استسلمت هي وابنها الى الامر، ومضيا الى داخل البيت قبل ان يتجمداً، عسى أن تنزل الدجاجة بمحض إرادتها». وسكتت «خاتي» لتضيف بعد ثأوب: «أتعرف ما جرى؟ لقد وجدت المرأة الدجاجة متجلدة، بعدئذ، فوق السور. ماتت، ولم يخرج من البيضة الا قسم يسير».

اللهب يتخرج في موقد الملاء «بنياف». نام الاولاد، ونامت زوجته، او تظاهروا بالنوم، أما هو فقد فرد امامه كدسة من دفاتره، هرباً من براهين وشروح لابد منها في غده الذي يحسّه جالساً مثله قرب الموقد، ماداً يديه وساقيه الى الدفء، وعلى وجهه ابتسامة خبث أكيد.

الارقام تتزاحم في خطوط عمودية على الورق المسطر، وإذ لا ينتهي حاصل الجمع في صفحة ما، فثمت سهم يشير الى الصفحة التالية. ارقام، وسهام صغيرة من اثر ضربة حنونٍ لغنىٍ سحيق. كل يوم يجرف سنة من سنوات دفاتر «بنياف»، وكل دفتر يجرف محاصيل سهول بأكملها.

لو قُيِّض للقري ان تخرج على صورة لم تلتقطها عدسة، خرجت على شكل الارقام التي دوّنها الملاء. بيوت واضحة متلاصقة، واخرى لم يبق منها الا جدران خربة من أثر الممّحة. تدوين بقلم الرصاص يحفر أخاديد عميقة كبقايا جداول جافة على الصفحات، وأيام الملاء، وحدها، هي التي تتعثر بالاخاديد. انه يصغي اليها؛ يصغي الى رقم هنا فيسمع نباح كلب، والى رقم هناك فيسمع هدير آلات الحصاد. وبين رقم هنا ورقم هناك يرتفع شجار القرويين، الذين يتسابقون الى اطلاق اغنامهم على أسواق القمح بعد حصّد السنابل. وحين يصل الملاء بعينه المتفحصتين الى الخطوط الافقية تحت الارقام، حيث تلي تلك الخطوط محصّلات الجمع او الطرح، يقف ولا يجاوزها. الحاصل الحسابي امتحانٌ عادةً.

الرجل يحسب ليمتحن مصيره. الارقام هي امتحان الحاضر والمستقبل معاً: الخسارة، او الربح، في الحاضر، يُلْزَمَانَك برسم مؤشر آخر للخطوات: زيادة ما زاد، او تعويض ما نقص. لعبة على الورق، بغير تخطيط، تصبح تخطيطاً، فيما بعد، لأعمار، وبيوت، واقتناء حيوانات، واطلاق نار ايضاً، بغير خوف، على القائمقام اذا اقتضى الامر.

«لوزادت هنا» يتمم الملاء الناظر الى ارقامه بعينه اللتين زينها كحل كثيف. ورجال الشمال، مثل النساء، يجعلون على عيونهم الكحل اذا هطل الثلج، اتقاء من البياض المتلائي الذي يعشي العيون. «لوزادت هنا» يكرر،

«آه، لو نقصت هنا، لجعلت المساجد تركض كالاوز الغضبان من هذه الجهة الى تلك الجهة من مدينة قامشلو، ولنقلت المخفر الى قرب بيتي، لتسألني الشرطة مَنْ تعتقل، ومن تطلق سراحه»، ثم يرفع راحة يده ليمسح خيطاً أسود ساخناً من مزيج الدمع والكحل، انحدر من عينه اليسرى، وغاب في ثنايا لحيته.

شبح «بيكاس» يتخبط في الشبكة الرمادية لليل والثلج، محاولاً ان يتقرب بيديه ذلك الافق الدائري الذي لا يبعد اكثر من خطوتين. يجثو غير قادر على التقدم اكثر، وقد أغمض عينيه، مبتسماً، على صورة «سينم» البلهاء. «لماذا اختارها ابي؟، كنت اريد مَنْ أتحدث اليه»، وكأنها استدرك سؤاله العقيم. فبرر الامر لنفسه: «ومن يمكن ان أتحدث اليه غير هذه الضاحكة؟. كل شيء كان كما ينبغي، إلا ان اولد في يوم كهذا»، ثم رفع عباءته حتى قمة رأسه العاري إلا من شعريكاد يصل الى كتفيه، في خصل متنافرة مبتلة.

طوى «بيكاس» جذعه حتى لامس صدره فخذيه، مستسلماً في جلوسه الى اهتزاز رُحافةٍ تترجرج كخدر ساحر، لم تكن إلا زحافة نفسه، التي تقودها نساء يشبهن «سينم» على الثلج. لكنه رفع رأسه بغتة، على أثر جلبة تناهت اليه، ناظراً بعين واحدة من شق العباءة التي تغطي بها، فرأى جمعاً من الرجال يحيط به، ومن خلفهم بغال زرقاء مضيئة، كأنها انحدر ضوءً من مكان ما، خفيّ مؤنس، فاستقر على الحيوانات وحدها. اما الرجال فكانوا معتمين، تبين لحاهم الطويلة شعناء بنفسجية من اثر الضوء المتألىء خلف ظهورهم. «وصلتُ إذا» تتم الى نفسه، ثم شدّ لجاماً خفياً بيديه كمن يقود عربة، فتباعدت الحلقة المكوّنة من الرجال والبغال، مفسحةً ممراً لنساء «بيكاس» اللواتي يتقدّمْنَ بزُحافته.

يرتعش الضوء في نافذة الملاء «بيناف»، ابن كوجري الملقبة بأُم العشرين ولداً، ثم ينطفئ، فتعتم نُدْفُ الثلج التي كانت ترى مضاءة خارج النافذة. أما غرفة «بيكاس» وعروسه، فمازالت على حالها من الضوء الرجراج، الذي يضيء النُدْفُ الضاحكة على بعد شبر منها. وفي الداخل لم تزل «سينم» البلهاء، بكامل ثيابها، تتمدد مريحة قدميها امام المدفأة.

لم تسأل البلهاء لماذا لم يعد زوجها. كانت في شغل آخر من أشغال ذاكرتها التي لا تلمس إلا الاشباح الصغيرة لأيامها المتساوية الصغيرة، وقد

حاولت بكثير من اللاترباط، ان تعقد المواقف المتشابهة التي مرّت بجسدها، نزولاً من ذلك الالم الذي سبّبه «بيكاس» باقتحامه الساخن لسرّها المتوارث، من اول جدّة الى آخر أم في هذا التاريخ الخجول، حتى محاولة «حيندر» صاحب الثور المزواج.

كانت في الثانية عشرة حين دلف «حيندر» بثوره الى ساحة دارهم، التي لم تكن مسوّرة آنذاك، بل ترسم حدودها اسواق طويلة لنباتات الذرة. كثيرون يستأجرون ثور «حيندر» ليلقح بقراهم، مقابل مائة قرش مؤلفة من قطعة معدنية واحدة، ثقيلة، هي مزيج من الفضة بثلاثة ارباع مقابل رُبع من معدن رخيص. وقد اختلط الامر، مراراً، على الحكومة التي تصك النقود، فصكّت المائة قرش فضة خالصة، ولم يتم تدارك الامر الا بعد وقت طويل، حين كادت هذه العملة ان تختفي من البلاد بتهريبها، في صهاريج، عبر الحدود، لان القطعة الواحدة كانت تساوي اكثر من قيمتها المقدرة بعد ارتفاع سعر الفضة. واذ ذاك، وبعد تأخر أتى على ما أتى عليه، استبدلت الحكومة تلك القطعة النقدية بما يشابهها حجماً من النيكل الرخيص، لكن سعر البيضة الواحدة ارتفع، في البلاد الى ما يعادل الضعفين.

دخل «حيندر» بثوره الذي يتولّى قيادته بحبل، صارخاً: «يا أهل البيت، أين بقرتكم؟»، فردّت عليه ام «سينم»، من الداخل، وقد غطى العجين ساعديها حتى المرفقين: «حيندر، انا مشغولة، ستدلك سينم»، وصاحت بالفتاة التي تصب الماء، من ابريق، على الطحين: «خذيهِ الى الحظيرة»، فهرولت الى الخارج وألهاهاة لا تفارقها.

كان واضحاً أنّ ما من احد في البيت لتكلّفه الام بالمهمة غير البلهاء، التي دلّت «حيندر» بإشارات تهريجية من يدها الى حيث تنتظر البقرة الصاخبة، إذ شغلت الدار، وأهلها، بخوارها المتواصل، قبل أن يستقرّوا على استئجار ثور «حيندر» للمهمة الكفيلة باعادة التوازن الى هذه الحلوب الوديعة عادة. وحين دلف الرجل بثوره الى الحظيرة ذات السقف الواطيء، تبعته الفتاة. وقد قامت، غريزياً، بحصر ثلاث غنيمات في الزاوية لئلا يجفلن من دخول الثور الفجائي الى مملكتهن الآمنة، فاردة ذراعيها على امتداد جذعها المنحني.

دار «حيندر» حول البقرة الهادئة بثوره، يحثّه حثّاً خفيفاً على الامر الذي سينال عليه مائة قرش. بدت عينا البقرة صافيتين تماماً، بل ثُمّت ولّة ما في زاويتيها المتسمتين. بطن الثور تشهد استطالة ما، بيضاء رفيعة، تزداد

صلابة شيئاً فشيئاً، والفتاة تنظر الى تلك الاستطالة بمرح صبياني. رفع الثور قائمته الاماميتين فاستقرتا على ظهر البقرة. «حيندر» مسترسل في التحديق بدوره، لكن بفكٍ بدا مرتحياً. نظر الى الفتاة ثم انزلق بيده اليسرى من بطنه الى ما دونها، فاسترعت الحركة نظرها، ثمت انتفاخ تحت جلباب «حيندر» الذي انعقد على وسطه حزام جلدي عريض. ابتسم بخبث فهأهأت. همس: «تعالى»، فاقتربت. حمل يدها، في حركة عجولة بفعل استثارته، واستقر بها تحت جلبابه الذي رفع طرفه. ضغط بيدها على ملتقى فخذيه فضغطت دون تذرُّم.

طغت حركة الثور البهيمية على لهاث «حيندر»، وحين وثب الثور بعيداً عن البقرة، سلّت الفتاة يدها، بغتة، وقد داهمها انفجار ساخن، تصحبه تشنجات وسّعت قبضتها المضمومة خفقة بعد خفقة. آنثذ سحب «حيندر» حطّته الملقاة على كتفه. مسح يد الفتاة في سرعة، واعاد الحطّة الى كتفه ثانية، ثم خرج بثوره على عجل.

قد تعتمل اشارات كثيرة من هذا النوع في الذاكرة الرخوة لـ «سينم»، لكنها لا تمسّ الا اكثرها جسارَةً. فهي لن تقف امام مشهد التصاق «شيخو»، ابن «سيدر» بها من الخلف دائئاً، كلّما سنحت له فرصة للامساك بها وهي ترفع الدلو من البئر؛ ولا امام مشهد «بكرورش» وهو يرفع جلبابه ليربها شيئاً نافراً يشبه ما تراه في الكلاب الحائمة، بعضها حول بعض، قرب زريبة «حمزة جكر». كان ذلك لهواً، أو ما يشبه اللهو، مروراً بقربانها، اللواتي كنّ يتباهين بنمو الشعر على عاناتهن، صائحات: «فلنر ما تملك سينم»، وهن يعرّين أسفلها، في هجوم لا تملك البلهاء رده، وصولاً الى الفقيه «سُمُو»، الذي كان معلّم الصبّية في تعليم القراءة. وهم يدعون أرباب الكتاتيب، عادة، بلقب «فقيه»: «جزء عمّ». ينسن إضافة الى السُور القصار، التي يلوكها لسانه الآلي في لُكنة لا زمان لها، والبلهاء لا تجيد نطق حرفين مما يقول.

انها لا تنسى «سُمُو» ذا البؤبؤين الابيضين. يبدو كأعمى، لكنه يتقن، عن قُرب، قراءة أعمق أعماق صبي أو صبّية. لقد ارتأى أبواها أن يرسلها اليه مع مصحف ذي غلاف ذهبي، علّها تتمكن من الامساك بخيط واحد من خيوط ذاكرتها المتطايرة كرزاذ ماءٍ منحدر من مزارب، اولعلّ تسكنها روح اخرى، تليق بفتاة مُقدّمة على سنتها الرابعة عشرة، لتتدبّر - كما تتدبّر قربانها - مُهله نضج حكيمة تعرف الانثى فيها كيف تبوح بما يمكن البوح به، وتخفي

ما ينبغي اخفاؤه ؛ كيف تخرج الدلال بالحذاقة ، والذكاء بالخفر ؛ كيف تتحاشى النظر الى عيني ذكر ، وتفرسه اذا سها ؛ وأخيراً ، أن تبدو رقيب حكمة على البيت الذي سيعدو ، ذات يوم ، بيتها وهي في كَنَفِ بعل . لكن هيهات مع «سينم» . لقد أخرها «سُمُو» مراراً من العودة الى البيت ، ليقاصص قُصُورها بعصاه الخيزران . «سُمُو» يقاصص كل متأخر في الاستذكار ، أو الفهم ، بعد انتهاء ساعات الدرس . يختار من الصُبيبة أقواهم ليمسك بقدمي الضحية ، حتى يتمكن من جلدهما ، والآباء يفرحون لصرامته .

في الأيام الاخيرة من الشهرين المرتجلين للتعليم ، تعود «سينم» متأخرة على نحو بات يتوقعه أبواها . وهي ترجع حَجَلاً كُلَّ مَرَّة . لا تكاد قدمها تلمس الارض حتى ترتفع في ألم من أثر الضرب بالخيزرانة . غير أنها باتت تعود ، قبل ثمانية أيام ، تحديداً ، من إقفال الوكر العاري ، المخصص لتعليم لغة مُحْكَمَةٍ بالتلقين السماعي ، ماشية في خِفة لا أثر فيها للألم ، برغم تأخرها .

لم يكن على أحد أن يفهم الامر عداها ، فالقصاص يُرْفَع عنها بثمان يحدده الفقيه «سُمُو» . وقد صار «سُمُو» لا يحتفظ بصبي قوي للامساك برجلي ضحيته ليجلدهما على مهل . يطلب منها وحدها ان تبقى ، عابساً على صورة يعتقد الصُبيبة معها ان تلك الغرفة العارية ستشظى بعد قليل : جداران الى جهنم ، وجداران الى الجنة ، أما السقف فيسظل على حاله ، واقفاً في الهواء ، محمولاً على ألسنة السحالي التي تتوالد بين الدعامات الخشبية كحروف كتبتهم . وكم من صغار تلك السحالي كان يتساقط على الصفحات المفتوحة ، او على حجورهم ، وهم جالسون ، فيدب فيهم عويل أبكم تلجمه خيزرانة الفقيه ، المرتفعة كصارية ستنقذ العالم .

تتأخر «سينم» غير مستاءة الآن ، مادامت تُرضي الفقيه بثمان لا تحس له وزناً ؛ فلو طلبه ، منذ البداية ، لأجابته حتى توفر على ذهنها البليد عقاباً يشعل قدميها بألم عبقرى . يقول الفقيه : «ارفعي ساقيك عالياً» فترفعهما . يضع الخيزرانة جانباً ، ويشدها الى وسطه : «هذا عقابك الجديد» ، ثم يلمس جسدها ، من ملتقاه الساخن بضرب ساخن لطيف من شيء لا تراه الفتاة ، بل تحسه من انحناءة الفقيه وتقوسه ، وهو ينحور خوار عجل أمسكه شخص ما من فِكِّيه .

مرت أربعة أيام دون أن يأخذ «سُمُو» من جسدها إلا ظاهره الانثوي ،

حتى لفتت زوج الملاء «بيناف» أمها، قبل مولد «بيكاس» بزمان طويل: «ألا ترين ثديي ابنتك؟»، «وما بهما؟» ردت أم «سينم». «يكبران على نحو...»، فذهلت المرأة من ملاحظة زوج أخي زوجها: «يا لله. لم أُنْتبه؟ «سينم» صرخت بها، فتقدمت الفتاة والهاهة لا تفارقها. «من يلعب بهما؟»، وأشارت الى ثدييها.

النساء يتشمنن نمو الأثداء لدى المراهقات، اذا زاد عن حده. يتشمنن الانامل الصلبة للذكر في أثر غير مرئي. الاثداء تكبر من هبوب رائحة الذكر عليها. رياح الذكر. رياح الرياح. والبلهاء تنظر الى صدرها في ذهول مبتسم، فتلتقط ذهولها صفعه تلقي بها أبعد من الدهول: «من...؟؟؟»، وترد البلهاء: «سمو»، مُلقيةً بالإسم وهي في دوار وطنين. يد «سمو» الفقيه كانت تعبت بصدرها. انها ترى الصورة الواضحة لأصابع معقوفة تنتهي بأظافر طويلة، مفلطحة، تشبه أصابع الاقدام، وهي لا تملك إلا أن تشير الى ما تراه: «يد سمو». وقد ذبح أخوها «بهرم» ذلك الفقيه من الوريد الى الوريد، دون ان تأبه الناس، او الحكومة، بما جرى.

أربعة أيام مضت على الجثة في ذلك الوكر الطيني، غير المطلي من الداخل بالجير. الصببة يأتون صباحاً فيلقون نظرة على الباب المغلق، ويعودون ادراجهم. فرح غامر يعلو وجوههم، وقد أنقذهم صمت الباب من ساعات القراءة المزروعة، كحقل، بالخيزران.

أربعة أيام، والصبية يتواطون ضد الجثة في صمت. فالطوال منهم يتمكنون من رؤية جسد نفخه القيظ كما ينفخ الكبار بالمنفاخ دواليب دراجاتهم، عبر كوة خلفية ذات شبك معدني صدى لرد الذباب. انهم يلقون حقائبهم جانباً، ويتبولون على الحيطان، ثم يرجعون الى بيوتهم، فلا يسألهم الكبار المشغولون ماذا تعلموا في نهارهم. ما من احد يعرف كيف تم العثور على الفقيه الضائع في صحراء غرفته. كانت الجثة ملأى بالسحالي، التي تتقافز هاربة من بين ضلوعه المهترئة. وقد رمى الطييون عليه بعض اكياس القنب ليستروه، قبل دفنه في مقبرة «الهلالية». و«الهلالية» ضاحية، يفصلها عن مدينة «قامشلو» دغل من أشجار الصفصاف والكيما، ويجري طيني يسمى نهراً، ترعرع فيه السلطعونات، والخنكليات، التي تشق أفخاذ الصبية السابحين فيه بظهورها المنشارية.

«سينم» مستلقية امام المدفأة، وقد اتكأت بمرفقها على الوسادة التي

اتكأ عليها «بيكاس» قبل ان يغادر الغرفة . ذاكرتها تتهشم وتومض كشرر باهت، مثل خشبة رقيقة تحترق فتتفتت . الرماد هو الصورة المُحكّمة التي تلتقطها عدسة ما، يقف خلفها شيخ يغطي رأسه بكيس أسود؛ رماد البلاهة الحافل بالقهقهة . «سينم . . . انظري» يرتفع صوتها هي في صمت الغرفة، مبلّلاً بلعاب متطاير . ترفع نفسها عن الوسادة لتستوي جالسة امام كوة المدفأة ذات الستار الزجاجي السميك: لُهب يلحق اللهب بالسنة زرقاء، وبرتقالية، كجرو جهنمي ينظف فروه من أثر شجار مع جرو آخر . غضب يتدلّى كلحية أبيها، وسروال فضفاض، كسروال أمها الطويل حتى عقبيها، يرفرف في مدى انشغالاتها الضيقة . «سينم . . . انظري» تقول لنفسها، وتختار: الى مَنْ تنظر؟ الى وجه «بيكاس» المنتفخ بجزء ظاهر منه، وجزء في الظل الذي يرسمه القنديل، وهو منحني عليها بلهائه الرطب، أم الى الفقيه الجالس على لسان اللهب، متكئاً على باب فضي، وقد فتح فمه في زعر دون صراخ؟ . «طيري . . . طيري» تهمس، والهأهأ ملء فمها المفتوح . ماذا ترى البلهاء؟ وأيّ طير سيطير؟ . لُهب يعض اللهب بأسنان تشبه القش في حظيرة أبيها، وثيران تقرع الجدران الصفيحية للمدفأة بقرون لها رائحة لزجة كرائحة «حيندر» .

ترحف «سينم» على ظهرها، في كسل بالغ، حتى تصل الى الفراش الممدّد على الأرض، لصق الجدار، مخفورة بنعاس مغلق لا تنتظر أن يقرعه أحد .

المدفأة تظلّ مشتعلة، مثلها مثل القنديل المعلق الى الحائط . سينطفئان وحدهما، حين ينفد الوقود، فليس من عادة «سينم» أن تدبّر اموراً كهذه منذ مجيئها الى هذا العالم الضيق، المطرّز بخيوط حريرية كحزامها الذي لم يمنع «بيكاس» من رفع الثوب حتى ثدييها .

«سينم» تنحدر الى هاوية ناعمة، وقد ردت على جسمها الغطاء . الممالك الاكثر بساطة وصغراً، في أعماقها، تتفتح كالأزهار الهندسية في بساط الغرفة؛ ممالك لا تتسع لرأس صبي يرمقها من الباب المفتوح للمرحاض، أو لدجاجة هائجة تردّ عن فراخها الدّيكة .

تنقلب «سينم» على جنبها الأيسر، واضعة يديها بين فخذيهما الدافئتين، وقد علت أنفاسها بانتظام كأنفاس كلّ نائم . جسدها وحده، يبقى يقظان، متبّعاً ممالك أعماقها الهندسية . جسدها . . . نعم، ذلك المباح لاغتصابات

الأيدي اللاهية، التي ترى في بلايتها مبرراً لجسارة. ومن يابه للجسارة على أي حال؟ حَسْبُهَا أن ترى في ذلك مالا يراه أحد. حَسْبُهَا أن ترى الدعابة في كل شيء، أعويلًا كان أم ضحكاً. الحركة، مفصولة عن تعبيرها، هي ما يعينها. زمن صامت وأناس صامتون: شفاء، وأيدٍ، وأقدام، وانحناءات. عيون جاحظة أو مغلقة. تمايلات ترسم على أشكالٍ تقتطف من فمها الهأهأة. دغدغة أبدية على خاصرتها، والمشهد واحد.

ظلام في الخارج. الأرض والثلج نائمان، جنباً إلى جنب، فقد رُفِعَتِ الشبكةُ الفضية بعدما تصيَّدت ما تصيَّدتُهُ. لا نُذَفُ كسولة أو عَجُولَةٌ. صمت سكران سيلقي بالفجر كزجاجة فارغة بعد ساعات، لكن ثمت شعاعاً يتلصص من شباك «سينم» على الساحة؛ شعاعاً غريقاً، يضيء ممراً ضيقاً في الثلج، ويستقرُّ على ورقات شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط من وحدتها. «سينم» تبسم. تتحرك شفتاها في همس: «كأ. . كأ». تتحول الابتسامة إلى قهقهة صامتة: «بيكاس ديك وليس دجاجة. . عليه أن يقول كوكووو. .».

الفصل الثاني

ذلك «الحيوان» يزحف في الظلام، بل الصواب انه يسبح في الظلام، مهتزاً يمنة ويسرة في الزلال الدبق.

آلاف من الحيوانات البيضاء، التي تشبه تماماً برؤوسها المستديرة، وأذيالها الناعمة كالخيوط، تمضي قدماً بالحركة ذاتها، مهتزة يمنة ويسرة، في سباق غامض عبر الزلال الدبق الذي يغطي ارض النفق المظلمة. سيصل واحد منها، ذلك ما يعرفه «الحيوان» المندفع بغريزة الخروج الى النور، والى المصير المنتظر بساعديه المفتوحين كساعدي أم، ليكمل اللعبة التي يرتقبها الكائن أعزل من العزلة ذاتها.

ذيله الرقيق يرتطم، في انزلاقه، بجثث كثيرة لم تنزل ساخنة بعد. «حمير» يهمس، محتقناً من سرعته: «يسموني الحيوان وأنا ذاكرتهم كلها»، ويندفع بحمى الوثائق من وصوله.

ليس في وسعه أن يراوغ ليتقدم. قد يدفع برأسه، أو بذيله، جاراً على يمينه أو على يساره، لكن امامه حشداً أبعد من أن يجاوزه حتي بجناحين، لذلك يعوّل على شيء آخر؛ على قدرته في البقاء حياً بإلهام ذاتي، وهو يحسّ سقوط الكثيرين صرعى، كل ثانية من السباق.

«إلهام ذاتي» يكرّر الجملة، «المسألة أن أشغل نفسي بما سيعطيني شكلاً، أكثر من هذه الحاشية الكبيرة العمياء، المنجذبة الى رائحة ضجرها»، واسترسل، مندفعاً: «كمالي ينتظرنى».

دفقة من نبع مستور كسرت قشرة الظلام الرقيقة، دافعة بذلك

«الحيوان» الى حَمَى سباقه . نَبْعٌ منجميٌّ فاض بها استجمع من عروق المعدن،
وثلوج السلالات المنحدرة جداول نقيّة من مكان ما، أعلى من جبل، وأكبر
حصاراً من الريح .

«الحيوان» يتقدم، متلمساً بذاكرته الممرّ، إذ لا عينين في رأسه المستدير .
وفي اللحظة ذاتها يتلمّس ابن «عَقْدِي ساري» كراسي المقهى، ويبعدها عن
طريقه بيده، دون نظر اليها، متخذاً ممرّه بين الطاولات الواطئة التي اجتمع
حولها عتالون مسترخون في كسل، وبعض تجار القمح ذوي الاصوات الخشنة
في المساومات . ليس في عيّاه أثر لغضب، لكن عينيه لا تفارقان وجه «بافي
جواني» ذي الشاربين الاحمرين بفعل الحناء . و«بافي جواني» مسترخ، حتى
تكاد قدماه تلامسان حافة الرصيف .

جانبياً يرى الشاب وجه الرجل، وحين يجاوره لا يرى إلا قمة رأسه
الكبير بين كتفيه، بفعل الحطة الماردينية التي يعتمرها على شكل عمامة . يشهر
مسدسه ويطلق النار من أعلى الى أسفل، فينهض الرجل مصعوقاً، وقد تسمرّ
في وقفته . لا يبدو ألم على وجهه، بل دَهْشُ المفاجأة، برغم الدم الذي نفر من
كتفه، قرب العنق . يشد ابن «عقدي» على الزناد مرة ثانية، بيد ترتجف ارتجافاً
قوياً، فتخترق الرصاصة خاصرة «بافي جواني» . يهوي الرجل الى الوراء،
جارفاً نرجيلته التي كانت تُكْرُكُ تحت شاربيه الكثين قبل لحظات . رجال
المقهى ينهضون مصعوقين بدورهم . طاولات تنقلب، وكؤوس شاي تندلق
وتتبعثر . لن يقترب احد من الشاب الذي تبدّلت سحنته، فاكستت ذهولاً
عصبياً ينبىء بالحماقة .

الرجل ذو الشاربين يتكئ في وهن على احد مرفقيه، مصدراً أنيناً كأنين
هرّة . جسده متمدّد، وثمت كرسي مقلوب استقرّ على فخذه . الشاب يقترب
فيحاذيه من جديد . فوهة المسدس تستقر على جبين الرجل، الذي رفع وجهه
الى وجه غريمه في توسّل مرير .

يبدو واضحاً أن الشاب يجد صعوبة كبيرة في الضغط على الزناد اكثر .
جسمه يرتجف بحمى الذهول الذي يعتري مَنْ لم يقتل شخصاً من قبل، او
من تلاشت حماسه الى القتل، لكنه اندفع مرغماً . رصاصة ستهي المشهد،
وهي لا تنطلق . الذهول الذي تبّثه عينا رجل لا يريد ان يموت هكذا، هو
الباعث على صمت الطلقة، لا شفقة الشاب . والشاب بات يدرك ذلك، في
وقفته التي تشهد، من كل الجهات، اشباحاً واجهة في الشارع . إذن، كان لابد

من دفع آخر لتستكمل الجسارة مداها. «ها ااي»، تلك كانت صرخة الشاب التي استجمعت ضُور حقه دفعه واحدة، فانطلقت الرصاصة. تلوى رأس «باقي جواني» كأنها يشيح بعينيه عن الومض الذي تفجر من فوهة المسدس. تراخى الجسد وانقلب على بطنه في هدوء مَنْ يخفي وجهه في الوسادة. وحين لم يعد الشاب في مواجهة ذلك التوسل المرير في عيني ضحيته، أفرغ الرصاصات الثلاث الباقية في ظهر الرجل، ثم رفع يده عالياً، وأهوى بها قاذفاً بالمسدس الى الرأس الملتصق بالرصيف، فأصابه. بصق ومضى، أكثر ثقة مما كان عليه.

«المسألة ان أشغل نفسي» يقول «الحيوان» المندفع في الزلال الدبق، ويكاد يصرخ: «تراجعي أيتها الحيوانات الشبيهة بي، لأصل سريعاً» فيدرك أن لا فم له.

ذاكرته تقود جسمه الرقيق عبر الظلام، وتقود الوعود الكثيرة بكمال ستتفتح من حوله، كالبراعم، حروب وخيانات، ورعب، ومرح، وأشياء أخرى لا تسمى إلا في حينها. «حيوان أنا» يردّد في غضب. «لولا أكن حيواناً لكنت في أي مكان إلا هنا. يختارونني لهذا السباق، من آلاف من أمثالي، ولا يدي في ذلك، والأدهى تصميمي على الريح. لماذا الرغبة في الريح، والامر مبهم كالكمال المبهم الذي أعّد نفسي به؟ من قال إن كمالاً ما ينتظرنني أبعد من هذه الجثث المتراكمة في النفق؟». يرتطم به جاره الاعمى مثله، فيستنفر قواه المكتومة: «ابتعد، انك تجعل الامر يسيراً على من اختارني». ويدفع بذيله ذلك الجار، ماضياً قدماً: «لو ارتأت هذه البهائم، من حولي، أن تحفّف على نفسها عناء المزاحمة لحنّفت بدوري».

«الحيوان» يزحف فوق جثث كثيرة كادت أن تسدّ الممر امامه. كل شيء ظلام، إلا ذاكرته، التي تلقي به بين حشد هائل من كائنات تواطأت على جعله حيواناً أعمى، ومن ثم ألقت به الى سباق أعمى.

أيهم كان الكائن الاول؟ سؤال تتزاج فيه ومضات شاحبة للفقير الذي يتسلل بين ورق كثيف؛ تتزاج وتنفصل، ثم تتكوّم على جسد ملتف بجلد خنزير بري، كان مختبئاً بين الورق، لكنه يزداد وضوحاً الآن. «انه هو» يقول «الحيوان» السابح في الزلال، ثم يستدرك: «لا. أريد الهيئة الاولى، الأبعد من هذه الهيئة». بحث «الحيوان» عن بدايته يليه قليلاً، فيكاد يتوقف في تأمله المظلم، وما يدفع به الى المضي هو مرور حيوانات كثيرة من فوق جسده

المتباطيء . «يا للقدارة، إنها تسبقني حين أصير حكيماً. لا موضع، في هذا السباق، إلا للغضب»، ثم يهز ذيله يمنة ويسرة فيجاوز من سبقوه. لم تمنعه حمى الرحلة هذه من حث ذاكرته المتخبطة في شبكة باردة: «هذا المترص بين الورق الكثيف ليس الاول»، يقولها لنفسه. «انه مشوش الهيئة على نحو يدعو للرتاء». إذن، ثمت تسلسل آخر لهذا الجلال الجسدي، الذي يتحقق بمصادفات متينة. «تفتحي . . تفتحي» يخاطب «الحيوان» حمى سباقه، وحمى الذعر من ان لا يجد أزلهُ. لكن هيهات، فالذي يترامح بالحاح لا يتعدى فسحة من العشب العالي، وحيوانين ملتجئين تتلاصق قرونها في ارتطام قاس وحنون. احدهما مجفل إجمالة خجولة، والآخر ممعن في الدوران من حوله، كأنها يروؤض الغريزة بحصار من رائحته الذكورية.

حيوانان، بشماني قوائم واربعة قرون، واختلاء واحد بين العشب العالي، حيث كمن المترص الملتفع بجلد خنزير بري، في ذلك الفجر الأبعد من الذاكرة. «آه» يتهد «الحيوان» السابح في الزلال الدبق. سلسلة من الترتصات. سلسلة هوجاء من مكائد ناعمة وخشنة.

الحيوانان، اللذان يستبدُّ بهما أنس جسدي، يختصران المداورة. احدهما يستسلم للآخر. وفي اللحظة ذاتها، التي ترفع فيها الغريزة مجدها كأكمل ما يكون لشعاعات الصباح الذهبية، تسقط القائمتان الخلفيتان لاحد الحيوانين في حفرة ممّوءة. يتخبط فلا يستطيع سحب نصفه المنزلق. يخرج المختبئ الملتفع بجلد خنزير من مكمنه وينقض على الطريدة. الحيوان الآخر يطير من مكانه بقفزة واحدة. لا جناحين له، لكنه يطير، وفي ذعره ذاك لا ينسى ان يلقي نظرة غامضة على شريكه المذعور، بل على عيني شريكه المستجدين بكل شيء.

كان الرجل، الذي خرج من مكمنه العشبي، ينقض كسلور على عنق الحيوان الخاسر، ممسكاً به بأسنانه ويديه. قطع من اللحم والجلد تنفصل عن العنق في كل نهشة من تلك الاسنان الطويلة، والحيوان يستسلم، كما استسلم، من قبل، لعضات شريكه الاكثر عدوية من نعان الماء. «يا للجهيم» يهمس المتسابق الأيكم الى نفسه في ظلام النفق، «ليست هذه هي الصورة التي أريدها. عليّ أن أعود الى الوراء اكثر بذاكرتي».

اجتاز ابن «عفدي ساري»، الشاب الذي اطلق النار على «بافي

جواني»، الشارع دون ان يلحق به احد. امامه اكثر من ساعتين ليختفي قبل ان تصل دورية الشرطة الكسولة في سيارة «بيك آب» تقشّر الطلاء الرصاصي عن حوافها. والدورية ستصل، بالطبع، بناء على تبليغ شفهي من شاهد. وعلى الشاهد، بالطبع ايضاً، ان يقطع مائة شارع قبل الوصول الى المخفر الوحيد، المقام على تلة تعلو السهل المنبسط الذي يربط شمال المدينة بحدود تركيا. ومبنى المخفر، الملحق بفناء مسور تحده غُرَف ضيقة تسمى «السجن المدني»، هيكل قديم تركه الفرنسيون خلفهم بعدما مضوا. وعلى مدخل البوابة الضيقة ثمت طاولة يجلس خلفها شرطي في حال نعاس دائمة، يسأل زائري السجن بجملته المعهودة: «أتحمل سكيناً؟»، فان أجبت بالنفي لأمكنك الدخول وانت تحمل ساطوراً، وان كنت رقيقاً في الخلق، وأجبت بالاجاب لسألك أن تترك السكين على الطاولة، ولك ان تأخذه، حال عودتك من زيارة سجين ما، مهما كان حجم السكين وشكله.

وصل الشاهد اللاهث، الذي تبرّع بالتبليغ، على كل حال، الى مبنى المخفر. تمالك نفسه وقد انحسرت حطته عن نصف رأسه، وصرخ بالشرطي الجالس وراء الطاولة: «قُتِلَ بافي جواني»، فرفع الجالس جفنيه الثقيلين، وأشار بيده الى غرفة على مسافة متر منه: «راجع هناك»، وأسبل جفنيه من جديد.

كان باب الغرفة، التي أشار اليها الشرطي مفتوحاً، فدخل الشاهد دون استئذان. «قُتِلَ بافي جواني»، قالها من غير ان يتوجّه بكلامه الى احد بالتحديد. ثم ركز أكثر، فوجّه كلامه الى الرقيب الذي يحتسي كوب شاي: «ابن عقدي قتل بافي جواني»، «أوه» ردّ الرقيب. نهض بثقل وهو يعدّل من وضع قبعته ذات الشريط الذهبي المتآكل على مدى استدارتها. نفخ صدره قليلاً، وصرخ صرخة أشبه بالمزاح: «عبود. . . عبود، بلوط»، وقبل ان يسمع جواباً همس بالتركية: «بيزقنك. لصوص».

مضت ثوان دخل بعدها شرطيان، بينما ظلّ ثالث في الباب. قال الرقيب: «احضروا السيارة، وزرّروا بناطيلكم».

نهبت السيارة الطرقات الترابية، مثيرة عاصفة من الغبار الذي اختلط بأجنحة الدجاج الهارب، ثم توقفت بحشجة مريرة امام سور بيت «عقدي ساري».

في دقيقة واحدة اجتمع حول السيارة، التي ظل السائق في داخلها،

مائة صبي فضولي. وفي دقيقة تالية امتدت وجوه وأجساد متزاحمة لكبار وصغار، من البوابات الطينية الضيقة، على امتداد الزقاق. كلاب شاردة هُرَّت قليلاً فزجرها القريبون منها بقشور البطيخ.

دخل الرقيب برفقة شرطيين الى ساحة الدار. كان «عقدي ساري» واولاده الستة الفتيان، وزوجه، وابنته، في استقبال الزائرين، بوجوه يبدو عليها احتقار واضح، برغم انها تكلفت بعض الترحيب غير الودود. «تفضل حضرة الرقيب. . . تفضل حضرة ال. . .» بلكنة تختلط فيها الحروف الكردية بالعربية. «شكراً» رد الرقيب، و اضاف: «ابنكم قتل شخصاً. إجم. أهو هنا؟». وبدا بارداً الى درجة لا يتوسم فيها جواباً من أحد. فرد الأب: «قتله؟ قتل بافي جواني، إذأ». رفع الرقيب المتكاسل حاجبيه، كمن وجد فرصة ليشحذ ذكائه: «انتم تعرفون الضحية دون ان انطق باسمها»، وزم شفتيه، مُخرجاً من جيب سترته علبة دخان من نوع «خصوصي للجيش». سحب لفافة فوجد نصفها فارغاً من التبغ. دحكها في يده ورماها متأففاً. أخرج أخرى لم تكن أحسن من سابقتها. قطع نصفها الفارغ، وأشعل النصف الآخر بعود ثقاب ارتفع لهبه حتى كاد يحرق جفنيه. وعلب تبغ «خصوصي للجيش»، كما يدل اسمها، كانت مخصصة للجنود والشرطة بسعر متهاد، لا يزيد عن خمسة عشر قرشاً. تبغ غريب اسود، يحف صيفاً حتى يغدو كروث البقر، فينفطرط من الأطراف، ويصير رطباً حاداً في الأيام الباردة، فيشعله مدخنوه بعود كبريت بعد كل نَفَس.

سحب الرقيب نَفْساً جافاً من لفافته، وتمتم: «هَم. . هَم. . آه. . أنت مشترك في تحريض ابنك؟»، وجّه سؤاله الى الأب. فأطرق الرجل الغارق في قفطانه النظيف، وحطته البيضاء الناصعة، الى الأرض، مجيباً: «الكلب كلب يا حضرة الرقيب».

استدار الرقيب واتّجه الى خارج الساحة، هامساً: «اتبعوني كلكم». صعدت العائلة كلها الى سيارة الجيب. الأب، والأم، والاولاد الستة. تخلّفت البنت وحدها، فلم يجرؤ الرقيب على مناداتها. الصّبية متحلّقون حول السيارة، يردّهم السائق منتهراً فلا يستجيبون. سأله الرقيب الذي حشر نفسه مع زملائه في المقدمة: «أين الشاهد؟»، فرد السائق: «اختفى. كاد يذوب من نظرات الجيران فاخفى». لم يعقب الرقيب بكسله المعهود، بل همس ثانية: «الى المخفر»، وفتح زرّين من أزرار سترته.

دوى محرك السيارة ذو الحشرة . اهتزت العجلات المطاطية قليلاً وهي ثابتة، ثم انفصلت عن المؤخرة كتلة دخانية سوداء. ارتجّ الجالسون فيها جميعاً، فاختضت جماهم . «يللاً» تتم السائق، فانطلق الحمار الحديدي . ركض الصّبية خلف السيارة حتى اختفت ملامحهم في الزويدة الغبارية، ثم عادوا أدراجهم كالإوزات الشرسة التي لحقت بالقافلة، بدورها، وعادت ادراجها الى حيث البركة الطينية قرب سور «عفدي ساري» . بعد ذلك أقفر الزقاق لينتظر زويدة اخرى .

كل جثة في طريق «الحيوان» السابح في الزلال الدبق تزوده بشارة للفوز . «اسقطي، اسقطي . قدّر واحد أن يصل؛ واحد فقط» . ذاكرته تتلألأ كحُباحب فوق نهر، وذيله يشتد اهتزازاً . «من كان ذاك؟» ، يسأل نفسه كمن التقط ظلاً عابراً ولم يتمكن من تحديده . يمعن التفاتاً الى اعماقه التي أورثتها اشكال الى اشكال . سرّ صياغة يلقي اليه بالكثير مما مضى، دون ان يكون حاضراً في الذي مضى . الخلية؟ . . نعم . حلبة النسخ الأعظم للدورة كلها، والهاوية التي تتحد فيها مصائر الاشباه، الذين يملكون غريزة ان يستمدوا بقاءهم من موت، وموتهم من بقاء . سوران عظيمان لا نهاية لهما من المرايا، والشكل يستقر في الفواصل بين الالواح . «من كان ذاك؟» يستعيد «الحيوان» السؤال، ثم يجمع الشتات المضيء الخافت في ظلام جسده، محاولاً حصر ما يراه : كان ذلك الحيوان الآخر، ذو القوائم الأربع، الذي انقض عليه الرجل المختبئ بين الاعشاب، هو العابر بظله على مساحة جليلة من ذاكرته . يرصد «الحيوان» السابح في الزلال حركة الحيوان الآخر: وديع معتبط ببلاهة النعمة التي تجعله أبله . القوائم الاربع تتناوب على الحركة في نظام صارم . ويرّ يحوّل الى شقيرة في الضوء، فوق ذلك الجلد البني الفاتح . عشب يهتز من حركة الحيوان . حشرة تطير مذعورة، وذبابة تطنّ فوق قرنيه، ثم تحطّ على زاوية عينه اليمنى . العنق ينحني في رخاء، من اعلى الى اسفل . الخطم يتشمّم نبتة صغيرة، قبل ان تجتثها فكاً الحيوان بقضمة واحدة .

«واوو»، همسة مكتومة على هذا النحو تندّ من أعماق «الحيوان» السابح في الزلال الدبق، فالقضمة التي اجتث النبتة اجتثه أيضاً . إنه يحسّ بجسده مطحوناً بين الفكّين القويين . «أيمكن للذاكرة أن تستعيد الالم حرفياً؟» يسأل السابح نفسه . «نبتة . . . كنت نبتة إذا» يرّد على حيرته، «أحسّ بثآليل صغيرة في أطراف جذوري . أحسّ بجذوري النحيلة أيضاً، سابحة مثلي في

ظلام صلب لا دبق فيه . ورقى العالي لا يرى أبعد من شبر في محيط رؤيته .
لو يميل العشب قليلاً لأرى أكثر، لو يستوي النبات كله في مدى ارتفاعي
فقط . آه . الأعلى ملك رؤيتي . لم أنتبه الى أن ثمت فسحة مديدة الى
الأعلى؟ . الضوء المتهدل في كسل من منارات الغصون . الغصون والأعيب
الورق المضحكة . السماء التي تفتح ممرات ضيقة بأيديها الألف الطرية لتراني .
وجهاً لوجه أنا مع صورتي الأخرى، وامتداداتها . ويستدرك السابح في الزلال
الدبق هاتفاً : «قطفني الأبله . عليّ أن أبحث عن حريتي أبعد من ذلك» ،
ثم يندفع بقوة في النفق .

«بافي جواني» متورط حتى أذنيه في لعبة اكبر منه . فقد خيل اليه ، وهو
تابع «سّطامو لاوي حجي عباس» أن في إمكانه إذلال بيت «عقدي ساري»
بأقويل تافهة ، بعدما أصابهم الكثير من الحكومة .

حروب مهربي تبغ ، بعضهم شهم وبعضهم خسيس . «سّطامو» كان
يسرّب الى شرطة الحدود مواعيد مرور قوافل «عقدي ساري» ، مقابل ان
تتغاضى قليلاً عن بغاله ، التي توزعت سُبل عبورها بين «نصيين» و«عامودا»
في الشمال السوري المتاخم لتركيا . اثنان من رجال «عقدي» قُتلا في المdahمات
الليلية ، وعشرات البغال شردت بحمولاتها بين الاحراش والادوية ، بعدما فرّ
الرجال بجلودهم . ولقد أمسّت أحواله تسير من سيء الى أسوأ ، بينما تَبَحَّحَ
«سّطامو» النكرة ، على نحو يدعو الى الريبة .

كان «عقدي» يحسّ أن في الامر شيئاً غير المصادفات التي تمكّن الشرطة
من نصب كمائن موفقة دائماً . وقد كاد غضبه ان يدفعه الى نصب كمائن ،
بدوره ، لتلك الدوريات ، لكن العقلاء نصحوه بعدم إشعال حرب مع
الحكومة لا يعرف أحد خاتمته .

دافع جشع وحسد ، لا أكثر ، كان وراء ما فعله «سّطامو» ، الذي مضى
وقت غير قليل قبل أن يكشف العارفون «عقدي» بأمره . أما رجُلُه «بافي
جواني» فما من أحد فهم ، حتى الآن ، سبب نزوعه الى ثرثرات حول ابنة
«عقدي» وأمّها . قد يقول قائل إن الأمر محض نزلف الى سيّده ، الذي نال من
الرجل القوي في الحارة الغربية للمدينة بخساسته ، أو هو استقواء الوضع على
من هم أرفع شأنًا ، مَن جعلتهم المكائد المتتالية على شيء من الضعف . و«بافي
جواني» من الرجال النادرين جداً ، ممن يحملون الى بيوتهم بعض زجاجات
الجنة ، في أكياس سميكة محكمة التمويه . اذ ما من عادة هذه الاحياء

المحافظة أن ترى بينها من يتعاطى غير شراب العسل، أو التوت. وفي إحدى حالات نشوته، كمبتدئ يستطيع أن يتباهى بقول ما لن يقوله قط في صحوه، نفوه، في المقهى، بأنه سيُذَلَّ «عفدي» في شرفه، وقد ازدراه بعض الجالسين، قائلين ان هذا الكلام لا يليق برجل له شاربان كشاري «بافي جواني». لكنه تمادى، في حالات أخرى، وفي وضوح النهار، بأن يمر من امام بوابة بيت «عفدي» وهو يقتل شاربيه، ليثبت أن في إمكانه التحديق في باب رجل لم يكن يحاذيه، من قبل، إلا مطأطأً. وذهب به وهمه الى درجة الغمز بعينه الى زوج «عفدي» مرة، وابنته مرة أخرى. ثم بات يثرثر بأنها تبادلانه غمزاً بغمز، فحصل ما حصل، وسقط «بافي جواني» تحت كراسي المقهى، آخذاً معه حصيلة عمره التي لم تجاوز ستة ثقب في جسده المستدير.

«أين نهاية هذا السباق؟» يكاد «الحيوان» السابح في الزلال الدبق ان يصرخ. رأسه المستدير يصطدم، في تقدّمه، برؤوس أخرى، وذيله يلامس الذين تخلّفوا عنه. تعتريه شفقة ما على جنسه الاعمى هذا، المحكوم ببحته عن مصير محسوم كأي نتيجة حسابية في دفتر بقال؛ المحكوم بالخروج من النفق، والعودة اليه، اكثر هذياناً من أثر الكمال الذي يجنيه بعد كل دورة. لكن العودة عودة وحسب، والظلام ظلام، لا يقل مقداره أو يزيد بزيادة في الكمال أو بنقصان فيه. ما من إغراء، إذا، وراء هذيان جسده المندفع، إلا أن يكون حلقة في الدورة، لا أكثر. على ان هذا يبدو كافياً، كاكْتفاء كل شيء بخطوة واحدة، خجولة او واثقة، صوب التزييف العظيم للمعرفة.

«لا، فلاكن صدى ما لا أعرفه، لا صوت ما أعرفه»، ورمى بنرد ذاكرته مرة ثانية؛ النرد الأوحى المضيء في ذلك الظلام الصلب كحصى صلبة، هامساً: «اين حريتي؟»، غير أنه رآها، أو رأى رمادها الذهبي العالق بأوراق النبتة، التي اجتثها الحيوان ذو القوائم الأربع بقضمة واحدة.

«هاي. لم أكن نبتة إذاً. كانت النبتة صدى شيء آخر». واستحث النرد المضيء، قاذفاً به على وجوه كثيرة فوق مساحة أعماقه. «هنا» هتف، «هنا». كان يرى ناليل جذر النبتة مسترسلة برحاء في المياه، تحت الطبقة المترصة من جذور العشب الهينة والتراب الرطب. أكل الحيوان ذو القوائم الأربع تلك النبتة، لكن المياه ظلت هناك. يتنفس السابح في الزلال الدبق باطمئنان من عثر على طريدة سقطت بعد فر.

المياه، المياه. تلك الدعامة الشفيفة التي تسند هيكل الحياة المائل،

تسند ذاكرة «الحيوان» المتسابق ايضاً. «مياه أنا» يقولها في اغتباط، متلمساً بحساسيته الحيوانية صيغة هذا السائل المتهتك، الذي يصهر في مزيج كل مزيج، والقابض بشهوته على كل انحلال فلا يستقر إلا فيه: دُرُورٌ آحِيَّةٌ. ثاليل تتفجر تباعاً، كاشفة عن حيوات ترقد وادعة في أسرارها. خلايا وأشباهها. يرقات أكثر تواضعاً من أن تُرى. شباك ذائبة ممّا يذوب، وصلبة ممّا لا يذوب. حنين هواء الى الهواء، وصدامات صامتة بين خلائق تستعجل ظهورها على هذا النحو أو ذاك. «مياه أنا» يردّد «الحيوان» صورة اكتشافه، «فضيحة عذبة أنا، أكثر اتساعاً من أن تحددها مشاغل نبات أو جسارة حيوان».

إنه بهي في اندفاعه الآن، ذلك «الحيوان» السابح في الزلال، بنعمة الصورة التي تترقق في فضاء جمجمته الصغيرة جداً. حمى سباق وحمى ذاكرة. حمى من متواليات كشوفٍ تختفي في كشوفٍ أخرى. يقول: «المياه. المياه» في كل خفقة من ذيله، واذ يدركه التعب بعد شوط لم يبلغه شركاؤه، يهدأ قليلاً، بل تهدأ كلمة «المياه» في اعماقه، ايضاً، كأنها يراجع اكتشافه بشيء من الريبة، بعد كل ذلك التآلق.

إنه يتبع المشهد من آخره الى أوله، صعوداً من البحيرات الى الجداول، ومن الآبار الى المسارب الباطنية، ومن الينابيع الى العروق الضيقة بين الصخر والحصى: المطر ماء. الثلج ماء. الغيوم ماء. شمس تأخذ البخار في سلاها، وعتمات باردة تُرجع البخار، ثانية، الى المكان. نواير شفيفة عملاقة تسرق الشكل بمغارفها، وتعيده، من ثم، كمثل ما كان. تاكل طفيف يعتري المشهد، بعد كل دورة، تماماً كاستعمال ملعقة، لا أكثر.

المياه، إذا، ميثاق شرف بين الليل والنهار، و«الحيوان» السابح في الزلال الدبق يحاول صياغة أعماقه من جديد، بعد اطمئنان عابر لم يُفَضِّ به الى يقين.

«انزلوا» قالها الرقيب لعائلة «عقدي»، فنزل الأب، وأولاده الستة، وزوجه، من «بيك آب» الشرطة المغطى بسقف من الشادر. فكّ الرقيب أزرار سترته وهو يتقدم العائلة نحو باب المخفر، وإذ دخل الغرفة جلس خلف طاولته، وأشار الى الآخرين بالجلوس، فجلس الأب على الكرسي الوحيد، الذي تدلّت لوالبه المعدنية من الاسفل، بينما قرفص الاولاد، والأم على بلاط الغرفة العاري.

وضع الرقيب قبّعتة أمامه . أخرج لفافة وأشعلها فدمعت عينه من الدخان الذي غطاها . تراجع الى الوراء في مقعده ، وصرخ : «يا بلوط، يا لصوص» ، فردّ عليه صوت من الخارج ، اكثر صراخاً : «نعم سيدي الرقيب» . «هات ورقة بحقّ الله . من يسرق الورق عن طاولتي؟» ، فردّ الصوت الاخر : «حاضر» . «حاضر» ردّد الرقيب بدّهش ، موجهاً كلمته الى «عفدي» : «يقولون حاضر ويسرقون الورق . ألا ترى كروشهم الكبيرة؟ إنهم يأكلون دجاج السجناء مقابل تسريب الخناجر الى السجن . والله ، والله يا . . . شيخنا، هناك بنادق داخل هذا السجن الصغير . بنادق تحت الأغطية . أفتشهم فأصادرها، وتعود في اليوم الثاني اليهم بقدرة قادر . لو أراد السجناء اعتقالنا لاعتقلونا بدلاً منهم . لكنهم طيبون تجاه الشرطة ، ويكتفون بقتل بعضهم البعض في الداخل . الغرفة ، هنا ، هذه الغرفة يا . . شيخنا ، ينام فيها بعض الخائفين ممن يستجدون بنا . من يقول انه سيقتل فيسقتل . ذلك أمر لا مفرّ منه . وقد ذهبنا الى القائمقام نشكو اليه هذه الحال ، عله يوزّع السجناء على . . على جهنم ، فردّ علينا : أكراد ، فليتذابحوا . قلنا له : سيدي ، كلّما قُتل شخص في السجن حلّ عشرة أشخاص فيه ، ممن انتقموا للقتيل . سيتحول سكان المدينة ، والضواحي ، والقرى من حولنا ، الى سجناء . وبقيناً أنهم لن يطعمونا دجاجاً أو بيضاً مما يصطحبونه الى أهلهم هنا . سنأكل الكراسي ، أو قبّعاتنا . فردّ القائمقام - بالله عليك أهذا ردّ؟ - قال : كلوا البيك آب ، لقد نسيتم البيك آب . وقد خرجنا من عنده ونحن نكاد نبول على الورد في حديقة مسكنه الفخم» .

كان «عفدي» يصغي في وجوم الى ما يقوله الرقيب . وكأنها استدرك الأخير سؤالاً لم يوجهه الرجل المائل امامه ، فردّ : «أتظنني أخاف؟ . من سيصل الى القائمقام ليشي بي؟ هؤلاء الحثالة هنا؟ يلزمهم ها : «اغتسلي هناك» ، وأشار الى زاوية الباب . تناولت البلهاء الابريق ومضت إلى الدائرة الاسمنتية . رفعت ثوبها حتى الخاصرة ثم قرفصت ، وجعلت تغسل نفسها ، تركت الابريق هناك فمضى إليه «بيكاس» ، وفعل ما فعلته ، محققاً ما بين فخذه بجلبابه كما جفّفت الفتاة نفسها .

أعرف طريقتكم في صنع اللّفافات . لفّ ، أنت ، لي واحدة» . فاشتغلت أنامل «عفدي» حتى اكتملت اللّفافة . قدّما للرقيب الذي أشعلها في ارتياح ، هامساً : «اللّعة على تبغ الجيش» . ثم ارتفع صراخه على نحو

فجائي : «يا لصوص، أين الورق؟»، ولم ينتظر الجواب، بل استرسل في شكواه، التي رآها «عقدي» غريبة، فأنصت بكل شيء فيه، وكذلك عائلته المقرضة، التي بدا أن الأم، وحدها، لا تفقه كلمة مما يقوله ممثل الحكومة: «فلنفترض أن القائمقام سمع بـ . . . اعذرني يا شيخنا . . . سمع بجَحْشَتِي، فماذا سيفعل؟ ها؟ قل بربك ماذا سيفعل؟. سيقول إنني غير مرغوب فيه هنا، وسيردني الى دائرة المحافظة. في المحافظة لي أقارب، وسيعيدونني بدورهم الى هيئة مركز المدينة التي جئت منها. لا أريد البقاء هنا. هذا الشمال يزهق الروح. الجنود الأتراك يطلقون النار، عبر الحدود، على الحمام البري، فيصيبون جنود ثكتتنا. لماذا لا ينقلون الثكنة عن هذه الهضبة العالية كدرية للتدريب؟. يتصيدون الحمام، ثم يعبرون الأسلاك فيأخذونه، وهم يمدّون ألسنتهم للجيش. ما من شرطي يجرؤ على العبور قرب الحدود. قال لي فلاح، من لهم حقول قرب الاسلاك الشائكة، ان جندياً تركياً اتهمنا بأننا كفار. لماذا نحن كفار؟. سيأخذون هذه المدينة ذات يوم، دون أن يكون لأحد حق الرد على النار. انهم يعبرون الحدود الى قرية الهلالية، ويأخذون أي رجل يختارونه، ثم يبصقون على باب المخفر. وأنتم . . من أنتم؟»، ثم صرخ من جديد: «الورق، الورق»، فدخل عليه شرطي حاملاً مغلفاً مهترئاً: «حاضر يا سيدي»، ووضعه بين يديه.

سحب الرقيب، الذي تورّدت وجنتاه من الانفعال، درجاً من ادراج طاولته، ثم تناول قلم حبر بلل أصابعه بلون أزرق على الفور. «تفو» همس لنفسه. لفّ وسط القلم بورقة نشافٍ ليمنع تسرّب السائل، ومال على الاوراق التي أخرجها من المغلف، متمتماً بصوت مسموع: «اليوم . . التاريخ . . المَحْضَر». كان يردد الكلمات دون ان يكتب شيئاً. رفع بصره الى «عقدي» واولاده، قائلاً: «من منكم يتقن الكتابة؟»، فرد الاولاد انهم يتقنونها. زَمَ الرقيب شفّتيه، وأوماً بقلمه الى أحدهم: «تعال». قام الشاب الذي يبلغ التاسعة عشرة، واقترب منه. «اجلس مكاني» أمره الرقيب وهو ينهض عن كرسيه، فامتلأ ابن «عقدي». مشى الشرطي حتى بلغ الباب. رده بحركة من حذائه السميك، ثم اتكأ عليه بكفه: «لا أريد لهذا الأفاق ان يدوّن المحضر»، وكان يشير برأسه الى الخارج، بما يعني انه لا يريد مساعدة احد من الشرطيين. «انه يستوقفني كثيراً ليسجل الكلمات بحذافيرها، وهو يعتمد ذلك مستغلاً ضعفني في الكتابة. ابن الجحش. لا ينفع الا لهذا

العمل، لذلك يطيل حتى يقضي نهاره في تعذيبى». ثم توقف الرقيب برهة، قائلاً للشاب الجالس وراء طاولته: «لا ترفع القلم كثيراً، وإلا اضطررنا الى كتابة المحضر من جديد».

رفع كتفه عن الباب. نظر الى حذائه قليلاً، ثم الى «عقدي»: «سجل»، قالها من غير ان ينظر الى الشاب. «اليوم كيت. . التاريخ كيت. . المحضر»، واتجه الى «عقدي» بسؤاله: «لماذا قتلوا ابنك؟». رفع «عقدي» حاجبيه في دهش، هامساً: «ابني؟». قال الرقيب: «عمتك. . اختك. . خالتك، جدك، ابوك، من قتلهم؟». ازداد دهش الرجل، ثم تحول الدهش الى غضب: «سيدي الرقيب، من قتل حكومتك، وحكومة أبي أليك؟»، فأجفل الشرطي كمن كان شارداً، وقال في جفاف: «ماذا تقصد؟»، فرد الرجل: «إذا أردت أن تنتهي من المسألة سريعاً، فقل لابني ماذا عليه أن يكتب في أوراقكم». «أجيني، إذاً، ليكتب ابنك ما تقول»، ردّ الرقيب بدوره.

هممت الأم الجالسة على بلاط الغرفة بكلمات مشوبة بشيء من القرف، فنظر اليها أولادها متوسلين، فسكتت. نظر اليها الرقيب فلم تطرف عينها الغاضبة. «واو» تتم الشرطي، ثم تحول بعينه عنها كمن يتلافى موقفاً حرجاً: «ما القضية إذا؟» سأل الرقيب الرجل، فرد الأخير: «أنت أخير». قال الرقيب: «أتيت بكم لأن هناك جريمة قتل»، فردّ «عقدي»: «جريمة قتل، أو انقلاب. . . ما الذي يعنيني في ذلك؟». رفع الرقيب كتفيه في تساؤل: «أليست لكم علاقة بجريمة قتل، أو بسرقة، أو بتهريب، أو بمسجون هنا؟». صمت «عقدي» ولم يجبه. رفع ابن «عقدي»، الجالس وراء الطاولة، رأسه قليلاً، سائلاً في حياء: «ماذا اكتب يا سيدي؟»، فأجابه الرقيب: «القضية عويصة. يلزمننا شاهد. أين الشاهد؟»، ثم صرخ ملء فمه عبر الباب المغلق، فركض شرطي من الخارج، مُطلاً برأسه فقط: «نعم سيدي». سأل الرقيب: «لماذا جئنا بهؤلاء الناس؟»، فأجابه الشرطي الذي لم يتقدم أو يتأخر: «جريمة قتل». سأل الرقيب ثانية: «مَنْ قتل مَنْ؟»، فطأطأ الشرطي برأسه، هامساً: «هرب الشاهد يا سيدي. لكنني اعتقد ان هناك جريمة قتل». فاحتدّ الرقيب، متوجهاً بكلامه الى ابن «عقدي» الجالس وراء طاولته: «الحكومة لا تعرف ماذا يجري، فلماذا عليّ أن أعرف؟. سجل يا بُني: قُتِلَ حمار. دعوى ضد مجهول. انتهى. التوقيع حذاء بن حذاء. الشاهد حذاء».

فرد الشاب : «أعليّ أن أوقع في مكان ما على الورقة؟». نفخ الرقيب صدره الممتلئ غيظاً ومللاً : «نعم . وقع على مؤخرة الرئيس»، وأشار بيده الى صورة معلقة فوق أحد الجدران .

«الحيوان» السابح في الزلال الدبق يستحثّ قواه وأعماقه معاً . حركة الذيل تدفع الرأس الكرويّ أماماً، والذاكرة تحاصر المشهد بكل آلاتها . «الحرية هي صيغة الشكل» . انه يمهد بهذه الكلمات ضرباته الجديدة، بعدما أخفق في أن يجد الماء منطلقاً لصيرورته . ويردد كالهاذي : «الشكل الشكل . الذرة الاولى، الخلية، الجذر الذي لا ينقسم، هو الحرية . البداية . . . وأنا لست ماءً» .

كان «الحيوان» قد انتهى ، توأ ، من اشتغاله على فكرة السائل ؛ الفكرة التي تتأرجح كنّواس الساعة بين تعاقبات الطقس : بخار . ماء . بخار . ماء . . الخ . «أنا أحدهما» أسرّ لنفسه ، «أنا جسيم بارد أو ساخن ، لا أكثر»، ثم استدرك : «لكن أيهما أنا؟ . السخونة؟ نعم ، السخونة هي طبيعتي . الزلال الذي أصبح فيه ، وكذلك النفق المظلم هذا ، كلاهما ساخنان . جسمي ساخن ، هذا ما أحسّه . بيد أن عليّ معرفة ما هو الساخن . الحرارة . واوو . من سيؤكد المسألة؟ عليّ التفكير أبعد . نعم . الساخن يصبح بارداً بعد قليل . البارد ، نعم . من سيؤكد المسألة؟» .

بات «الحيوان» يحسّ بسداجة أسئلته في حمى السباق ، الذي سيجعل وجوده متصلاً أو منقطعاً ، لذلك ينبغي اعتبار السباق ، وحده ، حقيقة وجوده . حاول أن يصرف أعماقه الى الراهن فقط ، فأخفق . ثم استبدّ به غضب من يخلّده جوابه ، فصرخ : «أنا الحرية . وحدي أنا . لست أسمع أحداً من كائنات هذا السباق . ألا تتساءل لماذا اللعبة كلّها؟ . تتعب فتستسلم للموت . حيوانات . لديّ ذاكرتي واندفاعي ، فأنا الحرية . أعبّر الجثث بحمى لا قانون فيها . الحمى هي الحرية . أنا الشكل الآن ، وصورة كماله حين أصل . أللشكل كمال؟ هاااي . الحمى هي الحرية» ، ثم ضرب بذيله الزلال فاندفع مسافاً الى أمام .

الحرية تتجذّر . لماذا عليه أن يصوغ نفسه على شكل وهو على شكل آخر؟ لا يهم ، على كل حال ، تعاقباته ، وتحولاته ، التي أفضت به الى هذه الصورة . عليه الوصول الى آخر النفق . تلك مهمته ، لا أكثر . وسيكون ما سيكونه ، لا بتصميم منه ، بل بتصميم من الحمى التي يحسّها منفصلة ،

أحياناً، عن رغبته وحماسه. «أنا سر الحرية» يقولها لنفسه بإذعان لا غضب فيه، «أنا سرها، أما هي...»، ويرجع الى استثارة ذاكرته، صارخاً تحت وطأة ذلك من جديد: «الذاكرة هي الحرية. الحرية؟ لم ألهم؟ الحرية ذاتها لن تكون حرة مثلي حين أصل». لكن الحاح البحث عن جذر ما ظل هاجساً. وقد انصرف «الحيوان، السابح في الزلال الدبق، بتساؤلاته الساذجة الى هاوية أخرى.

ضوء صباح رخي يغمر المسافة المنبسطة التي تحدها تلال في آخرها. ظلال الاحجار الصغيرة لم تنزل مديدة، وهي تُغوي بغفوة ما، قبل ان تنحسر من صعود الشمس. نبات بنفسجي، من فصيلة السرخسيات، يكسو الارض بتنافر. هدوء لا يقطعه الا طقطقة خفيفة للخمائر الدفينة في التراب العاري بين نبتة واخرى. المكان يزن نفسه بميزان البهاء الصامت. ما من شيء سيحصل قطعاً، وما من جماد ينتظر حدوث ما يوقظه. غيبوبة منبسطة، سميكة كجلد وحيد القرن: هذا هو المشهد الذي يطفو على ذاكرة «الحيوان» النزقة.

«من اين ستنبثق النشئة الآن؟» يسأل نفسه، «الآن، أو بعد قليل، أو أبعد مما بعد». إنه يتلمس المسافة المنبسطة بوصة بوصة، ويتشمم الهواء كعقرب. يده يد أنثى القردة، التي تلتقط البراغيث والقمل من فراء ذكورها، وله خرطوم آكل النمل، الذي لا يخطيء الجحور. «بذرة ستفتح. بذرة ما: غلاف وفلقتان، ونبتش سيطفر عالياً من ظلام الاعماق. وريقات كقرنية الظرباء ستستطلع المكان بحركات مفصلية. كل ورقة سترصد احدى الجهات، وكل جهة ستزاحم الاخرى في تقديم هباتها الى هذا الحيء المؤنس الوافد بعُريه. للجهات أمومتها وأنداؤها. لقد تهيأت، مُد كانت، لوافد ما: هذه بسرير، وتلك بظل. هذه برياح، وتلك بطبول. هذه بفضيحة، وتلك بانتصار. هذه بهذيان، وتلك بأنين عظيم».

أعدت الجهات عدتها لئلا، ولم يبق إلا أن يرتفع الصخب العذب لوليد ما.

صمت يلف ذاكرة «الحيوان». مرصد كبير يحصر المكان في أعماقه بعدسات من الفضول والحمى. إنه ساكن من الداخل سكون القنّاص، لكن ذيله النحيل، الذي لم ينس المهمة بعد، يدفع الرأس أماماً، بحركات متزنة، في الزلال الدبق.

عائلة «عفدي» تمضي الى البيت راجلة، بعدما جاءت الى المخفر محمولة في سيارة الشرطة. كل فرد يلتفت الى الآخر، عبر المسلك الترابي، في نقاش عالٍ يدور حول المسألة برمّتها.

في تلك الاثناء، كان ابن «عفدي» السابع، الشاب الذي قتل «بافي جواني»، والمغطّي وجهه بحطته البيضاء تمويهاً، مبقياً فسحة لعينيه، يعبر البيوت الخلفية من جهة الشمال، التي تعقبها بساتين الحليين بباذنجانها، وفلفلها الاخضر، وقنبيطها، وخسّها. فلاحون وفدوا من «حلب»، يتعهدون هذه الارض المنبسطة ذات الجداول. يننون بيوتهم وسط آجام الشجر، ويرتّون كلاباً ضخمة. والمسافة بين تلك البيوت، والحدود التركية المسيجة بالأسلاك، لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار.

كان الوقت يقارب الظّهر حين أطلق النار على «بافي جواني»، وهاهو العصر بهزيعه الاخير يغطي المدينة. قضى ساعات متنقلاً بين الحي اليهودي، وحي الأرمن، على غير هدى، متفكراً في الطرق التي ينبغي عليه أن يسلكها قبل أن تصبح مطاردة الشرطة جدّية. المدينة صغيرة، وأي ملجأ فيها لن يستره أكثر من ساعتين. عليه ان يجري اتصالاً ضرورياً، على كل حال، بأهله، أو بأقربائه، من أجل تدبير دليل يعبر به حدود تركيا. سيصبح في مأمن هناك حتى ترتيب الأمور، أو بلوغها حدّها الأقصى. لكن أين يتصل بهم؟ ومن أي زقاق يدخل الحيّ الذي يترصد أناسه ودجاجه كلّ عابر؟ لا بد أن الخبر ملأ البيوت، والتكهّنات بما سيجري تتأجج كرووس لفافات التبغ في الأفواه الشرهة.

يميل الشاب صوب البساتين، في محاولة لإعطاء نفسه فرصة تفكير صائب. وإذا يصل الى أوّل جدول حفرت مجراه معاول الفلاحين من أجل السقي، يرفع الحطة عن رأسه، ثم يغرف الماء ملء يديه، ويغسل وجهه ورقبته، ممسداً شعره القصير بما تبقى من قطرات عالقة بأصابعه. إنه بكر إخوته الذكور، وتكبره اخته «برينا» وحدها، التي تزوّجت الملا «بيناف» بعد موت زوج الاخير بستة اشهر. ثمت تفاوت في العمر، لكن الملا كان حكيماً، برغم العُهدّة التي أورثها لعروسه، والتي تبلغ أربعة أولاد. فقد خفّف الامر عليها، وهي الغريبة عن بيت لم يكن لها يدٌ في تجهيزه، حتى غدت جزءاً منه، وغدا الأولادُ أولادها.

«إب يه» يتنفس الشاب المقبل على سنته الثانية في الثانوية، وهي سنة

ستطول لتشمل سنين من عمر العائلة، من غير أن ينال شهادتها الدراسية قط .

ينظر في اتجاه الحدود، وقطرات الماء تنزلق في رفق فوق أنفه المحدث قليلاً، ثم ينظر الى يديه المغمورتين بالماء الشفيف . يحرك أصابعه فوق القاع الطيني للجدول فتنبعث غمامات صغيرة كدرة، ما تلبث أن تستقر على القاع، ثانية، بشقل ، ويعود للماء صفاؤه .

فكرة الفرار تتلاشى رويداً رويداً، ورهبة الجريمة تشف حتى تغدو استسلاماً لمصير يرى الشاب أن يدفع به الى منتهاه . فهو يعرف، مُسبقاً، بحكمة الشالي الذي لا يرى إلا المر حتى الموت، أو الحلو حتى الضجر، ما ستؤول اليه الانتقامات . لكنه يستشعر في نفسه، إضافة الى هذه الفراسة، رغبة في اختصار المسألة ؛ رغبة في جعل الهول شديداً الى درجة تشل من يفكر في أمر آخر .

سينفذ بجلده إذا عبر الحدود، غير أن الجهة التي سيصلها لن تخفي حقيقة ما سيجري في الجهة الأخرى من الأسلاك : أبواب ستوصد على الخوف، ومزاليج حديدية ستحل محل المزاليج الخشبية خلف البوابات . دجاج سيختفي اذا عبر باحة مالكيه، هنا وهناك . أعواد ثقاب مشتعلة، وخرق مبللة بالكيروسين ستعبر أسوار الباحات، علها تصادف ما يشتعل فيشتعل المكان برمته . قهقهات استفزاز ستعبر الأزقة كفخاخ مهياة للكنص . أطفال سيعودون الى بيوتهم مُهشمي الجساجم والأعضاء، ومثلهم النساء والبنات مشعثات الشعور، ممزقات المناديل . مقاه وأرصعة كثيرة يرتادها المتخاصمون ستخلو للقوي وحده، والآخرى سينزوين .

«لا» ينتفض الشاب . «فعلتها ولن أخفي . سأقول للكلاب إن لها أذياً إذا نسيت ذلك . متى كان على أولاد «عقدي» ان يختفوا؟» . ثم نهض، وقد أخفى وجهه بحطته من جديد .

الشمس في مغيبها، وابن «عقدي» يعبر فرعاً غريباً من نهر «جفعج» في اتجاه قرية الهلالية . لوالده اصدقاء حميمون في المهنة هناك، والايام السيئة لا تحيل السيد الكريم الى عبد منبوذ بين عشياتها وأصحابها . يقول لنفسه : «فلأنجى الى بيت سُم الميرسيني، فهو الأقل حكمة، والأشد فظاظة . لا أريد حكيماً من هؤلاء ينصحي بغير ما أريد . لا أريد مداورات الطيبين البلهاء» .

يجاوز ابن «عقدي» الهضبة العالية التي يجري في سهلها ذلك النهر، مخرقاً دغلاً صغيراً هو آخر امتداد لما يشبه الغابة من جهة الجنوب. ذيل من الشجر في ذلك الجسم الكثيف، لا يلبث أن يتسع على شكل مساحات هائلة من العُليق النهرى، والصفصاف، قبل أن يغيب في ما وراء الحدود التركية. نقيق صاحب للمضفادع يغيب عنه في عبوره، وكذلك الخفقات الكثيرة لأجنحة الشُّقراق وأذيالها المنبسطة كراحة اليد. المخفر الصغير المبني من اللبن يلوح على المشارف الشمالية للقرية، التي لن تكون إلا ضاحية، في ما بعد، من مدينة «قامشلو». وفي المخفر، عادة، بضع دركيين لا يؤبه لهم، لكنهم خطرون كسُعاةٍ لطلب النجدة من المدينة.

المسافة بينه وبين المخفر مديدة، لذلك لا يحسّ بوجلٍ ما. يمضي على شكل قوس من الهضبة في اتجاه الجزء الجنوبي الشرقي. بيت «سُمُو» منعزل عن البيوت الأخرى قليلاً. السراج مضاء برغم بقايا ضوء نسيها المغيب على الأسطحة، والتنوءات الترابية المبتوثة كجدرى على تحوم القرية. الباب نصف مفتوح. يدفعه ابن «عقدي» بيده دون استئذان، فيرى العائلة مجمعة حول صحيفة من البرغل الذي يتصاعد بخاره. يومئ الشاب للرجل متجاهلاً العيون الفضولية، فينهض «سُمُو» مقطّباً، ويتجه الى الوافد الغريب، قائلاً لأولاده، من غير أن يلتفت: «أكملوا طعامكم». وحين صار في مواجهة الباب تنحى الشاب خارجاً فخرج الرجل خلفه. نزع ابن «عقدي» حطته عن وجهه، فاتسعت عيناه «سُمُو»: «مجيدولاوي عقدي؟!»، فردّ الشاب: «نعم. اسمع يا سُمُو ليس لدي وقت للشرح. انا في حاجة الى بندقيتك وحزام الطلقات». رفع الرجل حاجبيه: «بيتكم مليء بالبنادق والطلقات؟»، فردّ الشاب خفياً تذرّمه: «قصدتك لأنك لا تكثر من الأسئلة يا سُمُو». كان ردّ الشاب كافياً ليتّجه الرجل الى الداخل، ثم يرجع ببندقية وحزامين من الطلقات. نظر ابن «عقدي» اليه، وهو يتناول ما طلبه، دون ان يتفوّه، قبل أن يستدير على عقبيه، ويعود من حيث أتى.

الهواء يغدو ثقيلًا من الطقطقات الخفيفة التي يحملها في عبوره. هذا ما يحسّه «الحيوان» السابح في الزلال الدبق بذاكرته. أشياء تتعرى لتندفع أسرارها من ظلام الجوهر. أرض تتعرى في حياء كجوزة القطن. عراء يتعرى. «العُرَى هو الطَّرْفَةُ الاولى على الباب الذي سيظل موصداً»، يقول «الحيوان»، ثم يحصر المشهد بمرصده من جديد. «إبدأي. إبدأي»: همسة

الاثارة في انتظار الطفرة الحية. «هاا»: رجفة ذهول ترافق صوت «الحيوان». «هاااا» يُطلقها مديدة من اعماقه وهو يرى التردّد الساحر للحياة متدحرجاً في السكون: شعاع لولبي يكسر القشرة الرطبة تحت ظل النبات الذي لم يكن نباتاً قط، بل أشكال حجر بنفسجي تكاد تكون صورة من صور السرخسيات. الشعاع يتكّوم كأخطبوط في كتلة واحدة، ثم يتهدّل مترجرجاً. ما من شكل له، لكنه حيّ. خليط من اللون يتختر تارة، ويميع تارة أخرى. يلمس الأرض ثم يفصل عنها ثانية، كأنها يدّ تجسّ يدّاً في حياء. يتمدّد منشراً كالريش، ساقطاً في تمايل، ثم يلتقي ليصعد خفيفاً. حركة رشيقة تصحبها همهمات صادرة من لا مكان.

يكاد «الحيوان» أن يتوقّف من ثقل ذهوله، لكن الأذيال التي ترتطم بجنبه، من حركة الحيوانات المتسابقة مثله، توقظه، فيمضي محموراً في ظلام النفق.

إنه يصغي بذاكرته الى الإشراقة الحية؛ بذاكرته المعتمدة التي يضيئها ماضٍ ممتدّ الى الأقصى الغامض، وها هي تمتلئ بالخليط اللوني، المنبثق من ذاته، بطفرة تلقائية، كأنها إرادة كامنة، خارج أية ضرورة أو سبب، تفجّرت بتركيز خارق منها على أن تكون ذا ذات، فكانت؛ بل عدم ألقي بنفسه الى الملهاة، ساخراً من سلطانه الصارم المديد، خارجاً على قانون صمته وثقله. الخليط اللوني يدور على نفسه كزوبعة صغيرة، وإذا يصير مدوراً كقرص، يهبّ حتى يستقر على الأرض الرطبة. وشيئاً فشيئاً يتجمّد مثل خثارة اللبن. المتعرجات اللونية الصافية تأخذ هيئة نقوش صلبة، وما تبقى من أمزجة رمادية، أو خضراء مسوّدة، يصير الى معدنيتين.

يفتح «الحيوان» دَهْشُهُ على مصراعيه: «هذا درع!!».

درع معدني أكمل ما يكون، مزخرف في فوضى تقارب الانقنان الصارم. ولورفعته يدّ عن الأرض قليلاً لبانٍ في تجويفه مقبضان، مما يجعلهما المحارب في ذراعه فيُحكّم الإمساك به.

درعٌ إذاً. أنجزت الأشراقة درعاً!! «وَيْحِي» يهمس «الحيوان»، «أهذا بدء المشهد؟».

المغيب يستكمل جمع الشارد من ألوانه كما يجمع الراعي غنمه الشارد، ثم يوصد الباب خلفه، في الجهة الغربية من قرية الهلالية. وابن «عفدي» يرجع من المسالك ذاتها التي جاء منها، مروراً بدغل الصفصاف، وانتهاءً

ببساتين الحليين. البندقية العجمية مُلقمة. حزام طلاقات على وسطه، وآخر على الكتف. ما من رهبة تسوقه الآن الى الأزقة المظلمة، من جهة الشمال، بل استسلام عذب لسحر المأساة. وهو يحاذر، في عبوره، أن يرى شبح ما شكل البندقية، لذلك يرخي فوّهتها إلى الارض، في موازاة جسده الخفيف. ساحة بيت «بافي جواني» مكتظة بالنادبين الباكين والصامتين. زوجه جالسة لصق حائط، مشعّة الشعر، واجمة، يحف بها أولادها الصغار كقطط مبتلة. بعضهم يلتصق بها، وبعضهم يحوم ناظراً إليها كمن ينتظر لعبة مرحة. النساء الواقفات حلقة من حولها يتأوهن، ويعتصرن أحداقهن أسفاً. وقد تبادر إحداهن فتلطم صدرها مرّة أو مرتين، بانتظام، هامسة: «وا. . بافي جواني».

كان واضحاً أن الباكين استنفدوا بكاءهم، فباتت التأوهات الجافّة، واللطمات الخفيفة، بين حين وآخر على الحدود والصدور، هي كل ما يمكن تقديمه من مظاهر الأسى لزوج القتل. أما الرجال، الذين تجمهروا مقرفصين، على مبعدة من النساء، فكان أساهم صارماً ووقوراً. إخوة «بافي جواني»، وأعمامه، وأولاد أعمامه، مطرقون. «سّطامو لاوي حجي عباس» ينظر اليهم فرداً فرداً بتحريض واضح. القتل أحد رجاله، لكن لا صلة قريبي بينهما، لذلك هو مُعفي، بالطبع، من دفع أية ضريبة للنزاع الذي سيفجر. أعليه أن يطلق قهقهة ما، وهو يرى ببصيرته الخبيثة، ما سيجر التناحر عليه من مجد؟. لا. سيكتّم القهقهة، والوقت سيكفّل بإزاحة عائلة «عفدي ساري» من طريقة الى الأبد، بأيدي لن يدفع لها قرشاً، ودم لا شأن له به.

«كيف يتجاسر ابن عفدي؟» قالها «سّطامو» دون أن يرفع نظره عن كرشه المندلق بين فخذه القصيرتين. بعض الرجال وافقه بهزّ من الرؤوس، وآخرون لم يخفّ عليهم التحريض البين في سؤاله، فألقوا عليه نظرة تزنه بلحمه، وشحمه، وعقله الباهت كضوء القنديل الذي بات يضيء الساحة. جثة القتل في الداخل المعتم للبيت، ملفوفة بكفن أبيض ذي بُقع تميل الى البرتقالي، وهي ما تبقى من سائل ينزف الجسد حين يستنفد الدم. لن يرى أحد تلك البُقع، بالطبع، في ذلك الظلام، لكن للجثة رائحة تشي بما أصابها، حتى لو كانت طازجة بنت دقيقتها. تلك مسألة لا تخطئها أنف من يرى جثة عادية أوّل مرّة، فكيف بهذه، وهي تحمل ستة ثقوب، ولها رهبة القتل الجاثم كديك الحبش على بيض لن يفقس غير القتل؟.

الجثة في الداخل، نضرة بصمتها الذي يعقب الغسل والصلاة، وستكمل تلك النضارة حين تنبت اول عشبة فوق التراب الطري الذي سيعطيها. لكن الواضح ان لا احد في عجلة من امر التراب. قد ينتظرون الى الغد، وقد يدفنونها الليلة، وهم يحملون مصابيحهم الصامته الى مقبرة الهلالية. من سيتكهن بهذا او بذاك؟ رؤوس الأقرباء مشغلة بالغضب لا بالجثة، ورؤوس المعزين الجيران مشغلة بالعودة الى منازلهم، لتناول العشاء، والحديث عن المسألة صراحة، دون رقيب أو مجاملة.

ابن «عقدي» يحاذي سور بيت «بافي جواني». يسند ظهره الى الحائط، ويستطلع الزقاق من أوله المعتم الى آخره المعتم. انه يسمع، واضحاً، همس الرجال في الساحة، وتأوهات النساء المكتومة، وكذلك ركض الاطفال اللاهين وزجر الكبار لهم. باب السور مفتوح كالرّهبة، لكن ذلك لا يفي بالأمر. عليه اختيار الزاوية التي تصل ركن السور بالحائط الخارجي، حيث ثمت فسحة مرتبة يمكن حصر الساحة منها، والاحتفاء بالجدار، أيضاً، إذا لزم الأمر. يرجع الشاب مبتعداً عن البوابة، وإذ يدرك ذلك الركن يعلوه في خفة لضالة علوه، ثم يتفرّس في الاشكال بتمهل، وقد وضع البندقية بين ساقيه المنحيتين فيما يشبه القرفصاء.

بيت «عقدي ساري»، الذي يقع في بداية الزقاق ذاته، يشهد حشداً خفيفاً بدوره، دون ضجة. بوابته موصدة، وفي الداخل أولاده، وبعض أبناء إخوته، ممن حضروا تحسباً. بنادق مُسندة الى الجدار من الداخل، ملقمة كما ينبغي. لفافات صامته تومض في خجل. لم يشعل احد سراجاً، كأنها سيخفف الظلام، الذي يجنّب قسماً الوجوه، بعضاً من ثقل الكابوس. لقد اختار «عقدي» هذا النقر على مصير عائلة حين دفع بالمسدس الى ابنه «مجيدو»، لكن الحياء من الموتى يدفعه الى الحياء من المس بأحزان أحيائهم. كان عليه ان يبدو اكثر فخراً وقد أنجزت المهمة. كان عليه أن يضيء مصباحين بدلاً من مصباح واحد، وان ترتفع قهقهته القوية كمن يبلغ أمراً الى الحارة كلها، وفي ذلك ما فيه من إنذار القوي باستعداده للمضي أبعد مما جرى: إنها لعبة الجسارة، والثمن محسوب سلفاً. بيد أن «عقدي»، الذي فقد الكثير من سطوته، ارتأى منحى هادئاً، بالرغم من الحاح أولاده، وأولاد إخوته، على إضاءة المصباح، والسلوك مسلك غير العايب، وليكن ما يكون.

اقتربت زوج «عقدي» سائلة ذلك اللفيف ان كانوا جائعين، فهمّموا:

«لا». ألفافات المشتعلة، والترقب، يكفیان. لا كلام، والأذان تترصد
 المهمة البعيدة الصادرة عن بيت «بائي جواني». وعلى حين بغتة نهض الجميع
 متحفزين. بل همّت الأم وابنتها أن تركضا الى الداخل لجلب البنادق، لكن
 ما جمّدهم على حالهم تلك أن الأصوات ظلت بعيدة، وكذلك الصخب
 العارم الذي يستشعره الانسان في حركة جمع مجفل داهمه الدهول والرعب.
 والكلمة الوحيدة التي صدرت من ذلك الظلام هو ما همس به «عفدي»: «ماذا
 جرى؟».

طلقات بدّدت انتظار الزقاق. طلقات عَجولة تسبق في سرعتها ما
 تحتاجها يد الى التلقيم والإطلاق.

من فوق الركن المرتع للسور كان ابن «عفدي» يختار ضحاياہ الجالسين
 حول السراج. إخوة «بائي جواني» الاربعة تهاووا. كان حين يسقط احدهم
 يتسمر الآخرون وقد جمّدهم التخبط والحشجة. لم يبارحوا مكانهم أبعد
 من متر. أما بقية الحاضرين فتناثروا كبطيخة حمراء تسقط من أعلى على أرض
 صلبة. أولاد أعمام القتل هرعوا الى داخل الغرف يحتمون، والجيران الى
 البوابة.

ابن «عفدي» يميزهم في الظلام، وقد وضع طلقات اضافية بين اسنانه
 ليسهل عليه تلقيم البندقية، إذ أن سحب الطلقة من الحزام الجلدي يأخذ
 وقتاً. عينه تتحوّل الى مرصد للموت، وفي إمكانه أن يرى على رأس الضحية
 المُختارة هالة من الحباب المضيئة تحدد الهدف بقدرة قادر. وهكذا لم يخطيء
 اختيار احد اولاد الاعمام ايضاً، إذ حاول الانسلال مع الجيران الهاريين عبر
 البوابة: سقط في صخب فداسته الأقدام.

حين خلت الساحة، ولم يبق إلا عويل نساء، وبكاء أطفال يتناهى من
 الغرف الموصدة باختناق، أتكا ابن «عفدي» على الحائط الذي يعلو السور،
 ملتقطاً أنفاسه العابقة برائحة البارود وسخونة السبطانة. لقد خطط للدخول
 في هذه الحمى من غير أن يفكر بالخروج قط، والبقاء حيث هو اختياراً أخيراً:
 النهاية ستستكمل ذاتها بشكل أو بآخر، والنهاية تخرج على كل حال.

دقائق ثقيلة تضرب بمطرقتها أرض الساحة. أبواب الغرف تُفتح في
 وجَل لتطلّ منها أنصاف رؤوس تستطلع الهول الحائم فوق خمس جثث.
 العويل يتصاعد تديجاً، وكان قد احتبس بفعل الرعب. رجال يلكزون الرجال

ليتجاسروا على الخروج، وفي اعتقادهم ان من فعل الأمر لن يظلّ قابلاً في مكانه.

خرج المتجاسر الاول ف تبعه الثاني. اطمأنّ الاربعة الآخرون فاندفعوا بدورهم. كانوا يتلفتون كالقردة، ناقلين أبصارهم بين السور و سطح البيت. النساء تقدّمن أيضاً، أيديهنّ الى الاعلى في ضراعة يائسة، وقد تعلّق الاطفال بأذيال أثوابهنّ الطويلة. وإذ اكتملت حلقة المذعورين تحت ضوء القنديل الذي كان يضيء، في مامضى، مجلس الرجال، دوّت طلقات أخرى.

خانت الركب حاملها، لذلك تلقّفت بندقية ابن «عقدي» رجلين آخرين، بعد سقوط المرأة التي سدّت مرماه في اول طلقة. زحف الهاربون على بطونهم زحفاً، وقد انطفأ السراج من سقوطهم عليه. سراج آخر، بعيد قليلاً، في الجهة التي كانت النساء يجتمعن فيها، من قبل، أضفى على الزاحفين شكلاً مضحكاً. وهنا اخطأهم القناص بطلقتين، لكنها كانتا كافيتين لرجّ أعماق أقرباء «بافي جواني» مدى ثلاثين سنة.

تراجع شبح ابن «عقدي» الى الورا ثانية، مغمض العينين، كأنها يحاول ان يستوعب المشهد من الرنين الذي يملأ أذنيه. صدغاه ينبضان مع كل ضربة من ضربات قلبه، وومضات خاطفة من ضوء باهر يشردّ الذاكرة فلا تقع إلا على الفراغ الأعمى. الجدار يتمايل. لا، جسده هو الذي يتمايل، وشخص ما، من أسفل، يشدّه من طرف قفطانه. سدّد البندقية وقد انخلعت رثاه من المفاجأة، فبادره الشخص، من الظلام: «أنا عمك جهورياً مجيدو»، وقبل أن يستدرك الشاب المباغت معنى الكلام، جرّه عمه بقوة، هامساً: «إنزل، والحق بي».

طوال يومين لم يخرج أي فرد من أقرباء «بافي جواني» وعائلته. ظلّت أبواب الغرف موصدة من الداخل برغم القرع العنيف للشرطة عليها، طالبين منهم الخروج، مؤكدين أنّ ما من شبح يترصّد لهم الآن، وهم في أمان حقيقي. ولم يرجع اليهم رشدهم إلا بعد اخلعت الأبواب بركائزها، وبانت لأعينهم ثياب عسكرية توحى بهيبة مفقودة.

«درع؟» يردّد «الحيوان» السابح في الزلال الدبق. «درع. درع. فكاها. ذاكرتي ملأى بالفكاهات. أنا فكاها. هذا السباق كلّ فكاها. لا بد أن فقهه ما تنتظرن، حين اصل. وهذه الجثث كلها. هذه الجثث التي ارتطم بها في ظلام النفق هي دغدغة الموت على خاصرتي. لو ان لي فماً لالتفت

اليهم صارخاً: إنها مهزلة. وماذا لو كانت لهم افواه، هم، ايضاً؟ انهم ليسو أقل معرفة مني. كان علي أن أشعر بذلك منذ البداية، لكن لا فم لأحد ليخبر الآخر. فكاهة. . فكاهة» وتوقف ليلتقط نفساً فتذكر أن لا رثة له.

كان أشدّ يأساً من ان يتابع السباق. حاول التماس جسد ما في ذلك الظلام، فلم يقع على شيء. دار بذيله يمنة ويسرة من غير أن يصطدم بجثة حتى بدا مُبَاغِتاً من صمت الزلال الدبق، وفراغ الممر أمامه، ومن حوله. لقد جرت العادة، كل لحظة، أن يزاحمه أحدٌ، أو يزاحم أحداً؛ أن يلامس ذيله عابراً ما، أو يلامس جسده ذيلٌ عابر ما؛ أن يجاوز البعض وان يجاوزه البعض، حتى بدا له وكأن السباق انتهى. «لا» قالها لنفسه، «ليس هكذا تنتهي المهازل عادة»، ثم تفكّر قليلاً قبيل أن يهمس، كمن أدرك سرّاً غير مُقنع: «أتراهم تبصّروا، مثلي، في أمر الدرع؟ أتراهم قهقهوا حتى انفجرت أحشاؤهم سخرية ممّا وجدوه بعد كل ذلك العناء؟».

كان خالياً من أية رغبة إثر تساؤلاته. حمى السباق لم تعدّ حمى، وما من شيء يعزّي الذاكرة، التي استنفرت ماضيها الغامض لتصطدم بدرع. تكوّم «الحيوان» على شكل حلقة تصل الرأس بالذيل، كأنها يودّ أن يغدو نقطة فحسب، لينتقم من الشكل الذي حاول، جاهداً، ملامسة جذرٍ من جذور حرّيته، هناك، في الأبعد القابض على مأساة الأشكال.

«عفدي ساري» يرجع بعائلته، ثانية، من التحقيقات التي استمرت يومين، في المخفر ذاته. وكان الفرق الوحيد، هذه المرة، في كل ما جرى، أن الرقيب العسكري بدا اكثر احتداداً بسترته المفككة الأزرار.

لفيف من الرجال والنساء كانوا ينتظرون العائلة في ساحة دارهم. وأوّل مرّحّب بعودتهم كان الملاّ «بيناف»، زوج ابنته «برينا». وقد بدا «عفدي» اكثر انشراحاً، كأنها استشعر ان المأساة، بهولها، استنفدت ذاتها تماماً، ثم مسّت العدوى الخفية الآخرين فدار بينهم كلام فكّة لا وجوم فيه.

كانت ضربة ابن «عفدي» ضربة معلّم، إذ ما من أحد يصل بقراءة الى «باقي جواني» فكّر، أو همّ بالتفكير في ردّها. فالألم الذي استفحل كان كفيلاً بشلّ جيل برمته، حتى ان عائلة القتل انتقلت من بيتها الذي يقع في آخر الزقاق الى جهة مجهولة، خوفاً من أن يستفزّ وجودها غضب البيت الذي يقع في الجهة المعاكسة من الزقاق ذاته. ولقد أحسّ «عفدي ساري» بهبوب نسمة رخيّة من الحظ، بعد تلك المأساة، قد تفتح أمامه، من جديد، ذلك الباب

الذي أَعْلَقَ إثر دسائس لم يعرف مصدرها. فالأقوياء، الذين تجاهلوه بعد محنته، عادون يمدّون جسورهم اليه في خجل، بل بات بعضهم يسأله المشورة في هذه الصفقة، أو في تلك، ملمّحين الى رغبتهم في اشراكه معهم كسيّد. غير أنه كان يخفي رغبته في معاودة المهنة، خوفاً من ضربة جديدة.

إزاء ذلك الانفراج المُباغت قرّر «عقدي» البحث جدّياً عن مصدر الواقعة التي أخذت بالكثير من ماله وهيبته، فإن ظفر بالأمر فإنما ستكون عودته عودة محمودة العاقبة. وتحريّ المسألة، على كل حال، سيغدو سهلاً بدوره، فللأقوياء عيون بين الأقوياء.

«سَظَامو لاوي حَجّبي عباس» فكر بنقل بيته من تلك المدينة الى «تَرْسُبي»، وهي قرية كبيرة تقع الى الشمال الشرقي، على مبعدة ما يقل عن مائتي كلم، حيث الامتدادات الشرقية لجبال طوروس، والقاطع الحدودي الذي ترسمه مياه دجلة مع العراق. فكر «سَظَامو» ليل نهار، ليبعد بما حصل عليه من مجد صغير قبل أن تُودي به طلبة مباغته.

كان يفكر وهو يشمّ الدُويّ من ثيابه وجلده. لقد سقط قتيلان ببندقية ابن «عقدي» فوق صدره، قبل ان يستطيع زحزحة جسمه الثقيل عن الأرض، ليهرب ككرة متدحرجة من بوّابة «بافي جواني». وهو لا ينسى ما رأى، أو توهم انه رأى، في ذلك الضوء الخافت للسراج: يد إحدى الضحيتين تشبّث بحطته فانزلقت الحطة مع الجسد المتهاوي. فم الضحية الاخرى همهم بكلام قرب وجهه فانبثق منه الدم. وقد انتظر «سَظَامو» شهراً لتهدأ الأمور، وحتى لا يغدو انتقاله موضع شبهة، ثم انتقل فعلاً، ليلحق به من يكمل المشهد الذي لم تكمله ذكراته هو، بعد ستة اشهر من ذلك التاريخ.

كان «عقدي ساري» ينظر الى احوال المملّ «بيناف»، زوج ابنته «برينا»، بإشفاق، فلو تمكّن من اشراكه بقليل، او بكثير، في أعماله القادمة، لأمكن للأخير أن ينهض قليلاً من مكيدة القمح الذي عاكسه، لكن المملّ صعب ونظيف، وهذه عقبات تقتل المجد عادة. وقد ارتأى ألا يخوض الامر معه مباشرة، بل ان يكلف ابنته ذاتها بجسّ نبض هذا الرجل الذي لا يبتسم إلاّ لِمأماً. وإذ حاولت المرأة إقناع الرجل ردّها في غضب: «مضاربات يستخفّ التجار فيها بأرواح من يرسلونهم عبر الحدود. مشتريات بقروش تردّ من المبالغ ما لا يحصيها إلا الله. يقتل بعضهم البعض ليستأثر بالمهنة. وهم يتعدّون ذلك يا امرأة. يتعدّون الحدود. ينتقلون من التبغ الى الأفيون. ما

هو الأفيون؟ سمعنا الكثير عن أهواله، جازنا «محمد حُسُو» يقضي عشرين عاماً في السجن على نقله الأفيون في الجوارب المبطنة الى العاصمة. أتريدون لي مصيراً كهذا؟ ليس حلالاً هذا، ولن أطعم أولادي طعاماً من نار. . . وإذ أخبرت الابنة أباهما صرف الرجل النظر مؤقتاً عن إقناع صهره.

لم يكن خافياً على أحد أن «مجيدو عقدي ساري» قد عبر الحدود الى تركيا، وأنه صار واسطة أبيه هناك، من «نصيين» الى «ديار بكر»، المدينتين التركيتين. فهو يواكب البغال المحملة بالتبغ الذهبي حتى الأسلاك، ليسلمها لمن يتولى الجانب الآخر، واسمه اسم شبح يرفرف فوق الرؤوس، من «أضنة» الى «درباسية». هذه منطقة نفوذ التبغ، اما «ترنسي» وما يجاورها من القرى فنصيبها خيرات العراق من التمر، والمناديل الموصلة، والحناء.

لقد وجد ابن «عقدي» لفيماً ممن كانوا عملاء أبيه، في ما مضى، في «ديار بكر»، حين عبر الحدود، بعد ليلة المجزرة، مع عمه «جَهْوَر»، فأحسنوا وفادته، بتوصية من «جَهْوَر» ذاته، الذي لن يتوانى عن أكل زوجته إذا جاع. وقد كان رقيب أخيه في الصفقات، قبل دسائس «سَظَامُو». فما من وكيل يستطيع اخفاء كيس واحد من التبغ بدعوى القائه في النهر، أو تركه خلفه، إثر مdahمات حرس الحدود بعض الاحيان، سواء أكان صادقاً أم كاذباً، وسيأتي بالكيس، أو بثمنه، من ماله أو من مال الشيطان. اكثر من وكيل اختفى بعد تلاعبات من هذا النوع، وكان في استطاعة المهريين أن يروا جثثهم أشلاء بين الألغام التي يعرفون مواقعها. فممرات العبور السرية ملأى بالألغام عادة. الجيش التركي يتولى ذلك، والمهريون يتحدثونهم في تلك الممرات. وهم يسمون اللغم باسم «الابريق». ألغام بدائية ضد الأفراد، لها جسم متطاوّل وطريقتها أن توضع في حُفر متقاربة ثم تُغطى بالتراب، فإن وطأها حيوان، أو إنسان، انفصل الطارق عن أمانه، وإذا ما ارتفع الثقل عنها اشتعل الصاعق وتفجّر الجسم المعدني. المهريون يعرفون ذلك. ولما لم يكونوا يملكون خبراء في تعطيلها، فقد عمدوا الى وضع ألواح ثقيلة من الخشب فوقها. ولأن الألواح لن تتحرك بالطبع، فالقتيل القاتل لن يشتعل إذاً.

يأتون ويمضون و «الابريق» على حالها. و «جَهْوَر»، الذي يعرف ما يعرفه الآخرون، كان ينقل الوكيل الغشاش مقيّد اليدين، مكّم الفم، جراً بحصانه، ثم يمدّده فوق لغم ويتبعد، بعد ربط الجسم بحبل طويل. بعد ذلك يسحب الحبل فينزاح الثقل عن اللغم فينفجر.

«جَهْور» توصيته التي لا تُردُّ. وبعد عودة الإشراقة الى اسم «عقدي» بات الابن موضع احترام جَمٍّ، إضافة الى توصية عمِّه.

ثمة نول خفيّ يغزل الامور كُلِّها بإتقان. «سَطَّامو» صرخ «عقدي»، مضيفاً بلهجة من أعياء صبره: «سَطَّامو آه». لقد أدرك رأس الحربة في مأساته من ثقات لا يكذبون. هذيانه يعلو، و «جهور» يخفّف عنه: «الليلة سينتهي سَطَّامو يا أخي، فاهدأ». و «عقدي» لا يهدأ: «سَطَّامو!! ماذا فعلت بسَطَّامو؟ أنا مَنْ زَوَّج سَطَّامو، وَمَنْ بَنِي بيت سَطَّامو»، فردّ أخوه: «لا يا عقدي. لا علاقة لنا بسَطَّامو. كان ندلاً بنته النذالة»، فهمهم «عقدي»: «ذلك أفضل. لماذا ظننتُ أنني كنت وراء مجده؟»، فأجابه أخوه: «لأنه كان يتردّد عليك، لا أكثر ولا أقل. من يمنع طارقاً يطرق بابه؟»، ألقي كلمته تلك للتخفيف من احتداد أخيه «عقدي».

قال «عقدي» بنوع من الهذيان: «أبلغه يا جهور أنه مطرود». جحظت عينا «جهور» قبل أن يسأله: «مطرود؟ إنه لا يشتغل عندك»، فتمتم «عقدي» دَهْشاً: «لا يشتغل عندنا؟».

إن «عقدي» يسرع بمخيّلته أكثر من الواقع، كأنها يستعيد مجده الذي كان دفعة واحدة. وفي ظل ذلك المجد لا بدّ لـ «سَطَّامو» أن يكون وكيلاً من وكلائه. وقد أفاق على كلمة «لا يشتغل عندنا»، فصرخ: «عند مَنْ يشتغل إذأ؟»، فأجابه أخوه: «مهنته على حسابه». «على حسابه!! على حسابه!!» ردّد «عقدي»، مضيفاً وهو يصرّ على أسنانه: «حسابه عندي»، فبادره أخوه: «لا. حسابه عندي. اهدأ يا عقدي».

كان هذا الحوار يشتعل كلفافة «سَطَّامو» المتمدّد على مسطبة واطئة لصق بيته. مضت ستة أشهر التقط فيها الرجل أنفاسه، وكاد أن ينسى أمر «عقدي». له بضعة رجال يحملون أشياء خفيفة، لكنها تفي بحاجات وجاهته المتوسطة. وهو ينتظر الآن استلامهم لمجموعة من بنادق الصيد، والأحزمة النسائية ذات الشناشيل. سيعبرون بها جسر الرومان، القريب من دجلة، بعد أن يتسلّموها من وسطاء يعرفون ثغرات النهر كراحات ايديهم. لكنه يحسّ بكرب ما، غامض، كأنها للحوار الذي يجري بين «عقدي» وأخيه، على مبعدة ما يقارب مائتي كلم، أيدٍ خفيفة تتقرّى جسد «سَطَّامو» ضاغطة بأناملها على أجزاء ستغدو ثقباً في ما بعد.

وصل «جهور» الى «تربسي»، القرية - الناحية. ويطلقون اسم

«الناحية» على تجمعات اكبر من القرى، واصغر من المدن. فيها حامية من العسكر عادة، بقيادة ملازم، لا تتعدى مهمتها اكل الدجاج. لن يعرف احد، مدى الف سنة، لماذا كان درك الشمال، وعسكره، يحبون الدجاج. لابد ان طباعاً مشتركة تجمع بين الاثنين. دجاج وعسكر. ومن يتوّد الى خفير يتوّد اليه بدجاجة، ومن يتوّد الى ذوي الرتب يُكثر من ذبح الدجاج. والدرك الجوّالة على خيولهم، في القرى، يطلبون، أول ما يطلبون، الدجاج. لورصفوا شارعاً بعرض متر، من دجلة الى اسكندرونة بعظام الدجاج لما نفذ. القمح الذي ينمو في تلك السهول له طعم الدجاج. مياه الآبار لها طعم الدجاج. الرياح تهب ممتزجة بالريش، وأولى قطرات المطر لا تلامس الارض بل تلامس الريش. الوسائد من ريش الدجاج، وكذلك المراوح. الأطفال يلصقون كرات صغيرة من الطين بأطراف الريش ثم يقذفونها كالسهام فتلتصق بالجدران. الغضاريف التي تتوسط الريش تستخدم كمكاحل للنساء، والطويل منها لتنظيف البنادق. اذا وفد ضيف على احد ولم تُذبح له دجاجة، ففي ذلك انتقاص من قدره. تلك مناسبات عادة، لكن اعجاب العسكر، الذين يقضون مأموريّاتهم في الشمال، بالدجاج، بمناسبة وبغير مناسبة، له تصنيف آخر، غيبي، اكثر غموضاً من قراءة آية الكرسي.

كان الوقت مساءً شديد الهشاشة تحت المظلة القمرية، حين عبرت سيارة «البيك آب» أزقة «تربسي». ولم يكن الاهتداء الى بيت «سّطامو» عسيراً، في هذه الناحية التي يعرف حتى الاطفال من دخلها، ومن غادرها. توقفت السيارة مثيرة سحابة من الغبار، ثم ترجّل منها «جهور» واثنان آخران. طرّقوا بوابة السور - ومعظم بيوت الشمال ذات ساحات مسوّرة - ففتحتهم لهم فتاة ذات خفر، ربما كانت ابنة احد الجيران، لأن «جهور» يعرف اولاد «سّطامو». التقى الرجل التحية متممة، سائلاً عن صاحب البيت، فأومأت: «نعم، انه هنا». نظر اليها وهو يدلف بالرجلين داخلاً، كأنها يتفحص وجه الشاهد الاول، الذي سيدلي باوصافه الى الشرطة، وكان وجهاً خجولاً لا جمال فيه، لكن في العينين انكساراً غامضاً لا يمكن للنّاظر عبوره دون أن يهّم بسؤالها عن الامر. و «جهور» لن يسألها بالطبع عن انكسارها هذا، بل عن الغرفة التي سيكون «سّطامو» فيها. ففي الساحة اربعة ابواب تفضي الى اربع غرف. وإذ دلته الفتاة بإشارة من يدها، خطا خطوات واثقة في اتجاه هدفه. دفع «جهور» الباب الذي لم يكن موصداً، فارتطمت دقته بالحائط.

نهض خمسة رجال واقفين على أقدامهم من المباغته، ولم يُبَدِّ أحد منهم حركة لرد القضاء المستدير، الصامت، في فوهة البنادق التي توجهت الى رؤوسهم. «لماذا يا سَطَّامو؟» هُسم «جهور»، فرنّ الهمس في الآذان، بل جاوز الغرف الى الساحة فصُرت عتلة البئر الرطبة بفعل الحبل الرطب. «ماذا تريدون؟» ردّ «سَطَّامو» مرتعشاً. «أتريدني ان اجمع حولك اولادك ليروا رأسك الذي سيتهشم؟» قال «جهور»، فتمتم «سَطَّامو» في توسّل: «كان اخوك ظالماً يا جهور، ولم يترك لنا إلّا الفُتات. ظلمنا فظلمناه. تعادلنا إذاً»، ثم أطرق خجلاً من هيئته المُهرَّقة أمام ضيوفه، مكماً: «نفيت نفسي عنكم، ألا يكفيكم هذا؟».

دفع «جهور» بفوهة البندقية في كرش «سَطَّامو» حيث تأوّه، صارخاً: «سأحفظ لك كرامتك أمام هؤلاء. تعال معي»، ثم التفت الى ضيوف «سَطَّامو» قائلاً: «لم تروا شيئاً. قولوا للشرطة إننا من لا مكان. اولادكم ينتظرون أن تأتوهم برزقهم. لا تحرموهم بالله عليكم»، ودفع «سَطَّامو» أمامه، حتي إذا وصل إلى البئر بادره، «حفظت كرامتك. لن يروا فمك القبيح مفتوحاً، وعينيك جاحظتين»، ثم أوما برأسه فاخترقت جسد «سَطَّامو» ثلاث رصاصات، فهوى. لَقِم الرجال بنادقهم من جديد، واطلقوا ثلاث طلقات اخرى على أعماق البئر، حيث يتخبّط الماء مذعوراً من الظلام والدم. «الحيوان» السابح في الزلال الدبق لا يرى غير كآبة أعماقه الآن. إنه لا يتقدم، لكن ذيله يتحرك يمنة ويسرة بطريقة آلية من أثر السباق الطويل. يحاول أن يوقف الذيل فلا يجاريه الأمر الذي يصدره الدماغ، عادةً. الذيل مستقلّ عن الجملة العصبية لـ «الحيوان»، واستقلال ذيله يدفعه أماماً من غير أن يتقدم، هو، إرادياً. حمى جديدة تحلّ محلّ حمى السباق: انقلابات الأعضاء.

ليس لـ «الحيوان» على كل حال، اعضاء كثيرة: رأس مستدير متصل بذيل، لا أكثر. ما من خيارات في هذه اللعبة. هاجس الدرع، وصورته، يسيطران على الرأس فيشلائه، والذيل لا ينصاع. على الدرع ان يحسم المسألة إذاً: أن يشلّ الرأس نهائياً ليتوقف الذيل، أو يخلق مبرراً لاندفاع الذيل يفتنع به الرأس. «الدرع. الدرع» يتمتم «الحيوان». وكأنها باغتت الكلمة ذاكرته، فالكلمات المعهودة تباغت الذاكرة بتردادها، فإذا النقوش ترتسم في العراء من جديد، وإذا المعدن، الذي أعطى الدرع شكله الصّلب، ينحلّ.

الى هلام، ثم يتناثر كسقوط قطرة سائل على حجر اللوينات تغزو أنفاقاً مظلمة، والأبخرة الخالية من اللون تترافف كحجارة ملساء على أرض المعابر.

«الحيوان» يتدحرج في الزلال. ريح خفيفة تقذف به، سريعاً، عبر مجراها، ومنافذ ما، كأفواه نهمة، تمدّ ألسنتها لتلتقطه.

ظلام النفق لم يعد ظلاماً، بل مَحْفَةً تحمل «الحيوان» الى سطوته التي تنتظره. شعاعات حامضة تتغلغل في ذاكرته لتعطيها طعماً. كان يرى، من قبل، بأعماقه فحسب، لكن الطعم شيء آخر. الطعم هو الجوهر. الحامض العذب هو الجوهر. كل شيء حامض في النفق. الظلام مضاء بطعم حامض. الزلال حامض. الحمى محض تذوق للحامض. لماذا لم يعرف مذاق تلك الحمى من قبل؟ الحمى هي الحرية.

نشوة عارمة تجعل «الحيوان» مستسلماً لتلك الدحرجة؛ مستسلماً للظلام البهي الذي يرفع اليه أبهة الإمارة، مرتعشاً بكله، كالمقبل على عذوبة لن تنتهي.

لا فم لـ «الحيوان» ليصرخ صرخة المتمدح للكلي، لكنه يتشظى ويلتئم. سهام مريشة بمجرات أعماقه تملأ النفق المتفتح ككرم في يد كريمة. دورع رقيقة تتمايل ساقطة برحاء من شجراتها، والبرهة تلتقط الزمن كله بمنقارها الأليف.

يتوقف «الحيوان» مرتطماً بآخر النفق. كتلة ليئة تلتقطه التقاطاً وتغلق عليه، فتأخذه غيبوبة لا تشبه إلا الترف: لقد وصل «الحيوان» المنوي، الآتي من صلب الملاء «بيناف» الى بويضة «برينا»، أخيراً، والمضغة التي التأمّت ستسج، بآلاتها الحمراء، شخصاً يدعى «بيكاس».

الفصل الثالث

بضعة زراير حطت على السلك ذاته، الممتد فوق ساحة بيت الملا بيناف، باحثة من الأعلى بعيونها، في كسل، عن رزق دفين تحت الثلج النائم ذلك الصباح الذي اعقب ليلة زواج «بيكاس».

الغرف ما تزال غافية في الساحة. الصبي «كرزو»، وحده، كشبح، يحاذي السور وهو ينظر الى الزراير، متثدأً، خوف ان تجفل، ثم ينصب فخين ويخفيهما، عائداً أدراجه بالحذر ذاته الذي جاء فيه. يفتح الباب ويدخل. وبعد برهة يُزاح جزءٌ من ستارة النافذة لتبدو عيناه المتلصصتان على حركة الطرائد السوداء على السلك العالي.

يختفي وجه الصبي ليلوح وجه الملا من وراء الستارة بدوره، ناظراً لا الى الطرائد كإبنه، بل إلى غرفة «بيكاس» وعروسه «سينم». دخان خفيف يتماوج امام فوهة الماسورة الصفيفية للمدفأة. يتسم الملا. ثمت دليل على ان الغرفة يقظى من الداخل. أما ان تكون «سينم» قد نسيت اغلاق خزان الوقود الكروي الصغير، الذي يزود الموقد بما يُبقي النار مشتعلة، فهذا ما لم يخطر ببال الاب.

يختفي الملا، فيرجع الصبي «كرزو» الى مرصده. يحط زرزور واحد، هابطاً من السلك، على الثلج ككشاف. ينط قليلاً، مقترباً من الفخين، ثم يقف. تلحق به الزراير الاخرى، بالهدوء ذاته، ثم تقف. قطعنا خبز صفراوان تسرعان مدى عيونها المستديرة العجلى. يرتفع لهاث الصبي حتى يكاد البخار الشفيف ان يغطي الزجاج، فيمسحه براحته. ثم.. طرقات

عالية على بوابة السور. تجفل الزرازير، فتفرد اجنحتها راجعة الى مكانها العالي. يرتفع صراخ الصبي شامخاً من الدخّل، وما يليث ان يخرج مهرولاً ليفتح للطارق في غضب واضح. تدخل «خاتي» اخت الملاً، فيبادرها كرزو بأشارات عجولة غير متناسقة من يديه، هاتفا: «طارت طارت. افزعيتها»، فارتفع صوت خاتي ايضاً: «لماذا انت محد؟ ما الذي طار؟». «الزرازير. كادت تسقط في الفخ لولا..» همهم الصبي، فردت عمته: «لتذهب زرازيرك الى جهنم. منذ متى انت يقظان يا جرو؟»، «وانت يا بقرة ألا تنامين؟» رد كرزو. عندئذ تناهي صوت الملاً من الداخل: «ما الذي يجري يا ديكة المذبذبة؟»، واضعاً حدّاً لصراخ الصبي والمرأة، الذي كاد ان يتحول شجاراً بين الاثنين، فتوعد الصبي عمته بصوت مختنق، ثم ركض الى فخيه فركلهما ركلة مزجت الطين بالثلج. بعد ذلك أسند ظهره الى السور وهو يكاد ينشج من غضبه.

فتحت خاتي الباب دون استئذان ودخلت. كانت العائلة، كعادتها في صباحات الشتاء، محيطة بصحفة ملاءى بالعدس المجروش الساخن. أفسحت اخت الملاً مكاناً لها بين ولدين، ثم رشفت بملعقة احدهما، من الصّحفة، رشفة عالية. وإذ طلب الولد ملعقته اشارت عمته عليه بجلب اخرى، فنهض ممتعضاً. «كيف حال العريس؟» سألت دون ان تخصّ احداً بسؤالها، وهي ترفع الملعقة وتخفضها بحركة سريعة. ردت زوج الملاً بسؤال على سؤال خاتي، ناظرة الى الأب: «أليس عليهما ان يتناولوا افطاراً؟». همهم الأب من خلف شاربيه اللذين تبلّلت حوافهما: «فلنمهلها قليلاً يا امرأة». ثم رفع عينيه الى احد اولاده: «انظر من النافذة يا زيوان، لعلهما استيقظا»، فنهض الولد الى النافذة، ثم استغرق هناك. وإذ تأخر في الرد تمتم الأب: «ها؟ زيوان»، كأنها يلفت انتباه ابنه الى أنه ينتظر علامة منه، فقهقه الولد، هاتفاً: «كرزو ينثر رماد التّور على ثلج الباحة كله»، فاحتد الاب: «قلنا ان ننظر الى غرفة بيكاس، لا إلى كرزو»، فرد زيوان وقد اختفى مرحة: «لا ارى أحداً».

اكملت العائلة تناول إفطارها في صمت. رُفعت الصّحفة الفارغة وجيء بإبريق كبير أسود ليحط على فوهة الموقد. إنها ساعة الشاي، التي يتماوج فيها دخان التبغ المتسرب من الأنوف فوق السائل الاسود في الأكواب. علبة تبغ الملاً الفضية تنزلت من يده إلى يد اخته فزوجه. لفافات ثخينة تستجمع

بدخانها فضول الجالسين عما يفعل بيكاس وسينم . وبغته ، بنفاد صبر ، يقول الأب لاخته : « بالله قومي وانظري إن كانا على ما يرام » ، فتقوم خاتي على عجل كمن ينتظر امرأ كهذا : « سأرى . سأرى » ، وهي تغمض إحدى عينيها حتى تقيها من دخان اللفافة التي لم تفارق شفتيها المضمومتين في صرامة . وإذا تصير إلى الساحة تلتقي عيناها بعيني كرزو ، الذي بدا وقد فرغ من مهمته الغاضبة : الرماد الاسود في كل مكان . . حتى شجيرة الزيتون المتوحدة لم تسلم من نثار الرماد على أوراقها . انتقام أسود من الثلج المستسلم .

فكرت خاتي بالحكمة الشريفة في هذا الفعل فلم تقع على شيء . عبث صبي غاضب لا أكثر . مطت شفتيها ومضت صوب باب غرفة بيكاس . ثلج رمادي يعلق بحواف حذائها ، وآثار خطاها تبدو مضحكة من ورائها . قرعت الباب قرعاً عالياً ثم وضعت يديها تحت إبطيها لتقيها من البرد . بعد خشخشة تناهت من الداخل ، فتحت سينم الباب ، مطلة برأسها العاري ذي الجدبتين النحيلتين : « هأهأ » ، فازدردت خاتي ذلك الرأس الأبله ، منادية عبر الباب : « بيكاس . . أأأست جائعاً؟ » . « هأهأ » ردت البلهاء الواقفة في الباب . اشاحت اخت الملاً بوجهها على اللاتعيين ، منادية بتساؤل : « بيكاس؟ أما تزال نائماً؟ » ، فتناهت الهأهأ اليها من فم سينم ثانية . رفعت خاتي يدها إلى وجه البلهاء دون أن تمسه : « هذه هأهأ الشيطان ، فليأكل الدجاج لسانك . أين بيكاس » ، ودفعته من طريقها إلى الداخل . الغرفة فارغة ، لم يبدُ على خاتي انفعال كبير ، بل تساؤل عادي : « آه . أهو في بيت الخلاء؟ » ، وكأنها استدركت نفسها التي لن تجيبها سينم قط : « فلا أنتظره . . اغلقي الباب يا واوي » ، فامتثلت سينم ، واغلقت الباب ، راجعة إلى مجلسها قرب الموقد ، حيث سبقتها اخت الملاً .

كان التباين واضحاً في نظرات كل منهما إلى الأخرى . خاتي تسأل نفسها عما يمكن أن تعطي هذه البلهاء لرجل ، والبلهاء غارقة في فضاء الوجه الجالس قبالها ، لا سؤال عندها عن شيء ، لا دهش ، تسترعيها الحركة فقط ، فتلمس الدغدغة الخفية اعماقها : « هأهأ . بيكاس ديك » . فتحت خاتي فمها كأنها تهم بشتمها ، لكنها احوالت الشتيمة الى سخريه ساذجة : « وماذا أنت يا سينم؟ » فردت البلهاء : « انا . . هأهأ . قالت امي إنني مطاط السروال » . « مطاط السروال؟ » . تمتعت خاتي ، وادفدت : « هذا الاسم يليق بك . اتلبسين سروالاً؟ » قالتها في احتقار . فردت سينم : « نعم . . هأهأ » ، وهمت برفع ثوبها

البرد، استقام متأهباً للفرار. عاين الجهات من حوله كيربوع ليرى منفذاً، ثم تطلع، خلفه، الى السور، فألفاه اكثر علواً من قامته. لم يكن قد فكر في علو السور من قبل قط، وهامو يعاينه الآن، ويعاين المسافة بين فوهة التنور والسطح. حتى شجرة الزيتون مرّت بباله، فكانت اصغر بكثير من ان تخفيه عن بصر الأب الغاضب.

بقي كرزو في مكانه متأهباً لا اكثر، بل مُجمّداً في تأهبه، لكن الأب لم يلتفت إليه، فاحتار الصبي، كان الرجل متوجّهاً ب كله الى باب غرفة بيكاس، حافياً، تنطبع اصابع قدميه في المسافة الرمادية المضحكة. ولما أدرك كرزو انه لم يكن المقصود من فورة الأب، واته شجاعة المتطفل فتبع الملاً بحركات خفيفة حذرة.

دفع الملاً الباب ودخل. نفّض الثلج الرمادي عن قدميه بحركة عصبية قبل ان يطيأ البساط: «ماذا يجري يا خاتي؟» قالها مُزبداً. ثم التفت على انحاء الغرفة فانتاب صوته برود مفاجيء: «اين بيكاس؟».

حاول كرزو ان يتنصّت الى ما يجري، من خلف الباب، فلم يسمع إلا تمتمات خفيفة، يعقبها وجوم يمكن اشتماه كرائحة حساء ساخن. وقد دار في خلده، الذي اختلط فيه نذيرٌ ما بالسخرية، ان المسألة كلها فكاها. ولما همّ، مراراً، ان يتذكر تفاصيل وجه أخيه الغريب «بيكاس»، تأبّت الصورة عليه. ألم يمعن النظر فيه؟ بلى. لكن المشهد يتماوج كأنها في ماء رمى احدهم حجراً فيه. حتى الصوت تلاشت نبرته فبات مبهمًا، في ذاكرته، خليطاً من صوت ابيه وصوته هو. أهكذا كانت نبرة صوت بيكاس حقاً؟. إنه يصغي إلى السكون في الداخل، فتزدحم اعماقه الساكنة كالغرفة برفيف اجنحة الزرازير، وطقطقات الفخاخ المعدنية، لذلك يكادُ يجاوز الباب بفضوله وتنصّته، في محاولة للفصل بين سكون الداخل الصارم واعماقه الصاخبة حتى يسمع شيئاً.

برينا، زوج بيناف وأم طفله الغريب، تستوي جالسة في فراشها. جفناها ثقيلان من نوم الليلة الماضية المتقطع، ومن اسئلتها التي لم تواجهها احداً. وكانت، كلما تفيق في الليل، ترى الملاً منحنياً على دفاتره، ولفافته تحيط وجهه بهالات من دخان عصبي كقدمي طفل تحبطان في الهواء. ولقد بقي على حاله حتى الصباح، والدفاتر تنتقل بين يديه في حركة دائرية. لكنها تظن ان احدها، وهو دفتر بغلاف ازرق اللون، كان المُفضّل لديه. إنها تعرفه

من رجوع الملاً إليه ابدأً، وإذ سألته ذات مرة، من سنوات، عن محتواه، رد أنه يخص أباه حسين، ابن «كُوجري». ولما سألته، ثانية، عن جدوى تنقيبه فيه، رفع رأسه في دَهَش، كأنما عليها ان تفهم. وهي لم تفهم المغزى، حتى الآن، بالطبع، من كل ذلك التنقيب. لكن الدفتر ظل يروح ويحيى، من يده إلى الصندوق الخشبي تحت سريره، ومن الصندوق إلى يده، في غناه وفي فقره سواء بسواء.

لم يخف عليها، بالطبع، أن الدفتر كان خاصاً بالفراخ المزروعة قمحاً وبطيخاً في قرية موسيسانا، حيث التدوين يتم، هناك، بقلم «الكوبيا» الذي يُبَلَّلُ باللسان قبل الكتابة به. حسين كوجري، والد زوجها، امتلك دفترًا، ذلك الوقت، لحصر محاصيله، التي يعيا أكثرهم جدارة في الحفظ عن حصرها. وكانت عائلة برينا تقطن القرية نفسها، قبل زواجها من الملاً، وقبل أن ينتقلوا جميعاً، هم وأقرباؤهم، منها، إثر السنوات التي اعقبت «المُحل الكبير»، حيث استعادت الأرض بعض نضارتها، لكن الاغواءات الخفية للمدينة، المقتصرة على سحر الكهرباء، ومدافئ المازوت، وشراء آلات حصادٍ يتولى الأرمنيون صيانتها، دفعتهم إلى الاتجاه إلى «القامشلي»، أكبر مدن الشمال، والتي تمتلك دور سينما أيضاً.

ولما لم يكن حسين كوجري، والد الملاً، يفقه كثيراً في كتابة الحسابات، فقد استعان بمعلم أرسلته وزارة التربية والتعليم إليهم، لأول مرة في تاريخ القرية. هذا ما تذكره برينا بوضوح. وقد قيل، آنذاك، إن ابن كوجري يدفع بسخاء للمعلم، لقاء انكبابه على دفتر أزرق كبير، يبلغ طوله خطوتين، بعرض خطوة واحدة من خطى رجل طويل. وكان واضحاً أن أبا زوجها قد استهوته فكرة استئجار معلم، وشراء دفتر، أكثر من حساباته نفسها، فيستوضح المعلم، في المضافة عادةً، وعلى مرأى من الرجال المتطفلين، عن محتويات هذه الصفحة أو تلك، كمن يمتحن معرفة صبيٍ قاصر.

لقد ظل المعلم ذاك موفداً من قبل الوزارة إلى القرية سنتين، وهي مدة خدمة الأغرار في مجال التعليم في المناطق النائية من أقاليم البلاد. وإذا نقضت المدة تلك، استقال الرجل من المهنة باغواء من حسين، ابن كوجري، ليستقر في القرية محاسباً، حتى اختفى، بعد ذلك بستين أيضاً.

كانت وزارة التربية والتعليم تستخدم من يتقدم بطلب، بعد انتهاء الدراسة الاعداية، لهذه المهنة. تنفق، بنفسها، على تعليمهم سنتين، مع

دفع مخصصات شهرية لهم، ثم تقتطع المبالغ تلك من اجورهم على مدى سنتين. اي انهم يصبحون، حكماً، اقناناً لدى الحكومة حتى تستوفي ما لها عليهم. وهم أحرار في البقاء في مهنتهم تلك، بعد المدة المعلومة، او المضي إلى أشغال اخرى. واسم «وزارة التربية والتعليم» ظل سائداً فترة طويلة، منذ استقلال سورية وحتى الستينات من التقويم الميلادي، ثم اختفت كلمة «التعليم» إثر اجتهد المجتهدين في ظل الوحدة المصرية السورية، لأنهم ارتأوا ان مهمة البلاد تقوم على التربية فقط، وان كلمة «التعليم» تتضمن بعداً من العبودية والقسر. وقد ضاع «التعليم» فعلاً، في تعاقب الحكومات بعد ذلك، وانحصرت التربية في تلقين الطاعة بأساليب شتى.

على كل حال، استرسل المعلم - ذي ربطة العنق الحمراء خريفاً وشتاء، والمنديل الاحمر البارز من جيب القميص، بشكل مثلث، ربيعاً وصيفاً - في ترتيب عالم حسين، ابن كوجري، عبر سطور أفقية للإشارة الى الأسماء والأمكنة، وسطور عمودية من أرقام مُنْضِدة كَلْبَنَاتٍ في حائط، وبين تلك السطور، وهذه، ثغرات بيضاء يرى منها أبو الملاً بيناف نهر قرية «عاكولة»، وهضبت «معيركا»، وقبر «شمدين» في «موزان»، والحشود التي يهيئوها عباس البدوي على نخوم قرى الاكراد.

كان للمعلم لغة خاصة إضافة إلى لغة الحساب، يستخدمها بطلاقة، راکناً الى احترام الرجال له. ورجال الشمال يحترمون المتعلمين، ذوي البناتيل بخاصة. وكانت كلمة «الجماعة» من الكلمات ذات السحر في الأسماع إذ ينطق بها. «الجماعة».. «الجماعة».. ولم يكن يفهمون الكثير مما يقوله، لكن ذلك، تحديداً، كان سرّ اصغائهم، واقتنائهم به، وتنافسهم ايضاً في مده بالسمن والعسل، والبيض، والدجاج، مرسلينه مع اولادهم الى البيت الذي أسكنه فيه حسين كوجري.

مدى سنتين كان المجلس في بيت أبي الملاً يلتئم كل مساء، والمعلم يتحدث عن الارض، وتوزيعها، فيضحك المالكون من الخفة في ذلك الكلام، ويصغي غيرهم فيؤكدون عليه حتى يحتم نقاش لا يخرج فيه احد عن أدبه. ويتحدث عن النقابات فيصير الكلام غامضاً قليلاً، ثم يصير أشدّ غموضاً حين ينطق بكلمة «بلشفيك»، حتى لقد تصوّروا هؤلاء المدعوين «بلشفيك» كائنات تنبت كالخرشوف.

لقد صادق الرجال على كلامه عن العدل من ألفه الى يائه، حتى الملكية

يكن موجوداً. قومي يا خاتي لتدبر شيئاً لحل هذه المهزلة». وإذ يهّان بالخروج يبتعد كرزو، بخفة، إلى ركنه لصق السور، حيث فخاخه الباردة مطبقة على الهواء البارد.

لقد فاق حقه الصبياني فقد أبيه على البلهاء. «لماذا لم يخنقها بجديلتها اللتين تشبهان ذيل الفأر؟ لماذا لم يقربّ خدها من صاج المدفأة حتى يسمع جذّها، في قبره، نشيش لحمها؟. لماذا لم يلحق بها عارية إلى الثلج، وقد شدّ إلى عنقها، كالبقرة، حبلاً؟ تكلمي. تكلمي»، ولم يتمالك نفسه، فانقض على الباب بكرات من الثلج، صارخاً: «اين بيكاس؟».

سمعت الأم صوت ابنها فردّت عن نفسها الغطاء السميك، زاحفة إلى حيث زوجها المختفي خلف يديه: «اين بيكاس؟» تتمت وقد علا نبضها. ولما لم يردّ الرجل، هزّته من كتفه في خشونة: «اين ابنك؟» فانفض الملاّ واقفاً كسلطان في بلاط فارغ: «مات. هرب. ضاع»، كان يردّد كل كلمة مرتين، على نحو فيه الكثير من الشرح الأخرس. وإذ استعصت الكلمات، برنينها الآتي من سقف الغرفة، على برينا، التفتت صوب خاتي تستنجد بها لفك اللغز، فتمتت المرأة الواقعة: «يبدو أن ابنك قد خرج الليلة الماضية، ولم يعد».

كانت المسألة أكبر من أي شرح حتى لو وقف بيكاس في الباب، فجأة، في ذلك الصباح الأحمق. «نعم» يهمس الملاّ، ويضيف: «صباح أحمق يتلو صباحاً أحمق. سنبذو حقي إذا اسغفلنا الناس بقصتنا». ثم يلتفت إلى أخته: «اقصدي أخي مَهْمَد. فليحضر الآن. سأحصر الحكاية بيننا، فلدي منفذ صغير للخروج من المهزلة كلها». وفي الحال ارتدت خاتي حذاءها البلاستيكي وجاوزت الباب، ثم اغلقت من خلفها مسرعةً قطعت عوارضه الخشبية. بعد ذلك علا صرير بوابة السور، وكذلك صوت خطواتها العجلى في الثلج، كأنها تمضي في كل اتجاه، لا في اتجاه واحد.

كان الملاّ، وأولاده، وزوجه، جالسين حول الموقد حين دخل أخوه مَهْمَد، والد سينم، وقد بوغت الرجل بهذا المشهد الواهن لأناس واهنين، حتى انه لم يسمع رد التحية منهم. الصغار بدوا مذعورين، لا من فهمهم لوطأة المسألة، بل من رؤيتهم لهذا التهذّل الفجائي الصامت على وجهي أبيهم. أما الأبوان فبانّا ممسوخين، لِسْنَيْنِ ككرات عجين يمكن دَحْوُها قبل إصاقها بباطن التنور.

تقدم مهمد، فافسحت العائلة له، فجلس مثلهم. اخرج علبة تبغه فاستوقفه الملاً مناولاً إياه علبته الفضية. وبعدما انتهى الرجل من عقد اللقافة وإشعالها، ألوى رأسه صوب أخيه الملاً: «ما الأمر؟» بادر دون مقدمة. ولم يكن في حاجة إليها، على كل حال، فتنفس الملاً عميقاً، ثم همس: «خاتي. خذي الأولاد الى الغرفة المجاورة»، فتقدمت خاتي، ذات الأرجل والأيدي الخفية الألف، آخذة الأولاد كما تأخذ مكسنة الخرنوب الخشنة بعراً النعاج في طريقها. وإذا اصطفق الباب من خلف الخارجين رفع الملاً وجهه إلى السقف، قائلاً: «أخي. قصدتك البارحة سائلاً يد ابنتك لابني بيكاس، ولم تسألني كثيراً في أمر طلبي الغريب، وأمر حكايتي الغريبة... اليس كذلك؟» فهز أخوه رأسه موافقاً، فأكمل الملاً من غير أن يرفع عينيه عن فضاء السقف: «ولا أريدك ان تسألني الكثير الآن، بل استمع إلي». صمت قليلاً، ثم أحنى رأسه ناظراً إلى النافذة الزجاجية الصغيرة في صفيح الموقد: «اختفى بيكاس. آه. تعبت من شروح لا ترضيني ولا ترضي غيري. تعبت يا أخي. بيكاس اختفى. سنتظره بعض الوقت، فإن لم يظهر...»، والتفت ليرى وجه أخيه فألفاه هادئاً تماماً، محدقاً مثله في اللهب عبر نافذة الموقد الصغيرة.

انتاب الملاً غم من هدوء أخيه: «ألا يصدقني؟» قال في نفسه، «ولماذا يصدقني؟» اجاب. ثم استجمع اعماقه قائلاً: «المسألة... يا أخي...» فقاطعه مهمد: «فلنقل للآخرين ان الوليد قد مات...». «يا إلهي» همس الملاً، ثم امسك بكثف أخيه، وقد استوى جالساً على ركبتيه: «هذا ما فكرت به. مات. نعم مات».

اطرق مهمد قليلاً قبل ان يسأل أخاه: «لن ألح عليك، لكن ما الذي يجري؟»، فأفرغ الملاً رثتيه من دخان لقافته عبر منخريه وفمه، مجيباً: «محنة. محنة». إذ ذاك مال مهمد عليه جانبياً: «وماذا عن أولادك؟ انهم يعرفون الحكاية، وكذلك خاتي»، فرد الملاً بلهجة فيها بعض الجزم: «الأولاد أولاد. من سيصدقهم إذا رووا الحكاية؟ وأنا كفيل بصمت خاتي وبرينا».

لقد أسقطا سينم، امرأة بيكاس لنصف ليلة، من حسابها، وكانا على حق. ستردد «ديك. ديك» إلى أن تمتلىء مسافة ذاكرتها الفارغة بأعراق حمراء رخوة، وبمناقير ترتفع وتنزل بحثاً عن نخالة ضائعة في أعماق البلهاء.

تمتت برينا، التي كانت قد انسحبت الى فراشها: «ألا ينبغي ان نتظره حتى المساء؟» فالتفت إليها الرجلان من خلف منكبهما، ثم عادا فنظر

احدهما إلى الآخر، قبل ان يجيبها الملاً: «ولماذا ننتظر يا برينا؟ إذا عاد فسنتخلق حكاية أخرى لوجوده بيننا. سننتقل حكاية معقولة في الأقل. أتصدقين كل ما جرى؟ لم نصدّق نحن بعد، فلنتحايل على هذه المحنة بحق الله علينا». ثم قام من مجلسه على نحو عصبي، واتجه إلى كوة مربعة في الحائط، ذات ستارة، يحتفظون فيها عادة بمخدرات إضافية. سحب واحدة صغيرة، وتناول غطاءً أبيض فلفّها: «مات. انظري. مات»، ورمى باللفافة قربها بتشنج. بعد ذلك نادى بصوت مشوب بعويل: «كرزو. كرزوو»، فتناهت خطى الصبي راكضاً من الغرفة المجاورة ذات الباب المطل على الساحة. فتح الباب على عجل، داخلاً بنصفه الأعلى فقط، بينما ظلت ساقاه خارجاً. نظر الملاً إليه وكأنها لا يراه: «بلغ جدك عَفْدِي سَارِي ان وليدنا قد مات». فوجم الصبي متمتماً: «الوليد؟ أخي بيكاس؟».

اجفل الأب من نفسه. كانت كلماته تطرق صدغيه فيستيقظ: «مات؟» قالها في تساؤل وحيرة، ثم استدرك وقد اخذته عينا الصبي الدّهشتان: «نعم مات. ولا تنس ان تعرج على بيت جَهْوَز سَارِي لتبلغه أيضاً».

حين اغلق الصبي الباب خلفه في هدوء، كانت أمه تتلوى في فراشها وهي تثن باحتناق. أسرع الرجلان إليها يستوضحانها الامر فلم تستطع رداً. أزاح الملاً الغطاء عنها ليعاينها فاسترعت بهقع دم طازج على ثيابها والفراش. كانت المرأة تنزف بغزارة. رد زوجها الغطاء عليها، وهروا خارجاً. دخل الغرفة المجاورة حيث اولاده واخته، صائحاً: «خاتي. انظري اذا كان جارنا الأشوري مازال في البيت. فليوصل برينا بسيارته إلى المستشفى»، ثم خرج مهرولاً كما دخل، فلحقت به أخته: «ماذا بها؟». رد: «تنزف»، فاكملت خاتي طريقها قفزاً صوب بوابة السور.

دخل الأشوري الى الغرفة بمنامته. لم يكن قد فهم كلمة من كلمات خاتي الكردية، لكن إشاراتها الفزعة اقلقته فتبعها، لفّ الرجال الثلاثة برينا بلحافها ثم نقلوها خارجاً إلى سيارة البيك آب. اسجوها على القاع الصفيحي البارد من الخلف، ثم صعدوا إلى مقدمتها محشورين بفعل عباءتي الزوج واخيه السميكتين. أدار الأشوري المحرك لأكثر من عشر دقائق قبل أن يستجيب، من برده، فينطلق.

بعد ثانية، او ثانيتين، من انطلاق السيارة أوقف الملاً جاره السائق، محاولاً شرح أمر طارئ. أخرج رأسه من النافذة صائحاً: «خاتي»، فردت

خاتي الواقفة في البوابة: «نعم». «اللفافة البيضاء. المخدة التي غطيتها هي بيكاس الذي مات». رفعت خاتي يديها في تساؤل: «المخدة؟ مات؟». لم تستوعب كلمات اخيها. وإذا رأى الملاً تلك الحيرة حاول الشرح بايجاز خشية أن يضيق جاره الأشوري بهذه المحاوراة المتأخرة: «اختي. بيكاس مات. سيأتي عَفْدِي وَجَهْوَور للتشيع. قولي إن هذه اللفافة هي جثة الطفل الوليد. سأشرح لك الامر حين أرجع»، والتفت الى جاره الذي لا يفهم شيئاً من لغته الكردية مومناً كأنها يخبره ان الحوار انتهى.

انطلقت السيارة مسرعة بحكم الأمر الطارئ، لكن رأس الملاً انثبق خارج نافذتها من جديد، ملتفتاً الى اخته ليرى إن كانت قد فهمته، فراها تومىء برأسها ايماء غامضة.

هرول كرزو اول الامر، متوجهاً الى بيت جده عفدي ساري (ليس عفدي جده، لكنه يناديه جدي احتراماً لزوج ابيه)، ثم تباطأ بعدما قطع نصف العراء الابيض في الجهة الشمالية من الحي الغربي. وكان عليه ان يسير على خط منحني ليدخل الأزقة، التي تتجاوز فيها البيوت المتاخمة لذلك العراء الفسيح، ثم تتقطع شتالاً فتبدو متناثرة، تحيط بها حقول الحليين حتى أسلاك الحدود السورية التركية.

لم تبد العجلة عليه، بحسب طلب أبيه، بعدما جاوز نصف المسافة. الزرايزير المتناثرة في ذلك البياض المخملي، مثني مثني، اخذت بعضه الى حُلْم الفخاخ، وتوزعت بعضه الآخر أفكاره الصغيرة حول كلمات ابيه: «بيكاس مات». متى مات بيكاس؟ لقد سمع الحوار بين عمته وابيه والبلهاء برمته، فلم يذكر أحدهم كلمة «مات»، بل «خرج في الليل». «لماذا يكذب أبي؟» رددها في نفسه. ولم يجد مخرجاً لسؤاله سوى ان اباه يكره «بيكاس». «لكن، ماذا فعل بيكاس ليكرهه ابوه؟»، سأل الصبي نفسه من جديد، متغافلاً، بقوة، عن المصير الأبكم لشخص لن يصدق حكاية وجوده احد. وقد حاول ان يتذكر ملامح أخيه في عراء فكره المتصل بالعراء الثلجي، فاستعصى الأمر عليه. حركات الاخ الغريب، وحدها، حول الموقد، ملأت ناظره: هدوؤه. إغضاضته. يدها الورديتان اللتان مدهما لإخوته. إجفاله أخيه الصغير من مداعبات اخيه الأصغر الغريب. حديثه عن الصيد. إنه يحس غربة ناعمة ذات دغدغة؛ غربة كالرغبة التي تدفع بالزرايزير الى فخاخه

غير المموّهة أحياناً، وإذ يلتفت إلى الثلج الذي شَرَدَ عنه قليلاً من حوله، يرى الطيور السوداء الكسولة مُعَسِّكَرَةً برفوف أكبر.

يكاد الصبي أن يضرب على صدره انتقاماً من أنه لم يجلب فخاخه. آه، ماذا لو كانت لديه فخاخٌ بحجم العراء كله؟ فخاخٌ في الثلج وأخرى في الهواء. سيحاصر الأجنحة، وسترتفع طقطقات المعدن الصّلب المنقّص على الأعناق، أو الأرجل، أو المناقير. طيور ستخط على الثلج عاجزة عن تحرير جُسومها، وطيور ستهوي من الأعلى مرفرفة في دُعر، دون أن تطاوعها الأجنحة لترتفع. ثمّى مجنّحة تستبد بالصبي فيفتح ذراعيه راكضاً في اتجاه الطيور، شيئاً لمرّة، ويميناً أخرى. وشاحه الصوفي، الذي غطى به رأسه ووجهه، ينسَلت، ثم يسقط على الثلج. سترته المبطنّة الطويلة، والفضفاضة جداً، ترفرف حواشيها كعلّم من فوق جلبابه. حذاؤه البلاستيكي، السميك، يقصّر ما بين خطواته في ذلك الطيران الأرضي. إنه آتٍ بفتح جسده؛ آتٍ بأعماقه التي تحمل آثار أرجل العصافير وبقايا أعشاشها المهجورة.

كان الدّهشُ يعلوه كلما طار سرب حاول الاقتراب منه بذراعيه المفتوحتين. «لا»، تخرج الكلمة مُتَرْفَةً ببخار انفاسه، «لا تطيري». إنه يودّ أن يكون أليفاً لا قنّاصاً، ولقد حاول طوال صيده لها أن يقول ذلك فأجفلت منه. تصيّدُها ليحاورها عن قرب، فأرخت اعناقها بين يديه ثم ماتت. إلّام سيستعصي حوارها الحنون عليها؟ إلّام ستجفل منه فيضطر إلى نصب الفخاخ لها؟ «أنا كرزووو»، أطلق الصرخة، تلك، مديدة، لتعرّف عليه فتستكين، لكنها كانت تطير.

بعد ساعة من ذلك الركض اللامُجدي، خرَّ «كرزو» راکعاً من التعب على ركبتيه، ناظراً إلى الفضاء حيث الزراير البطيئة تعبر حقل يأسه المُحَكَم. «كرزو. كرزو»، علا صوتٌ من مكنٍ ما، فأصغى الصبي إلى أعماقه ليحدد مصدر الصوت. فكّر أن ما سمعه هو صدى صرخته في المملكة البيضاء الباردة على مدى بصره، لكن اسمه تكرر ثانية، على بعد خطوات منه، فأجفل واقفاً.

كانت حَذْبَةً من الثلج، تتقشر في بطاء، وكائن ما ينتصب جالساً على ركبتيه كأنما كان ساجداً تحت الطبقة الثلجية. تراجع الصبي خطوتين ليحدّد ملامح الشكل الذي يراه، وقد غشى الدّعر عينيه بستر شفيف من بخاره الرمادي.

لم يَبْسُ من وجه الكائن سوى عينيهِ وأنفه، أوّل الأمر، لكن القناع الثلجي تفتّت قليلاً قليلاً بفعل حركة فكّيه، وشفّتيه، حين همهم، ثانية: «كرزو. اقترّب»، فاقترّب الصبي محدقاً، ثم ندّ عنه ما يشبه الصرخة المكتومة: «بيكاس. بيكاس!!!؟»، وجثى قرب أخيه.

رفع بيكاس يديه الرخوتين إلى وجهه فمسح عنه ما علق به من الثلج. وجهه كان رخواً ايضاً، أزرق وسط لحية لا لون لها. وقد ابتسم، أو خيل للصبي أنه ابتسم، فتمالك نفسه قليلاً، سائلاً في همس: «ماذا تفعل هنا؟»، فرد بيكاس بصوت ذابل: «واين ينبغي ان اكون؟»، «في البيت» اجاب الصبي. «ولماذا ينبغي ان اكون في البيت؟» بادره اخوه، فلم يجد كرزو، بعد التفاتة حيرى إلى البياض المديد، سوى جواب بسيط: «ألست بردان؟».

كرزو بردان. اسنانه تصطك، بينما يخفي يديه تحت إبطيه ليدفئهما. بيكاس لا يجيد بعينه الذابلتين عن وجه أخيه، كأنها ينتظر حكاية يحاول الصبي إخفاءها، لكن كرزو لا يتمكن من وصل الأمور بعضها ببعض، هذا كل ما في المسألة. وقد تذكر، فجاءةً، سبب وجوده هنا، فأطلق لسانه: «كنت قاصداً بيت عفدي ساري لأخبره أنك مُت». وإذ همّ بيكاس برفع حاجبيه استنكاراً، أردف الصبي: «قال أبي إنك مُت»، ثم ابتسم كمن حلّ لغزاً: «سنعود الى البيت. انت لم تمّت». وبعد برهة من الصمت علا وجهه تساؤل ملح: «لماذا يكذب ابي يا بيكاس؟». فمدّ بيكاس يده إلى ركة أخيه الجالس مرتباً عليها: «ابي لا يكذب يا كرزو. بعد قليل عليك إبلاغ جدي عفدي ساري بذلك. لا تنس»، فتقلصت شفتا الصبي الزرقاوان: «وماذا أخبر عفدي؟»، فرد بيكاس: «مات. قل له: بيكاس مات»، فاحتدم صوت كرزو قليلاً: «انت تكذب مثل ابي».

احنى بيكاس رأسه، ثم رفعه من جديد. حدّق في أخيه مبتسماً، ثم همس: «انظر»، وفتح العباءة المبطنة بالصوف - عباءة ابيه التي ارتداها ليلة زفافه - عن صدره، فارتفعت يدا الصبي، في اللحظة ذاتها، إلى وجهه ليحميه.

كانت عاصفة من الزراير تنطلق من تحت عباءة بيكاس، فترطم بالصبي الذي تكوّر على نفسه من المباغته، وإذ هداً رفيف الاجنحة الصاحب فتح كرزو عينيهِ على مهل، فلم يجد بيكاس، بل رأى، عالياً، سرباً اسود يمضي في اتجاه الشمال.

اتكأت برينا على كتف زوجها وهو يمضي بها على معبر اسمنتي ضيق وسط اشجار باحة المستشفى ، بينما ظل اخو زوجها على مقربة منها ، ليسند المرأة بدوره إذا احتاج الامر . أما الأشوري فعاد على أدراجه بسيارته ليلحق بعمله في شركة تولت ، حديثاً ، التنقيب عن النفط في حقول منطقة «رميلان» . لقد شكره الملاً طويلاً ، وأقنعه ان في استطاعته تدبّر أمره للعودة بزوجه من المستشفى ، لأن الأشوري ألح على البقاء في انتظارهم بتعاطف أكيد .

كان باب مبنى المستشفى العالي جداً نصف مفتوح ، في ذلك الصباح ، مما اضطر الرجلين إلى دفع إحدى دفتيه بقوة ، فصرّ صريراً بارداً . وإذ دخلا ، والمرأة تستند عليهما معاً ، لم يجدا أحداً ، بل تناهى اليهما صخب غريب كأن كليين يتشاجران . تقدّما وكل منهما ينظر إلى جهة معاكسة ، حيث غرف صغيرة متقابلة ، ذات أبواب مفتوحة ، مخصصة للحالات الطارئة : لا أحد . اصوات رجال وحيوانات تختلط في منعطف الرواق الذي تضيئه مصابيح لا تكفي ليتين الماشون أقدامهم . رائحة اليود والبنسلين تختلط ببرودة تنبض نبضاً في الجدران . قوارير زجاجية تنهشم في المنعطف ، والملا ينظر الى اخيه في حيرة ، لكنهما يتقدّمان مطوّقين المرأة ، كل بساعد ، وحينما يجاوزان ذلك الرواق ، ويصيران في مواجهة الرواق الآخر ، المتعامد ، يريان المشهد المُقَهِّقه : كلبان أغبران ، ينهش أحدهما الآخر في ضراوة ، وهما يرتطبان بمناضد صغيرة عليها زجاجات وعقاقير ، فتتناثر . ممرضان شابان ، وممرضة ذات وجه مجدور ، يحملون مكانس في ايديهم للفصل بين الحيوانين ، بينما تكاد اصواتهم المختنقة المُحْشِرة ان تعلو الهدير والنباح .

يتجمد الملاً واخوه في مكانهما . من يناديان ؟ يقيناً لن يلتفت أحد في هذا الموقف . «روح ابليس ترفرف على هذا المستشفى» تتمم الملاً الذي لم يسمع نفسه وسط الصخب . رفع يده عالياً ليلفت نظر الممرضة ، التي تراجعت قليلاً عن دائرة عراك الكليين ، فعلا صراخها في وجهه ، وهي تهز المكينة : «ألا ترى؟» . لكن الحيوانين قطعاً فورة الغضب التي كادت تستبد بالملاً ، إذ ركض أحدهما داخلاً احدى الغرف ، فلحق به الآخر . آنئذ اشتعلت الجدران بأنين الاسلاك الصدئة الصادرة عن الأسيرة ، وبالحطوات والاجساد العمياء للمرضى الذين تدافعوا خارجاً مُؤُولين . ولما ايقن الممرضان الشابان ان الغرفة خلت ، اوصدا الباب ، ورجعا وسط المرضى المتكئين على الجدران ، أو المقرفين من بردهم في الرواق ، وهما يتمتمان : «اهدأوا . اقلنا عليهما الباب .

ألا ترون؟ ستتدبر الامر، اهدأوا». ولما حاذيا الملاء، الواقف مع اخيه وزوجه على مبعدة من ذلك الجمع المذعور، توقفا: «ما بها؟» سأله احدهما، فحاول الرجل إيجاد كلمة مناسبة بالعربية لحال زوجه فاستعصت الكلمة عليه. اوما برأسه مشيراً إلى المرأة بتعبير فيه توسّل، ثم انطلق لسانه بعد حركة عصبية من يده: «تعبانه». «تعبانه» كرر الممرض الكلمة وهو يتفحص المرأة، ومضى إثر إشارة من يده مفادها «اتبعوني»، فتبعه الرجلان اللذان تستند إليهما برينا مستعجلين.

«ما الذي حاول أخي أن يقوله؟» تساءلت خاتي وهي ترى لحية الملاء المهتزة خارج نافذة سيارة الأشوري. لم تجد سبباً لإيائها التي تدل على أنها فهمت ما يقول. لقد هزّت رأسها إيجاباً لتختصر المحاورة المختلطة بضجيج محرك السيارة، لا غير. «مات؟» رددت الكلمة: «من مات؟» ردت على نفسها. سمعت من الملاء شيئاً ما من هذا القبيل، اضافة الى كلمة «مخدة»، فرددت كلمة «مخدة؟» أيضاً، ثم تراجعت لتقفل بوابة السور من خلفها. لم تُطق خاتي البقاء في البيت، بعد ليلة من الهواجس الملاءى باطفال ذوي لحى، فافاقت فجراً بدافع الفضول. وضعت حلّة من العدس المجروش على موقد الكيروسين، ثم انتظرت، بفارغ الصبر، اول طقطقة للغطاء بفعل البخار، وإذ سمعت الطقطقة والصفير ايقظت اولادها وزوجها بصوت حاد. دلفت العدس الساخن فوق قصعة كبيرة، ودفعت إليهم بالملاعق التوتياء: «كلوا. كلوا».

اقترب الاولاد والزوج زحفاً على مؤخراتهم من فوق الفرش المُمَدّة على الارض، وهم يدعكون اجفانهم بأيديهم. أحاطوا بالقصعة شبّه نيام، وفي آلية مضحكة باتوا يغرفون بالملاعق من ذلك الحساء الخثِير. وإذ رأت خاتي اول ملعقة تغيب في باطن القصعة نهضت من فورها. وقبل ان تصير خارجاً علت همهمات الاولاد والزوج من خلفها، فالتفتت مستغربة: «ما بكم؟». فرددوا بصوت واحد: «لم ينضج العدس بعد»، ثم ارتخت ايديهم عن الملاعق فسقطت تباعاً على القصعة، محدثة رنيناً متناغماً.

رجعت خاتي بعض الخطوات حتى صارت في مواجهتهم، ناظرة من الأعلى إلى وجوههم المُحَبّطة الناعسة: «أنتم أفضل من الدجاج؟ الدجاج يأكل العدس نيئاً، وما تأكلونه مسلوق في الاقل. لا، هذا كثير. هذا كثير عليكم»، واستدارت، من جديد، لتخرج، فتناهى إليها صوت زوجها

حشمو: «ستكسر اسناننا»، فالتفتت غصبي: اطحنها يا جاروش. إطحنها يا خصية القنفذ، ولا تحرض الاولاد». قالت ذلك وأسرعت الى الباب ففتحته، ثم انسلت خارجاً. وبعد برهة فتح زوجها الباب من بعد ما أوصدته، منادياً في صوت حجول: «خاتي»، فتوقفت المرأة: «ها؟»، فهمس الرجل: «لا تقولي ذلك أمام الأولاد»، فرفعت خاتي حاجبيها: «ماذا؟»، فتمتم حشمو، ثانية: «لا تقولي: خصية القنفذ». تفرست المرأة فيه قليلاً بعينين مستهزئتين، قبل أن تهمس بدورها: «وأبوك، ايضاً، خصية قنفذ»، فرد حشمو الباب مستسلماً، بينما مضت خاتي عجلي. وهاهي تجلس، الآن، قرب الموقد، ومن حولها اولاد اخيها الثلاثة، منتظرة عودة الملال يقول لها بشكل أوضح ما يريد من «المخدة» ومن كلمة «مات». ثم تبتسم ابتسامة خفية: «لكم يشبه اخوها أباه في عاداته».

كان ابوها حسين، ابن كوجري، ذو القرنين، لا يحلوه قول ما يريد قوله حقاً إلا حين يصير بعيداً عن الشخص الذي يحادثه، وقد تسبب ذلك في الكثير من سوء الفهم بينه وبين الآخرين، والخصام بينه وبين زوجته «كُوليزار». انه لا ينهي المحادثة عن قرب. يبتعد، ثم يلتفت صارخاً ليشرح: «كيت. كيت. . .» فيضطر الاشخاص إلى الصراخ بدورهم: «نعم؟ ماذا؟ ها؟». وكانت زوجته تلقى النصيب الاكبر من هذا اللاتكافؤ في السؤال وفي الاجابة. «لا تخضي اللبن كثيراً، أريده مع زبدته»، يقولها وهو على بعد مائة متر، متجهاً الى مضافة عمه، فتضع زوجها يدها خلف اذنها لتلتقط الصوت، صارخة: «اللبن؟ مابه؟». وإذ لا تسمع توضيحاً تكمل عملها، وفي المساء يكاد يركل الوعاء من الغضب: «قلت كذا»، فترد المرأة: «لم اسمعك»، فيضيق: «لن تسمعيني قط. أنت لا تسمعيني».

من اين جاء والدها بعاداته تلك؟ إنها تذكر، بشكل ضبابي، بعضاً من عادات جدها حسن بن كوجري، الملقب بـ «حُسُو الميرسني» ايضاً. كان دائم الصراخ في أرضه الجديدة بـ «عامودا»، تلك الارض التي أصابت شيئاً من العمران بعد نزوحه إليها من «شاه بَسَنَة» ببلاد فارس. وكان حُسُو الميرسني غنياً جداً، لديه صفائح ملأى بالذهب الرشادي، مدفونة تحت ارض بيته، فاشترى نصف تلك الارض «الميري» من «مأمورية الحسكة» التي باتت محافظة في ما بعد، وكان يتباهى بالورقة الكبيرة الممهورة بختم الحكومة،

لكنه لم ييخل قط على جيرانه الذين يسكنون بيوتاً متنافرة على التخوم، إذ يراهم لا يصيبون رزقاً الا من صيد القطا.

في عامين - كما سمعت خاتي آنذاك - باتت السهول القفر تلك تنفجر حنطة وشعيرا. الحبة تعطي ألفاً، والكيس مائة، فتوافدت الناس، تبعاً، الى المكان، غير ان الوفود الاكبر كان من اناس يسمونهم «المهاجرين»، ممن نزحوا من هضبات الاناضول، واطراف روسيا الجنوبية. وقد جاءوا متعبين، وفي حال كبيرة من الإملاق، فاستخدمهم المزارعون كحصادين، ورعاة، وسقاة ماشية. و«المهاجرون» أولئك، وصلوا فجأة، بنسائهم واطفالهم، وببقايا دواب هزيلة، إذ أكلوا معظم بغالهم في طريق الهجرة الطويلة. ولم يتمكن اهل المنطقة من تأمين الكفاية من الخبز التي كانت تقتضيها حال جوعهم، فأغار الجوعى على حقول الشعير، يفركون السنابل بين راحاتهم ثم يمضغون الحَبَّ في نهم، فتغاضى عنهم المضيفون شفقة بهم، وكان ذلك سبباً في خراب نصف المرزوعات، نتيجة المداهمة الفوضوية.

لقد نسي أهل المنطقة، بعد ذلك بوقت قصير، البلاء الذي امتحنوا به، بفعل اختلاط الوافدين بهم كعاملين لديهم، وبفعل تزواج أبناء هؤلاء وبنات أولئك، اللواتي تميزن ببياض ناصع في البشرة، وشقرة في الشعر، لكنهم ظلوا يتندرون بالمهاجرين طويلاً، مطلقيين على كل من يسهو عن غرض من اغراضه، او ينسى شيئاً، لقب «مهاجر»، إذ ان نساء المهاجرين، حين وفدوا، كُنَّ كثيرات النسيان من التعب، ومشقة السفر، فكانت إحداهن تُؤَلِّولُ فجأة: «اين متاعي؟» ويكون متاعها، بالطبع، مربوطاً إلى ظهرها.

كان ازدهار منطقة «عامودا» ونواحيها، من قرية «الدرباسية» غرباً وحتى «موزان» شرقاً، و «قولو» جنوباً، مصدر حسد كبير للعرب البداءة، الذين لم يعهدوا طفرة عمران وزراعة على هذا النحو، وهم الجوالون بأغنامهم في المسافة ما بين «نهر العين» ونهر «عاكولة». فأوفد «آل مُسَلِط» رسلهم الى حُسُو الميرسيني، طالبين اقتطاع مراعى من ارضه، فأبى: «لديّ ورقة مهمورة بختم الحكومة». وقبائل «مُسَلِط» لم تكن لترضى بجواب كهذا، فأعلنت الحرب على اكراد الشمال قاطبة، وعدت ان كل ما يملكه هؤلاء انها هي أسلاب يجب تحصيلها. ولهذا سُدَّتْ طُرُقُ، وفتحت اخرى، وتحاشت السهول السهول، حتى أن طيور القطا انقسمت رفوفها، بعضها على بعض، فما عادت اسراب الشمال تعبر جنوباً، ولا أسراب الجنوب شمالاً. وذهبت الحمية

بعض من رجال الجانبيين الى درجة نقر الدفوف والصفائح ليمنع عبور الغيوم الى أرض الآخر.

لقد ترسخ تقسيم ما للمنطقة الشمالية، فكان في ذلك بعض الامان الضمني، فطُرق الاكراد الجديدة باتت تمر من قرب الحدود التركية، أحياناً، او داخل الحدود التركية في احيان اخرى. فاتقوا بذلك كئاثن البدو. كما لم يعد البدو إلى رعي اغنامهم قرب تخوم أرض الاكراد المزروعة حنطة وشعيراً، مخافة السموم التي كان يستخدمها المزارعون، (وكانت السموم اشبه بحبوب الحنطة تحديداً، لكن لها لون الصدأ الذي يصيب النحاس) هذا من جهة، ومخافة «المراقيع» التي يستخدمها المختبئون بين أسواق الشعير، من جهة اخرى. و «المراقيع» اسلحة من الصوف المجدول لقذف الحجارة، اتقن الاكراد استخدامها للصيد أولاً، ومن ثم لردع البدو. وكان في مقدور الحجر المقذوف من «مرقاع» ان يهشم جمجمة كطاس من الفخار. لكن ذلك التوازن في الخوف، الذي منح الجانبيين اماناً ضمناً، لم يدم طويلاً، إذ افاق الاكراد، في صباحات كثيرة، على ماشيتهم ودوابهم المختنقة في حظائرهم، وعلى اجزاء من السهول سُوي الزرع فيها بالارض، كأنها مرّت عليها مداحل حجرية. ولم يكن صعباً على القيايين ان يعرفوا السبب: اقدام البدو الحافية كانت تترك آثارها.

إذ ذاك لجأ الاكراد الى فخاخ الشعالب، ثم غسلوا فكاكها المسننة الصلبة بعصيدة من السموم، ونصبوها في كل مكان: على تخوم القمح والشعير، وحول الحظائر. بل ابتعدوا بها، متسللين، الى الطرق الترابية التي يسلكها البدو بأغنامهم. ولم يكن ليمرّ يوم الا ليجدوا جثة متنفخة هنا، او هناك، بفعل السم، وقد كُسرت ساقها. وكانوا، بعض الليالي، يسمعون دوي الفخاخ المنصوبة قرب الحظائر، مصحوبة بأنين ساحق، فاذا افاق الاطفال سائلين عن الامر، أجابهم الكبار في صرامة: «ناموا، باض ابن آوى بيضته الاخيرة».

كان الفرنسيون، ذوو القبعات المدورة، قد بدأوا يفدون إلى البلاد. ومع مجيئهم انتقلت البنادق بكثرة إلى الايدي، بعدما كانت عزيزة جداً، ولا يملكها إلا الاقوياء المتنفذون، فاذا بآل مُسلط يحولون الاكراد الى قنائص. لقد فهم الفرنسيون، في الحال، واقع المنطقة، بعد إنشاء ثكنتين آنذاك، احدهما في «القامشلي» التي صارت كبرى مدن الشمال، في ما بعد،

والاخرى في «عامودا» التي صارت كبرى القرى، ومن ثم «ناحية» لها شوارعها المستقيمة المرصوفة، فبادروا الى توزيع البنادق على البدو، الذين تميزوا بسذاجة مفرطة في أخلاقهم، فلم يكونوا ليأبهاوا الا لمن يعطيهم سلطانا، فيبايعونه. اما الاكراد فكانوا متزمتين دينياً، ويرون في الفرنسي كافراً نجساً، يأكل لحم الخنزير، ويسفّه دينهم، فاستعصوا في التعامل عليهم. وقد نسي التاريخ، الذي رُوي بعدئذ، ماذا فعل حسين آغا الشاب، بتحريض من ابيه، ضد تلك الثكنات المستحدثة، قبل ان تُسدّد طلقة واحدة إلى الإفرتين بوقت طويل.

كانت وطأة البنادق وطأة صلبة على أكراد الشمال، فتوزعوا على قرى بعيدة، قبل أن يجدوا منفذاً إلى استيراد البنادق التركية، عبر المهرين، فيحصّنوا الشمال كله. وهكذا توجه حسو الميرسيني، بعائلته الى ارض «قولو» ذات الهضبتين العاليتين، واستقرّ هناك، لكن البدو استهدوا الى ممرات جنوبية، فوصلوا بدورهم الى تلك الارض، متخذين من قرية «مَحْجَرَا» معسكراً لغاراتهم بقيادة اولاد مسلط، بيد انهم لم يصيبوا ظفراً بعدما ملك «الميرسينيون» بنادق تصيب جبهات خيولهم، فاستعانوا بقبيلة عباس الجبوري، الملقب بالذئب، وقد رفض عباس الاشتراك في هذه الحرب اول الامر، لكنه رضخ حين سرت وشوشات تتهمه بالجن. ومن «محجرا» ذاتها، تلك القرية التي انتشرت حولها الخيام والخيول، شن عباس، الذي تولى قيادة البدو كلهم هناك، أعنف غارة شهداها الشمال.

تحصن الأكراد باخاديد الارض وجدران البيوت. اما البدو فكانوا يكرون على خيلهم مكشوفين، واذ يتساقطون تباعاً يرجعون على أعقابهم ليعيدوا الكرّ. ولقد استهلّك من البصل ما يعادل نصف هضبة من هَضْبَتَي «قُولُو»، في تلك الغارة، اذ كانت النساء الكرديات يقطعنه بالسكاكين، ويوزعنه على الرماة، فبدلك هؤلاء بالبصل سبطانات بنادقهم الساخنة لتبتد سريعاً.

دامت الغارة يومين، حتى سقط عباس الجبوري ذاته صريعاً على يد حسو الميرسيني، فتشتت البدو أيّما تشتت بعد مصرع الذئب، وقد سمح الاكراد لهم، إثر ذلك، بنقل جثته، فأخذوها باكين، ولم يرجعوا ثانية.

بعد ذلك بسنين انتقل حسين، ابن حسو الميرسيني، الى قرية «موسيسانا». وكانوا يلقبونه بذي القرنين، لان ذؤابتين تتدليان على جبينه

فتصلان حتى خديه، من تحت حطته المرقطة. و «خاتي» تذكر رحيل ابوها حسين من «قولو» الى القرية الجديدة على نحو تتداخل فيه صور كثيرة متنافرة، لصغر سنها آنذاك، لكن الصورة الواضحة التي لا تفارقها هي صورة مخذتها الصغيرة، ذات التطريز المحيّر لنقش يمثل حيواناً أشبه بالقط، له لحية حول فم مبتسم، وقد احتفظت خاتي بتلك المخذة حتى غدت صبية ناضجة، فنسخت ذلك النقش، بيديها، على مخدّة ثانية أهداها والدها الى المعلم الذي كان ينادي الرجال بلقب «رفيق»، في قريتهم، ومن ثم اختفى المعلم، فاستعادت خاتي مخذتها، لكن عيني الحيوان في النقش كانتا قد تغيرتا.

قارنت اخت الملاً ما بين التطريز على مخذتها الصغيرة، والاخرى التي اهداها والدها الى المعلم فاحتارت. العينان هنا لا تتطابقان والعينين هناك. كانتا مستديرتين محدقتين على المخدة الاولى، لكنهما، على المخدة الثانية، يشوبهما حَوْلٌ واضح. وخاتي لا تذكر انها اخطأت النسخ قط، كما انها تتشاءم من كل أَحْوَل، وليس في وارد يديها ان ترتكبا هذا الخطأ الفاضح.

لقد ظننت، في ما مضى، وهي في حوالى العاشرة، ان حَوْلًا اصابها على حين غرة، وكان جدّها حُسُو يصفاح جدّها، من جهة امها، مصافحة طويلة دامت ساعة وسط رجال يحدقون في فضول. وكان في ملامح الرجلين الكهلين ما ينبىء بتحدٍّ ما، خفيت اسبابه عليها، فاقتربت ممسكة بجلبابيهما بيديها الصغيرتين، ناظرة إلى وجهيهما العاليتين في قلق، وقد فوجئت بقطرات من الدم تطفر من تحت اظافرهما لشدة ضغط اليد على اليد، حتى ان قطرة ساخنة سقطت على جبهتها، فانتاب عينيها ما يشبه الزغل من الصدمة، فصرخت: «عيناى.. عيناى». اذ ذاك انفصل الرجلان وقد انحنيا عليها - وكانا يجبانها كثيراً - سائلين عن الذي ألمّ بها، فازداد صراخها: «اصبحت حواء». آنثذ حل المرح محل الصرامة بينهما، فابتسما، ثم ضحكا وهما ينظران الى عينيها، ويتجاذبانها ليحتضنها، هامسّين بالتناوب: «كذابة صغيرة.. كذابة».

تري ما الذي عناه الملاً بكلمة «مخدّة»؟ تحدّق «خاتي» في لُهب المدفأة شاردة قليلاً قبل ان يرتطم بها احد اولاد اخيها اللاهين من حولها، فندفعه بيديها بعيداً عنها. فيغضب الولد من حركة عمته فيقذفها بالمخدّة الملفوفة بالملاءة البيضاء، فتدّ خاتي المخدّة اليه في قذف قوي، بدورها. بعدئذ، يتناهشانه معاً، كلٌّ يحاول ضرب الآخر بها. وقد راق العراك الدائر بين العمّة

وابن اخيها للولدين الآخرين، فتدخلا في شكل مَرِحٍ وصاحب، حتى غدا ما يجري نوعاً من اللهو، لا عراقاً .
وتحت وطأة الايدي الثاني انحل غطاء المخدة أولاً، ثم انفطرت عُقْدُ الخيوط فاندلق الريش من كل لون وجنس: ابيض، ومرقط، واسود، ورمادي، واحمر باهت، وبنفسجي، وزيتي. هذه الريشة تخص ديك العيد، وتلك تخص دجاجة حفل تطهير «زيوان». هذه لقطة، وتلك لحجل. هذه المرقطة لديك حبشي، وتلك لإوزة مسعورة. ريش. ريش. كان بعضه يتساقط على سطح المدفأة فَيَنْشُ نَشِيْشاً خافتاً، ثم يسود ويتقلص، ليحترق بعدئذ، مرسلًا دخاناً ذا رائحة خاصة، والبعض الآخر يعلق بشعر الاولاد، وغطاء رأس خاتي الخشن، فيبدون، جميعاً، كدجاجات هاربة من قنٍّ داهمه جُرْدٌ ضَلَّ طريقه.

بحث كرزو عن وشاحه، الذي سقط اثناء الركض، فعثر عليه. كان نصفه مدفوناً في الثلج بعدما وطأه هو بنفسه. رفعه، ثم نفص عنه الثلج، قبل ان يلف به رقبته، والجزء الاسفل من وجهه حتى ما فوق الأنف، اتقاءً من اللفحة الباردة، وأكمل سيره على خط منحني، جنوباً، في اتجاه ازقة الحي الغربي، لكنه كان يتوقف عند كل حذبة صغيرة من الارض البيضاء، متوقعاً ان ينهض بيكاس من تحتها ثانية. يتفحصها في مشيه، وهو ملتفت الى الورااء حيناً، والى الجهات كلها معظم ما تبقى من أحيائه الأخرى. غير انه، حين احتوته الازقة لم يعد يهمه ان كان بيكاس حياً، ام ميتاً. فالصَّبْبَةُ الذين افاقوا مثله مبكرين، رفعوا، في الازقة تلك، اعماقهم الصغيرة، عارية، تحت خوذة الصباح البيضاء، مشغولين على ابراج واطئة هنا، وابرار هناك، يهدمونها تارة، ويعلنون اسوارها تارة أخرى. الايدي المزرقة تكوّر الثلج وترمي به، والاجساد الضئيلة الغارقة في ثياب سميكة فضفاضة - يرثها الاصغر سناً، عادةً، عن الاكبر سناً حين تضيق عليه - تتصادم. وهم يعمدون الى التصادم اذا اخطأت كرة احدهم وجه الآخر، كأنها الجسد امتداد للكرة الثلجية، ينقذف معها، ويرتد حين تصيب. والاكثر خسارة، في تلك المواجهات التي لا قانون فيها، من يسقط ارضاً. كثيرون سينقضون عليه في محاولة لدفنه. سيحشون فمه وعينيه أولاً، واذنيه ثانياً، ومن ثم يهيلون عليه الثلج حتى يغدو شبحاً خارجاً من ظلال مرحهم المهشمة.

لقد وجد كرزو نفسه، فجاءةً، في الحلبة بكل ملهاتها. ولما لم يكن قادراً

على تجنب المتواجهين - والتجنب سيجر اتفاق الصبية المتخاصمين، كلهم، عليه في هذه الحال - فقد انخرط في اللعبة بشكل عشوائي : يقذف بالثلج كل من يصادفه . يرد هذا حيناً، ويرد ذاك حيناً، فيبادلان حماية بحماية . ومع كل هذا التدبير الغريزي، فقد نال من اللطمات، والكرات، ما فيه الكفاية، ودون أن يتميزه احد من الجانبين، اويعيه اهتماماً خاصاً، سواء أأبلى مع احدهم، ام ضده . وقد تحايل، والصبية في كرّ وفرّ، فابتعد عن الحلقة قليلاً قليلاً، حتى صار على مبعده يقدر منها ان يولّي، فانتبه اللاعبون اليه، فنادوا عليه ، ولما لم يستجب، ركضوا، جميعاً، في أثره، غير أنهم لم يدركوه، فتوقفوا، ومن ثم نسوه، عائدين إلى ممالكهم التي تضيق في لحظة، وتتسع في اخرى .

الملاّ واخوه يراقبان وجه الطبيب الذي يشبه سريراً من أسرة المستشفى ، فارغاً منبسطاً ، لا تعثر العين فيه الا على تجاعيد صغيرة في الملاة، كأنها جلس احدهم عليه لبرهة ثم مضى . يده تجس رسغ المرأة، ومن ثم وريدها . يهمس باسماء غريبة الى الممرض الشاب فيغيب لحظة، ويرجع حاملاً زجاجة صغيرة بيضاء، وحبّتين خضراوين ملفوفتين بقطعة من القطن . يحقن المرأة في وريدها، بما في الزجاجة اولاً، ويناولها، بعدئذ الحبتين مع كأس من الماء . يتناول الطبيب دفترًا من جيبه، ويكتب فيه بحروف شيطانية بقية ما ينبغي على العائلة ان تعانيه، ويدفع بها الى الممرض الذي يدفع بها، بدوره، الى الملاّ . يتجه الطبيب الى الباب ويخرج . يلتفت الممرض الى المرأة : «ستكون في خير . فلتتبع ارشادات الصيدلي التي سيكتبها على الأدوية الموجودة في الورقة . خذها الى البيت» . ولما وجد بعض الحيرة والارتباك في وجهي الاخوين، سأل : «ابيتكم بعيد؟» فأجابه مهمد : «نعم» . رفع الممرض بصره الى سقف الغرفة متبرماً، كأنها عانى الكثير من ذلك مع الوافدين الى المستشفى ، ثم هزّ برأسه قليلاً، وأشار اليهما : «انقلاها حتى الباب الخارجي، ولتأخذكم سيارة الطوارئ من هناك» ، فسارع الرجلان يحيطان بالمرأة وينقلانها خارجاً . ومن هناك اخذتهم سيارة الطوارئ، بتوصية من الممرض، معرّجة على الصيدلية الوحيدة اولاً، ومن ثم الى الحى الغربي .

حين دخل الرجلان، وهما يسندان برينا، إلى الغرفة، كانت خاتي واولاد أخيها يجمعون الريش المتناثر، وقد توقفوا لبرهة من المباحثة، ثم انكبوا بدأب على عملهم، متلافين أن تلتقي عيونهم بعيون الداخلين الطافحة

بالتساؤل المستنكر. وبعدها تمددت المرأة على فراشها ذاته، وغطاها الزوج بلحاف سميك، وقف إلى جانب أخيه الذي عقد يديه خلف ظهره، سائلاً: «ما الذي يجري هنا؟»، فأنته الاجابة من ابنه الأصغر: «ضربتني عمتي بالمخدة»، فعاجله أبوه بصوت غاضب: «وضربت عمتك بالمخدة، بالطبع، ثم أكلتموها، وتركتم لنا الريش»، والتفت إلى أخته حانقاً: «ينقصك، والله، ان تنصبي الفخاخ، طوال النهار، مثل كرزو، على باب قن الدجاج إذا لم تجدي ما تنصيديه. ها؟»، واستدرك، فسألها: «اين كرزو؟ ألم يحضر عقدي ساري وجهور بعد؟»، فوجدت خاتي في سؤال أخيها فرصة لصرف نظره عن الريش: «كرزو؟ ومن يعتمد على كرزو؟ أرجح انه مضى خلف زرزو الى «نصيين»، لا الى بيت عفدي. .»، فقاطعتها الملائ: «اتظنين ان في الإمكان الاعتماد عليك؟ هاتي مخدة ثانية بحق الله، ولفيها، ألم اقل إنها بيكاس؟ الحمد لله على تأخر كرزو، والا لوجد عفدي وجهور ريشاً بدلاً من الجثة»، فبوغت خاتي، سائلة: «اية جثة؟»، فرد الملائ، رافعاً يديه كالموتخ: «جثتك»، فتدخل مهمد، عندئذ، بصوته الهاديء، مدركاً ان شيئاً ما قد فات اخته: «ألم تسمعي ما قاله الملائ حين خرجنا؟» فردت الاخت: «كان ضجيج السيارة. .»، فقاطعتها الرجل باشارة من يده: «لا بأس. سنعلن ان بيكاس قد مات يا اختي. بيكاس هو المخدة التي ستلفيها لتبدو كجثة طفل. بيكاس مات. لا حول ولا قوة. .»، وسكت بغتة، مأخوذاً بالحيرة في عيون أولاد أخيه المصغين في فضول صارخ، فالتفت إلى الملائ محدقاً في عينيه، كأنها يسأله لماذا سَهَوَا عن وجود هؤلاء، وكيف يتعين عليهما ان يقنعاهاهم؟

برينا كانت تصغي أيضاً، متمددة مغمضة العينين على ألم تراه في الظلام، متدافعاً حلقة حلقة، كدخان لفافة، أسفل احشائها. «لماذا لا يستشيرونني؟» تسأل نفسها. «انه ابني، وابني لم يمت. فليبحثوا عنه قليلاً. بحق الله فليبحثوا عنه». قبل سنين اختفى المعلم الذي اشتغل محاسباً لدى والد زوجها، ولم يسأل أحد عنه. رأت بقعة من الدم على ملءة سرير من أسرة المستشفى فتذكرت ربطة عنق المعلم ذي الشاربين الرقيقين، والشعر المقصوص الملتصع. وكان الرجل إذا مرّ ببيتهم ترى برينا في عيني أمها ما يشبه التوسل ليقف سائلاً أي شيء، لكنه يسلم تسليماً خافتاً ويكمل مسيره. «من لم يعجب بالمعلم، على كل حال» تردّد برينا في نفسها. غير أن الملائ كان آخر شخص تفكر برينا في ان امرأة ما قد تعجب به. لماذا تقارن بينها الآن؟ انها

معجبة بزوجه، برغم الفارق في السن بينها وبينه، وقد اعتقدت ان هذا الإعجاب سيمرّخ أكثر إذا انجبت طفلاً تزاحم به أطفاله من زوجه الأخرى. ستباهي به، سيشبه الملاً بأنفه المحدث قليلاً: هذا ما كانت تقوله لزوجهها متفكهة. أما الآن، فهذا هي تسمع إعلان نعي ابنها، ولا تدري أتحزن من الامر، أم ترى فيه مخرجاً، لكنها غاضبة قليلاً، لأن أحداً لم يستشرها. وترن كلمة «ابني» طويلاً في صدغيها، من الداخل، مشوبة بطعم حامض تحت لسانها. أكانت تلك المحنة، التي تدعى «بيكاس»، ابناً؟ زوجها على حق في هذا المخرج لمسألة لن تستطيع شرحها. زوجها على حق في توفير نظرات الناس التي ستذيعها، فيما لو بقي ذلك الـ «بيكاس» الذي لم تلد مثله امرأة. غير أنها حين تستعيد شبح ابنها، تكاد تصرخ: «ولم لا؟. انجبت رجلاً دفعة واحدة». على كل حال، لم يكن بيكاس على صورة ابن، تحديداً، بالنسبة لبرينا. تستثير اعماقها فلا تقع على أمومة ساخنة، بل على إعجاب ما، رقيق غريب. كانت تغمض عينيها في الساعة الاولى لولادته. فالطفل الذي جاورها بات شكلاً من اشكال الحمى، آنذاك. وكانت خائفة حتى من النظر إليه. فراشها يتمدد ويتقلص. قدماها تلتصقان بشيء بارد فتسحبهما، متكورّة كقربة لبن صغيرة، تارة، وفي اخرى ترى نفسها ضائعة في مساحة الفراش الذي يغدو كسهل واسع، لين جداً، تتوزعه منحدرات تمسك بأنفاسها. يد الوليد تسلقان أعماقها. شعر ينمو في ثلج تحت يدها، والكلمات الاولى للكائن الذي انجبته تهتز اهتزازات تخلع الأحشاء من جذور جذورها: «مرحباً أمي». لم يكن الامر حلماً لتفتح عينيها فتبده، ولذلك آثرت أن تغمضهما طويلاً. صمتت ملجومة باستسلام، غير عابثة بالصرخات المكتومة لأخت الملاً وهي تراجع زحفاً، وكان وليدها يزحف بدوره، خارجاً من تحت الغطاء، باتجاه عمته: «اهدأي»، فتنهار خاقي تماماً.

«لقد انجبت رجلاً دفعة واحدة» تكرر برينا في ظلام ألمها. والملاً حائر. لم يحضر أحد بعد. ملهاة التشيع تكاد تنتهي قبل أن تبدأ. إنه في حاجة الى وجوه تتكلف بعض الأسف لئلا ينفجر بالقهقهة، او بالشتائم فيخرج عن وقاره. إن أساءه الراهن هو أسى الباحث عن مخرج من ورطة. ليس حزيناً على بيكاس الغائب. ليس حزيناً على المخدة التي ستكون بيكاس. لكن برينا. . . ويلتفت إلى زوجه كأنها يعتذر. فالملاً لم يفكر قط أن للمحنة حضوراً ما في وجهها. لقد ظن، طوال الوقت، أن ما يراه من إعياء وألم هما محض ما

ينتاب امرأة عقب الولادة. كيف عنّ له ذلك؟ حسبه النظر إليها بعينين منكسرتين، فتبادله النظر بانكسار أشدّ.

أولاد الملاً منهمكون في بحث عابث عن نتف الريش في ثنایا البساط. ومن خلف ظهري الرجلين الجالسين بإطراق يمدون ألسنتهم سخرًا من خاتي. تراهم برينا فتكاد تبترسم.

لطالما أحببت برينا صغيرهم. ظريف في أكاذيبه التي لا تنتهي، ولا ينفك يلازمها منذ دخلت بيت الملاً، كأنها أمه. ولم يكن حذرًا منها حذر الثلاثة الآخرين. لقد سألتها، في اليوم الأول لمجيئها، أن تروي له حكاية البقرة التي أكلت قرية «تُوبز»، ولما لم تكن تعرف شيئًا عن بقرة التهمت قرية، أوهمت أنها تحاول التذكر: «البقرة.. ه. ه»، فكان الصغير يسبقها، راويًا لها ما ينبغي أن تروي له. وفي كل مرة يتوقف فيها، توهمه، من جديد: «ولما أكلت البيوت.. ه. ه»، فيعود الصغير إلى السرد، كأنها هو في عجلة من استعراض معرفته. ولما استكملت الحكاية منه صارت ترويها كل يوم، بالتفاصيل ذاتها، وبنبرات الصوت ذاتها التي ترتفع، وتنخفض، بحسب جسامه الأحداث، أو اقتراب وقوعها: بقرة البقرات أكلت القرية بيتًا بيتًا، فانتفخت حتى صارت في حجم هضبة «موزان».

تمد خاتي عنقها صوب النافذة: «هنالك أحد ما في الخارج». عينا الملاً تبحثان، بغتة، عن المخدة، وإذ يراها ملفوفة ينهض مسرعًا ليمددها أسفل فواش زوجه برينا، هامسًا: «خاتي. خذي الأولاد إلى الغرفة الأخرى». وقبل أن تخرج اخته بأولاده تعلو طرقات خفيفة على الباب. تفتح خاتي الباب وتتنحى جانبًا فيدخل عفدي ومن خلفه جمهور. ثم آخرون في الباب أيضًا، فتسارع اخت الملاً إلى دفع الأولاد خارجًا، ليتسنى لهم الدخول. أولاد عفدي وجمهور، وزوجاهما، وبعض ممن استدركت النساء فنادينهم من وراء أسوار بيوتهم، حضروا أيضًا. وكان يُسمع، في الخارج، أصوات أطفال تبعوا الكبار بدورهم.

ضاعت الغرفة بالحشد الواقف، فارتأى الملاً، بعد ردود سريعة على التحيات والتعازي، أن ينتقل بالرجال إلى المضافة، وقد انسلاوا تبعًا، وسط الثلج الذي لم يزل رماديًا، إلى الغرفة التي شهدت زواج بيكاس.

تكلف الرجال مراسيم احترام صارم في الباب: «تفضل. لا. تفضل أنت. أنت. لا..»، ودخل عفدي أولاً، ثم تبعه الملاً، الذي ارتفع قلبه إلى

عينيه فصارتا تنبضان نبضاً مؤلماً: كانت سينم ما تزال جالسة قرب الموقد الذي ينبعث من صفيحه وهج بارد، إذ كان قد انطلقاً منذ زمن، على الأرجح، مادة يديها وقدميها في اتجاهه، كمن يتدقاً.

صورة من الرعب المنسي أوقفت الملاً في الباب للحظات، ثم استدرك فتنحى ليدخل الآخرون، سائلاً وهو يخفي رعشة صوته: «ماذا تفعلين هنا يا سينم؟»، فنظرت البلهاء المبتسمة اليه نظرة توهمها الملاً سخرية من لعبته كلها، فأشاح بوجهه متشاعلاً: «تفضلوا. تفضلوا»، وأردف دون أن يلتفت: «هيا يا سينم إلى غرفة الأولاد». وإذا مرت به من خلف ظهره أحسها محدثة إلى أعماقه، والقهقهة تتطاوّل حتى ليكاد الثلج كله أن يتسلق فضاء روحه بخطاطيف من حفيف ثوبها. «هيا» كررها ثانية في دفاعه الخفي عن حاضره، ثم ارتفع صوته، ثالثة: «هيا» بنبرة صارخة، لكن سينم كانت قد توارت، مما حدا بالرجال إلى التمعّن فيه ببعض التساؤل.

كان كرزو واقفاً كحارس أمام باب غرفة أمه، يرد الأولاد الذين تبعوا أمهاتهم. وبين الحين والآخر يتناول كرة من الثلج ويقذفهم بها، فيدب فيهم هرج صاخب. ولما التقت عيناه بعيني البلهاء القادمة في اتجاهه، حدّق كل منهما ملياً في الآخر. كانت سينم مشدودة إلى حركاته فتقذف بالهأهأة من فمها على دفعات، وكان كرزو يزنها بقدر هائل من حقد صبي يرى فيها سخرية من أمر لم يجده إلاّ طريفاً في جديته، وكان حرياً بالأمر ذاك، إذا استمر، أن ينخرط كرزو فيه بكل أعماقه. فييكاس هو محض لعبة؛ محض سؤال مرح؛ محض فضول طفولي منبعث من أعماقه وأعماق إخوته. وإذا رأى البلهاء واقفة على حالها رماها بكرة كبيرة من الثلج ممزوجة بالطين، صارخاً بالأولاد الواقفين في الساحة: «هيا»، مشيراً بيده إلى الطريدة التي ارتفعت قهقهتها وهي تمسح عن جبينها وكتفها بقايا الكرة. حينذاك ركضت سينم من جهة إلى أخرى، والأولاد يلحقون بها. دارت مراراً حول شجيرة الزيتون الوحيدة. دخلت غرفة التنور وخرجت. التجأت إلى الزوايا الأربع للسور. اصطدمت بولد هنا، وبولد هناك. قذفهم بمثل ما يقذفونها به. ولولت قليلاً، وقهقهت كثيراً. كانت تكتئب إذ تُحاصر، ويعاودها المرح حين تنجو. وأخيراً دخلت الزريبة. احتمت بالخراف المذعورة، لكن المطاردين أحاطوا بها، فانطوت على نفسها في إحدى الزوايا وهي تحمي رأسها بيديها. ضربها الأولاد بكراتهم حتى تعبوا، ومن ثم انفضوا من حولها راجعين إلى مكانهم في الساحة، كأنها غالبهم بعض

الإشفاق عليها. حين ذاك باغتها كرزو، مستفرداً بها كمن يتهياً لسلخ الطريدة.

كان رأس البلهاء، من شدة تكورها، قد اختفى بين فخذيهما، فأراد كرزو ان يرفع وجهها إليه قليلاً ليعاجلها بكرته، لكنها لم تتزحزح، كأنها تحجرت في الزاوية، فباغتها: «رأيت بيكاس» على أمل ان تتحرك، فإذا بها تتحرك حقاً، وسط كومة الثلج المسودّ كما علق به من التبن والروث. كم رماها الاولاد بكل شيء، بالثلج وبغيره، حتى كادت تختفي في الركام. وإذا فتحت عينيها ناظرة الى كرزو، الذي توقع أن تستفسر منه عما رأى، بادرت: «انا جوعانة»، بابتسامة عابقة بالتوسل، فانقض عليها الصبي، دافعاً بكرته الثلجية في فمها: «كُلي هذا». ثم انحنى يجمع كرة ثانية مما تقع عليه يده من الروث والطين، فباغته صوت من باب الزريبة: «كفى ايها الحيوان».

كانت خاتي قد رأت من النافذة آخر فصل من مطاردة البلهاء، فخرجت على عجل. وها هي تتدارك الأمر بالكثير من الشفقة المرة وبإحساس عارم بالذنب: «كيف نسيناها طوال هذا الوقت؟». وقد انحنت على سينم فنفضت عنها ما علق بها، ثم أخذت بيدها خارجة من الزريبة، مُلقية إلى كرزو نظرة وعيد كصاعقة: «يا سليل الشيطان». فلم يُرد الصبي أن تمر المسألة هكذا. وبإحساس غامض يدفع به إلى إثارة فجعة، أو كسر جليد اللعبة التي أحكمت العائلة نسجها، صرخ من خلف عمته: «رأيت بيكاس»، فبوغت خاتي قليلاً، توقفت دون ان تلتفت، كأنها تبعد شبحاً يجرّها إلى الحمى، ثم أسرع الخطأ نحو باب غرفة الأم وهي تدفع البلهاء أمامها دفعاً. فتحت الباب وتوارت في الداخل كهارب.

لم يتساءل احد من الرجال عن وجود تلك البلهاء في غرفة المضافة. كانوا يُبدون القليل من الهمّ جبراً بخاطر الملاء، ولكنهم يتوزعون احاديث شتى بينهم. من يآسي، على كل حال، لفقد وليد عمره يوم، أو أكثر بقليل؟ هذا هو المرعي عادة، ولربما استكثروا، في نفوسهم، على الملاء إطراره وهمه. يُعوّض. الاطفال يُعوّضون. «ستكون لك، بعون الله، ذرية كبيرة» يقولون للملاء، فيرفع رأسه ملمحاً بابتسامة ممتنة. لكن الأكثر إغراقاً في عزلته كان «مهمد» والد سينم، فلقد آساه ان يرى ابنته تمر به بهأأة خارجة لا من فهمها، بل من مدى وحشته وغريه. كانت غريبة في رقعة لم يكن حرياً بها أن تكون غريبة فيها. عروس أعفيت من بركة عُرسها. هبة من ظلام، عذراء

كمحنة. لن يعرف احد لماذا كانت هنا، فاردة امام الصفيح البارد مشاغل عمرها الهيئة كلفافة في فم نهم. «مهمد... لماذا لم تأخذ بيدها إلى الغرفة الاخرى كما يليق بأب أن يبجل ابنته العروس؟» يسأل الرجل نفسه، ومن ثم يواسيها: «ما هم. هذا بيت أخي. بيتها»، ويشعل لفافة من جرة أخرى، كأنها لم يقتنع بما قدم من عذر. «لا. كم كانت وحيدة مهملة» همهم في أعماقه. لقد تتبعها بعينه، إذ تخلف عن صف الرجال ليكون آخر الداخلين، فتنعج انكساره هو، تلا خطاها. وكان آخر ما رآه، قبل أن يدلف الى الغرفة، تلك الكرة الثلجية الممتزجة بالطين تتهشم على رأسها الذي ارتد الى الوراء من الصدمة، فارتد رأسه، بدوره، إلى الوراء. نثار بارد غطى رثيته، وشظايا انحدرت مع الدم إلى بطن ما من قلبه. لم يعد يرى الاولاد المتحلقين أمام باب الغرفة الاخرى إلا بنات آوى تناهش رأس كرزو. آه كرزو. الغرفة تنهار. حقول تنبسط، ورجال ينهالون بخيزرانات طويلة، من فوق ظهور الجياد، على كل شيء. ورق نباتات اليقطين المتناثر يختلط بأعين الحيوانات السارقة في فجر ما. «اضرب. اضرب بالخيزرانة بين العينين. اضرب سفح الهضبة كلها، نزولاً إلى آخر تخوم البطيخ الأحمر. اضرب الهضبة ومقابرها. اضرب الثلج المبتسم، وشجرة الزيتون التي لن تكبر قط. كرزو»، واغلق مهمد الباب من ورائه حتى لا يسترسل في غضبه. لقد كان آخر الداخلين، لكن عينيه ظلتا هناك، وكذلك قلبه المتقازف كجندب سكران. ويصحو قليلاً فيرفع لفاته إلى فمه فإذا بها رماد، فيشعل أخرى كان قد عقدها سلفاً.

نهض الملاً وفتح الباب، إثر طرقات تناهت إليه، فألقى خاتي سائلة: «ألا ينبغي ان تخرجوا للدفن الآن؟ العربية جاهزة»، فأوماً اخوها كمن يحثها على الانصراف ثم التفت إلى الرجال: «العربية جاهزة»، وكان في هذا الإيجاز إبحاؤه الكافي لينهض الجميع، متلمسين احذيتهم للخروج.

النساء اللواتي كنّ في غرفة الأم خرجن تباعاً، ثم تحلقن أمام الباب وقد انضم إليهن أولادهن. وبعد برهة خرجت خاتي، حاملة لفافة بيضاء على ساعديها، واخترقت الجمع إلى بوابة السور، وهناك مددت المخدة - الجثة على العربية المستطيلة ذات العجلتين، والتي سيجرها رجل لقاء اجر معلوم. وعلى سطح العربية المنبسط كان ثمت رفش أيضاً، ومعول التصق بحديد طين رطب. وإذا رأى الرجل المعروق، المتدثر بمعطف فضفاض ثقيل، والممسك

بمقبضين خشبيين ليحفظ توازن عربته على عجلتيها، أن عليه أن يمضي، زفر قوة وتقدم، فتبعه الرجال وحدهم، بينما بقيت النساء حيث هن، يتلمسن رؤوس الاولاد فيدفنها في خواصرهن، كأنها يحمينهم من شؤم، او عين.

ثلاثة عشر رجلاً، كانوا يتبعون العرب على الطريق الاسفلتي المتجه من المدينة إلى قرية الهلالية. وهذا الطريق هو وحده الذي يصل، على كل حال، مدن الشمال الصغيرة بعضها ببعض. ضيق قليلاً، لكنه يفي بما عليه، وتتناثر من حوله، بعد اجتياز الحي الغربي بالطبع، بعض البيوت، وحقول منبسطة من الجهتين بيضاء في فرائها الثلجي، على مدى البصر، لكن يتخلل الجهة الشمالية منه دغل يتصل بالهضبة التي تستقر عليها القرية التي ينشدها المشيوعون.

دخان التبغ يمتزج ببخار الأفواه. الرجال يعقدون اللفافات في يسر وهم سائرون. أصواتهم خفيفة لكنها متصلة. عباات مبطنة بالفرو تخفق خففاً خفيفاً من خلف الاحذية، وعجلتا العربتين تزلقان بعض الأناء، فيدور الرجل الى اليمين، او الى الشمال، بحسب انتقال الثقل يميناً او شمالاً، ثم يستعيد توازنه، ويخبط بقدمه على الإسفلت مندفعاً.

ثمت علو يعترض العرب قبل الوصول إلى ناحية المقابر، لذلك اجتمع بعض الرجال يدفعون بها من وراء حتى جاوزوا بها إلى سطح منبسط، ثم سلكوا في الثلج، مبتعدين عن الشارع الإسفلتي جنوباً، إلى حيث تستقر المقبرة على مبعده مائتي متر في التقريب.

المقبرة بيضاء تماماً، والقبور مستوية بالأرض لا يميزها غير أحجار تدل على مواضع الرؤوس، واخرى على مواضع الاقدام. بضع شواهد تنبثق هنا أو هناك فتوحى بوجود مقبرة، ولولاها لما عرف أحد أن في هذا المدى المترامي ترقد مئات الموتى. فمسلمو الشمال لا يستحبون بناء انصاب على القبور، لذلك تمحى الكتل الترابية بعد زمن قليل، فتبقى احجار متناثرة، ورفائق من آجر يغطي بها التراب.

في الصيف فقط تدل المقبرة على نفسها، بعدما تحصد الريح ما يخلّفه الربيع من عشب يابس. قرب كل قبر وكر لضبع تخرج منه العظام، تباعاً، إلى العراء. لكن، وسط هذا الثلج الذي يسوي القبور ببياضه، والموتى بالأفق الرمادي، لا يسع الرجال إلا ان يستعينوا بخرائطهم الخفية. وها هم

يتقدمون الآن من وراء العربة التي تغوص عجلتها فتكاد تنفجر اوردة الرجل الذي يجرها .

«هيا . هيا» لكن العربة تقف بعد كل مترين . الرجل يكاد يهوي ، وإذا يراه الملاً في حاله تلك ، يقترح ان يحمل جثة وليده بنفسه ، وان يحمل صاحب العربة آلات الحفر ، فذلك اسهل من المضي على هذا النحو . همهمات تعلو . كل يتبرع بحمل الجثة ، لكن الملاً يختطفها قبل ان تصل اليها يد . هه ، كان صائبا في حيطته ، فالجثة خفيفة إلى درجة تبعث الريبة في النفس . «لماذا لم تضع خاتي شيئا ثقيلاً في اللفافة؟» ، ويلتفت شمالاً ، حيث تستقر المدينة في المنخفض البعيد ، كأنها يوتخ اخته على سهوها .

«هنا» يشير مهمد على الرجل حامل الرفش ، «ارفع الثلج عن هنا» ، وينحني الرجل وهو يكشف برفشه طبقة الثلج ليتبين الارض من تحتها ، وليتأكد انه لن يحفر في مساحة تخص قبراً قديماً . وإذا يجد الرقعة مستوية وصلبة ، يلقي بالرفش جانبا ويتناول المعول : «بسم الله» ، وتتلقى الارض ضربتها الاولى . يمضي الحفر بطيئاً بسبب الطين الذي يعلق بالرفش ، فيضطر الرجل الى تنظيفه بين برهة واخرى . والحفر لا يمضي عميقاً على كل حال ، فوليد صغير تكفيه حفرة ضحلة . وعندما يغادرها الحفار ينزل الملاً بالجثة في خفة ، مبادراً قبل أن يتبرع غيره بتسجيتها في القاع الطيني ، بل في جيب يتخلل جدار الحفرة ، يسدونه ببعض الحجارة أولاً ، لئلا يقع شيء من التراب على الجثة مباشرة آن إهالته على القبر . وحين ينتهي الملاً من ذلك يمد يده إلى يد أحدهم ، ويقفزة بصير خارجاً .

يجلس الرجال القرفصاء على مقربة من القبر ، محكمين عباءاتهم السمكية حول أجسادهم ، بينما ينحني الحفار على ردم الحفرة . كل اثنين يتجاذبان حديثاً ما ، مبدئين بذلك الملل الظاهر في عيونهم المستعجلة . يخرج الملاً علبة الفضية ، واقفاً ، ويعقد لفافة سمكية ، ثم يجيل عينيه في المدى من حوله ، قبل أن تستقرا على شاهدة عريضة من حجر اصفر ، يعلو قمتهما خيط من الثلج . كانت بعيدة بعض الشيء ، وقد استرعى ناظريه شيء اسود يلوح في جانب منها ثم يختفي . حديق قليلاً فرغل بصره من الوهج الابيض للثلج . لم يبد عليه فضول كبير ، لكنه حين عدّ الرجال - وفي ظنه ان احدهم قد انتحى هناك - ووجد العدد كاملاً ، عاد فنظر ثانية الى الثلج لعله يجد أثر اقدام يفضي الى الشاهدة ، غير ان المسافة كانت منبسطة خالية حتى من أثر الطيور . ظلل

عينيه بيده على اللاتعيين، وحقق في الشاهدة من جديد. كان الشيء الاسود، الشبيه بطرف عباءة، يتحرك حركة خفيفة دون ان يتخفي. نظر إلى الرجال فوجدهم غافلين إلا عن احاديثهم. استدار ومشى.

لم يعر الرجال ابتعاد الملاً عنهم غير نظرة لا تساؤل فيها. مهموم ربما، ويتنحي ليخفي انفعاله كما ينبغي على رجل صلب ان يفعل. هكذا فكروا لبرهة ونسوه. بينما تقدم الملاً حتى قارب الشاهدة، دون ان تفارق عيناه ذلك الشيء الاسود، الذي كان طرف عباءة، حقاً. ودار نصف دورة ليصير في مواجهة الكائن المختبئ فصُعق. كاد يصرخ، لكنه احس ارتخاء في مفاصله، وطعماً لاذعاً امتد من تحت لسانه الى ما تحت جلد وجهه. طعم لاذع في الجفنين وعلى أطراف الشفتين. تهالك في بطة، جالساً على الثلج، عارياً في مدى العينين اللتين تنظران اليه في هدوء ثقيل.

وجه أبيض تتدلى خصل بنفسجية عليه من الجانبين. عينان على شيء من صفرة فاقعة. لحية رمادية، والرأس لا شكل له تحت العباءة التي انسدت من قمته على باقي الجسد المتكور، والمستند بظهره إلى الشاهدة. «بي بي كاس!» تتم الملاً من بين أسنانه المصطكة. لقد تغير الوجه كثيراً عليه، لكنه فيه شيئاً ما لا ينساه. أهو السخرية البادية من أطراف العينين؟ أم الحاجبان المتصلان بانحدار فوق قاعدة الأنف؟ أم هو الأنف المحذب كالذي يحمله الملاً في وجهه؟. كلها معاً. انه وجه الأب نفسه برغم القناع اللوني.

«إلهي»، تتم الملاً، ثم مال في جلسته لينظر إلى الجمع البعيد من وراء الشاهدة، فأبصرهم قائمين، كأنما انتهى الردم. ازدرد لعبابه قائلاً: «اين كنت؟» وانتظر ان يجيبه بيكاس، غير ان الاخير رد بابتسامة غريبة. تتم الملاً ثانية: «ماذا اقول لهم؟ كيف اشرح اللعبة؟»، ولم ينتظر جواباً هذه المرة، بل نهض من فوره، هامساً: «ابق هنا بالله عليك. ابق متخفياً»، واسرع الخطا في اتجاه الرجال، الذين بدا واضحاً انهم ينتظرونه ليمضوا. ولما صار على بعد خطوات منهم توقف مطرقاً لبرهة، ثم رفع عينيه إليهم، مستقراً بهما على عقدي ساري تحديدًا: «اتمانعون في أن ابقى قليلاً، والحق بكم فيما بعد؟»، فhez عقدي رأسه: «كما تشاء. لكن لا تتأخر»، واستدار مبتعداً بالرجال.

بقي الملاً في وقفته تلك حتى غاب الجمع في المنحدر الإسفلتي، فدار على عقبه عائداً إلى الشاهدة على عجل.

كان بيكاس ما يزال على جلسته ذاتها، فجلس الملاً قبالة، محدقاً دون

ان ينبس ببنت شفة . اخرج علبة تبغه وعقد لفافة استعصت ، لأول مرة ، عليه . اصابعه الباردة لم تكن تطاوعه بمهارتها المعهودة . وقد بوغت بكلمات ابنه فكادت العلبة تسقط من يده : «لُفَّ لي واحدة يا أبي» ، فلفَّ اثنتين ، قدم إحداهما لابنه ، ثم قَرَّب ولاعته الكيوسين فاشعلها له ، ومن بعد اشعل لفافته هو ، ناظراً الى فم بيكاس وهو ينفث الدخان كما يفعل مبتدئ باللفافات .

تنحج الملا بارتباك ، سائلاً : «اين كنت؟» ، فرد بيكاس «معهم . كنت معهم» . ارتعش فك الملا السفلي من البرد المشوب بنفاد الصبر : «مع مَنْ؟» فرفع بيكاس حاجبيه متصنعاً الدهش ، كأنها على والده ان يعرف قصده ، فرفع الملا حاجبيه بدوره ، عسى ان يظفر بشرح ما ، غير أن بيكاس بادره : «وماذا تفعل هنا يا أبي؟» . «هنا؟» همس الملا مُغضباً ، ورفع صوته : «ذاك هو قبرك . جئنا لدفنك ، دفنا المخدَّة وانتهينا . لهذا أنا هنا» . فبادره ابنه بهدوئه المعتاد : «انا حي . اما المخدَّة . . . لم أفهم» . «أووه» ولول الملا بصوت فيه نبرة نشيج : «اصبح الشرح مستحيلاً ، فرأينا ان ندفن المخدَّة التي هي أنت» ، وصمت قبل ان يسترسل في هدوء من يقنع شخصاً يستعصي إقناعه : «اسمع . لن أترجع عن المخرج الذي وجدته لهذه المهزلة . بيكاس مات . أطفال كثيرون يموتون في يومهم الاول . لكنك تستطيع الرجوع معي الى البيت بصفتك شخصاً آخر . فلتكن ، مثلاً ، ابن اخي . ابن اختي . لا أنت اكبر من أن تكون ابن احد . انت كهل مثلي . فلتكن قريباً من الاقرباء الراجعين من تركيا . نعم . هذا مقنع . ألا تعتقد ذلك؟ سنحفظ الحقيقة سرّاً بين العائلة . بيني وبين برينا وخاتي . الاولاد لن يعرفوك» ، ولحق شفته اليابسة منتظراً كلمة ما من ابنه ، الذي اطارق قليلاً ، ثم رفع رأسه مبتسماً : «وسينم؟ نسيتهما؟» . «سينم . . سينم . .» ردَّد الملا مضيئاً : «اه ، سينم . نعم سينم . كيف ساشرك اباهما مهمد في اللعبة ثانية؟ . سنجد مخرجاً . لا تهتم» ، قال ذلك بصوت واثق ، فعاجله ابنه قبل ان يكتمل له انتصاره الصغير على الاسئلة : «لكنني مشغول الآن يا أبي» ، «مشغول بماذا؟» صرخ الاب في توسل ، فرد بيكاس : «بدفترك . هاك» واخرج من تحت عباءته دفتر الاب الازرق .

غامت عينا الملا قليلاً ، كأنها تلقى سخرية جارحة ، ثم مدَّ يده يتقرى الدفتر : «والله انه دفتر» قالها غير مصدِّق ، واردف متطلعاً في عيني ابنه الغريبتين : «متى اخذته؟ كان معي حتى الصباح . .» ، فتجاهل بيكاس سؤال ابيه ، فاتحاً ما بين الدفتين الزرقاوين ، قائلاً : «انظر يا ابي» ، وهو يمرر

اصبعه على بعض الارقام : «إنني أدقّق في الصفحة هنا»، فانحنى الملاّ بجذعه على الدفتر، متتبّعاً إشارات ابنه : «تدقّق فيم؟» سأله، فرد بيكاس : «يتغير عدد اكياس القمح التي كنت تذرّها في المسافة بين قرية كيُسْتُكْ وقرية تلّ حَمِيس»، فرغ الاب كتفيه : «وماذا في ذلك؟»، فاسترسل الابن : «كنت تزرع المسافة كلها قمحاً، أليس كذلك؟» فأوماً الأب : «نعم». فسأله بيكاس : «ولماذا، إذاً يتناقص عدد أكياس البذار؟» فأجابه الملاّ : «تلك مسألة عادية. اذا باعدت بين البذار زرعت، في المساحة نفسها، اقل عدد من الاكياس». «اووه» تتمم الابن، كأنها لم يكن راضياً عن الطريقة التي يحاول بها ان يقول ما يريد قوله لابيه، وأردف : «انظر هنا. إلى الاجور التي دفعتها لأصحاب آلات البذار. إنها تتناقص»، فهز الاب كتفه : «هذا بسيط، تزداد سرعتهم سنة بعد سنة. يختصرون الايام. ونحن ندفع مياومة».

تنفس بيكاس عميقاً، وطوى الدفتر، هامساً : «لا يا أبي. المسألة ان المسافة ضاقت ما بين القريتين»، فابتسم الاب : «لم اسمع ان احداً بنى بيتاً واحداً في أيّ من القريتين، فكيف تضيق المسافة؟». «تقترب القريتان، احدهما من الاخرى» رد بيكاس، وأضاف : «سأبعد بينهما لتعود المسافة إلى حالها الاولى»، فتجهّم وجه الاب قليلاً : «وماذا ينفعني ذلك الآن؟»، وأكمل بصوت خفيض يحمل بعض السخرية : «حتى اذا استطعت ان تباعد ما بينهما». غير ان بيكاس تجاهل تلك النبوة، مردفاً بثقة : «يلزم الامر ان اعيد كتابة نصف هذا الدفتر من جديد، بافترض ما كان ينبغي ان تكون الارقام عليه» ورفع عينيه إلى وجه ابيه متفحصاً : «اعني النصف الذي يخصك، لان النصف الآخر كان لجدي». «لا». اطلقها الابّ بذعر. «لا، لتبق الارقام على حالها، ولتذهب حياتي، والمسافة ما بين كيُسْتُكْ وتلّ حَمِيس الى جهنم»، قالها مربداً، وهم بانتزاع الدفتر من ابنه، لكن بيكاس سارع الى رد ابيه بيديه في رفق : «تمهل. تمهل» تتمم، ثم اضاف بعد برهة من التحديق احدهما في الآخر : «سأستعيه لا اكثر. عليّ اعادة ترتيب تلك المسافة مسترشداً بالارقام المدونة هنا. سأجعلها تتسع لنا دون استناد الى تقدير خاطيء لما جرى فيها. كل شيء سيكون واضحاً : كم سنبله نَمَتْ. كم من الرجال وطأها. كم سرحت فيها من قطعان الغنم. كم قطعة تتسع. ناهيك بالنبات، والوقت الذي ستستغرقه عاصفة ترابية لتجتازها. كذلك الزوابع، نعم، علي قياس علوّها ودوراتها. ستكون الامور واضحة حين نستقر هناك».

كان الملاً يصغي ، غير انه لم يلتقط من كلام ابنه إلا كلمة «لنا . تتسع لنا» . فارتفع صوته : «لنا . لنا . لنا . من تقصد بـ «لنا»؟» ، فرد بيكاس : «نحن . انا والذين معي» . «اوضحْ بالله عليك» صرخ الملاً وقد استوى جاثياً على ركبتيه : «من معك؟» فرد الابن من جديد : «هُم يا ابي . هم» . ارتد الملاً بمؤخرته على الثلج في استسلام ، وإذ تكلم كان في صوته مايشبه النشيج : «اعد الدفتر فقط إلي . لا اريد منك شيئاً آخر . اختف . اذهب . افعل ما تشاء انت و «هم»» ، وكرر كلمة «هم» في مرارة ، ثم اطرق منتظراً .

لمس بيكاس ركبة ابيه فرفع الاخير بوجهه المتعب اليه . كان بيكاس يبتسم فاستبشر الملاً قليلاً ، لقد توقع ان يعيد ابنه الدفتر اليه ، او ان يقول شيئاً من قبيل «فلنفكر بمخرج للعودة الى البيت» ، لكنه بوغت بسؤال غريب : «وماذا نفعل بنات آوى؟» . استوى الملاً بعدما كان منحنيّاً : «أية بنات آوى؟» ، فرد ابنه : «المسافة ، تلك ، ملأى بهن ، انت تعرف» . استجمع الاب هدوءه بجهد بالغ مبلغه : «تقصد المسافة بين القريتين؟ . ما من مكان في السهول كلها يخلو من بنات آوى ، على كل حال» ، فانحنى بيكاس الى امام الى درجة أن الأب رأى صورته في حدقتي ابنه الصفراوين . وقد سارع الملاً ، كأنها فهم ما سيتبع الانحناءة من سؤال ، قائلاً : «برغم كل هذا الحديث الذي يشير ذهولي وضجري ساجيبك الى ما ينبغي ان تفعله . ألم تخطر الفخاخ ببالك؟ . نعم ، الفخاخ . تصيدها يا بني . كنا نحن نفعل ذلك ، او نداهم الحقول في ساعات الفجر على الجياد ، ونهوي بعصينا عليها . ابن آوى جبان ، لكنك حين تقترب منه يرتد من يأسه على عنق جوادك الراكض . إضرته وهو في الهواء . لا تخطئه حين يقفز ، لأنك إن اخطأته جمع جوادك فأهلكك» .

كان الملاً مسترسلاً في شرحه قبل أن تفاجئه حركة من رأس ابنه تدل على عدم اقتناعه ، فتوقف ، بغتة ، ثم دمدم : «إذن لم تسألني ايها الـ . .» ، فسارع بيكاس : «لم أقصد الاساءة الى قَدْر اجابتك ، لكنك تستغفلي» . «استغفلك؟» همس الملاً عاقداً حاجبيه ، وكرر في أسمى : «أستغفلك!! في اي شيء استغفلك؟» ، فاتخذ بيكاس هيئة مستنطق يعرف ان الآخر يملك جواباً على تساؤه : «هيه يا ابي . انت تعرف نوع بنات آوى هناك» . «نوع؟؟» تمت الاب متسائلاً فأردف الابن : «المجنحة . المجنحة» مردداً الكلمة بتأكيد . مرّر الملاً يده اليمنى على لحيته ، مبتسماً ابتسامة استخفاف من الأمر

كله، ثم نظر يميناً، الى المدى الابيض، هامساً دون ان ينظر الى ابنه: «ها انت تستغفلي»، واطرق مضيقاً: «لن ينقضي الامر حتى تجعلني اضحوكة»، فأتاه صوت بيكاس واثقاً في هدوئه: «اووه يا أبي، ما من سبب يدعوك الى هذا الاشفاق على نفسك. كنتم تحتفظون بواحد في البيت، فلماذا تخفي ما أعرفه؟»، إذ ذاك رفع الملاً عينين منكسرتين إلى ابنه: «بواحد من ماذا؟» سألته مستفسراً، فرد بيكاس: «بابن آوى مجنح. تصيده ابوك، ولم تكن صغيراً لتدعي النسيان».

تراخى الملاً حتى بدت عباءته اكبر بكثير من مقاسات جسده. اخرج علية تبغ به بتكاسل وعقد لفافة ثم اشعلها، متمتماً والدخان يتداعى من بين شفثيه: «كنا نملك واحداً!! نعم كنا نملك واحداً. يا للجناحين. ماذا كنا نطعمه؟. آه، الحرشوف الطري واليابس، لقد طرّزت أُمي صورته على نخدة وهبتها لخاتي. آه. اضاقت أُمي لحية الى وجه الحيوان. لماذا اللحية؟ سألناها، فأجابت ان الحيوان هو صورة روح شريرة، وقد أضفت اللحية لأجعلها روحاً انيسة»، وارتفعت قهقهة عالية من فمه، مسترسلاً: «انني استغفلك الآن. لم نملك اي حيوان من هذا النوع». ثم نهض واقفاً: «يا ابن الشيطان». اطلقها ملء العراء: «اعطني الدفتر»، فنهض الابن، بدوره، مثاقلاً: «اتبعني. سأعطيك في المنحدر هناك»، وأشار الى الجهة الجنوبية، حيث ينحدر المرتفع الذي تقع عليه المقبرة، حتى يلتقي بمجرى فرع من نهر «جفجف»، ثم مشى.

ظل الاب واقفاً في مكانه كأنها أسقط في يده، متتبعاً ابنه المبتعد بعينيه اليائستين. «لماذا لا يعطيني الدفتر هنا؟» همس لنفسه. وعلى لا توقع حتى منه خرج صوته مدوياً: «بيكاس. تعمّدتُ الخطأ في الحسابات. تعمّدتُ ذلك، أتفهمني؟ فصلت الخسارة لنفسي تفصيلاً ايها الحمار. خذ الدفتر. كل شيء محفوظ هنا» وأشار باصبعه الى رأسه. «هنا. هنا»، واستدار غاضباً، متجهاً صوب الطريق الاسفلتي. غير أنه توقف بعد عدة خطوات، ثم التفت الى الورا فلم يجد غير آثار خطى ابنه المتجهة الى المنحدر. استدار مهزولاً اول الامر، بعد ذلك اتسعت خطواته حتى صارت الهولة ركضاً. وفي اسفل المنحدر ادرك الاب ابنه. التقط انفاسه وهو يمشي على بعد امتار منه. «بيكاس»، هتف الملاً بصوت مختنق، وأردف: «المخدة.. مخدة خاتي». وصمت اذ رأى ابنه يتوقف، ثم يلتفت إليه بعينين ازدادات صفرتها، وعلاهما

شيء من الحَوْل. توقف المَلّا بدوره، وسَرَحَ بصره في الثلج: «لم يكن وجه ابن آوى، على مخدة خاتي، إلّا...»، قال ذلك مشيراً الى بيكاس الذي قاطعه: «وجهي. صورتي انا. نعم. أرأيت أبي انك بدأت تتدارك ما حاولتم إقصاءه من ذاكرة العائلة؟»، واستدار على عقبه ليمضي، فسأله المَلّا: «والدفتر؟»، فرد بيكاس: «كل شيء فيه صحيح. لكن علينا ان نتعمد تزوير الحسابات تحسباً»، فاقترب الاب خطوتين، سائلاً من جديد: «تحسباً ممّن؟»، «منهم. منهم يا أبي» رد بيكاس.

هزّ المَلّا رأسه، متممّاً: منهم!! هه، منهم»، وأردف: «سنفعلها معاً. أنا آت معك».

انفرط عقد الرجال في طريق عودتهم من المقبرة. بقي عقدي ومهمد وحدهما، بينما انسل الآخرون، صامتين، كل في اتجاه بيته. وإذ وصلا منزل المَلّا كان الوقت عصراً. خاتي وبرينا والاولاد، معاً، افسحوا لهما مكاناً قرب الموقد، ثم جلسوا حين جلسا. نهضت خاتي وجاءت بطبق كبير من القش. وضعت خلفهما على الارض، ورجعت لتجيء بقصعة فيها طعام، وضعتها، بدورها، فوق الطبق، متممة: «تأخر الوقت، ولم تأكلا شيئاً»، غير ان عقدي ارتأى ان ينتظرا انضمام المَلّا اليهما، فغطيت قصعة الطعام بغطاء حتى لا يبرد. حل الظلام سريعاً في ساحة البيت، لكن أحداً لم يكلف نفسه عناء اشعال السراج. كانوا صامتين ومنتظرين. عيونهم تتبع علبتي التبغ الفضيّتين وهما تنتقلان بين يدي مهمد وعقدي. كانتا واضحتين من اثر انعكاس أشيب للسّماء المزداة بياضاً خلف النافذة الواسعة، التي وقف امامها كرزو مترصداً تلك الكتل السوداء الصغيرة على السلك الممتد فوق الساحة. الزراير لم تبارح مكانها إذاً، لكنها ستختفي بعد قليل. نُذِفَ رُخِيّة صغيرة من الثلج تنهاوى، ثم تتبعها نُذِفٌ أكثر عجلة. آلات حَلَجٍ خفية يرتفع ضجيجها الصامت في مساء المخلوقات، وما من اثر للمَلّا. «كَلّا بالله عليكم» تقول خاتي للرجلين، وتردّف: «الارض لا تبتلع الأحياء، واخي لن يختفي بهذه السهولة»، مضفية بعض المرح الثقيل على كلماتها، فانحنى الرجلان، آنذاك، بملعقتيهما على القصعة الباردة بغير شهية واضحة. تمتت خاتي ثانية: «أهو بارد؟ استطيع ان أسخنه من جديد إذا أردتما»، فاشارا إشارة شكر وهما يمضغان لقمتيهما.

كانت اخت المَلّا قد أشعلت السراج تَوّاً لتهتدي يدا الرجلين إلى ما

يأكلان . وكان واضحاً انها تهتم بقول شيء ما لمهمد، من جرّاء نظراتها الملحاحة الى وجهه، لكنها تكتّم كلماتها في حضور عقدي، الذي يلتفت بين الحين والآخر الى ابنته برينا مواسياً، او ممسداً رأس أحد اولاد الملا . وفي ثنايا الكلام الخافت، ذي الخشخشة الشبيهة بمرور الملعتين على قاع القصعة، تناهت، مراراً، توسلات صغيرة من برينا الى ابوها: «عد الى البيت . كل شيء سيكون على ما يرام»، وردود من عقدي الى ابنته: «بعد قليل . لا بأس . نصف ساعة اخرى». وفعلاً، بعد لفافة، إثر الانتهاء من تناول الطعام، نهض عقدي، قائلاً، وهو يخفف من إحراجه في مغادرة العائلة المستوحشة: «اذا تأخر الملا أكثر ابلغوني بالله عليكم، وكذلك إذا احتجتم اي شيء . سأزوركم صباحاً»، واردف متوجهاً بكلامه الى مهمد: «أأنت باق؟»، فأوماً مهمد برأسه: «قليلاً». آنذاك انسل عقدي من الباب إلى شبكة الثلج العظيمة، وقد غطى رأسه بعباءته .

لم يدم صمت الباقيين، الجالسين حول الموقد، إثر خروج عقدي . بادر مهمد سائلاً: «أرجعت سينم الى البيت؟»، فردت خاتي على عجل: «ذلك ما كنا نريد مباحثتك فيه . إنها لم تزل هنا». حذق مهمد فيها: «عمّ نتباحث؟ لا مبرر لبقائها هنا»، والتفت إلى برينا: «اين هي؟»، فردت المرأة في انكسار: «في المضافة»، ثم تمتمت مطرقة: «ارتأينا ان نبقيها هنا لنستشيرك». اذ ذاك هزّ الرجل رأسه: «لا اعرف اذا كانت المسألة كلها مهزلة ام لا، لكنها انتهت، على كل حال . ابلغوا الملا حين يرجع انني اخذتها معي»، ونهض واقفاً، وقد رفع عباءته إلى قمة رأسه يغطيه، ثم همّ بالخروج، فسارعت خاتي قائلة: «ابق هنا . انا سآتي بسينم» واندفعت خارجاً وفي يدها قطعة من الخيش لتغطي بها رأس البلهاء حال خروجها . وقبل ان يكمل مهمد جملة توجه بها إلى برينا، مفادها استعداده لإجابتهم في اي طلب، كانت خاتي قد رجعت هرولة، وعلى غطاء رأسها وكتفيتها نُدْفٌ كبيرة بيضاء لم تذب بعد . «انها وراء الباب» قالتها لمهمد، فاندفع الرجل خارجاً، ممسكاً بيد ابنته البلهاء ليزفّها، كما ينبغي لأب ان يمسك بيد ابنته حين يزفّها، لا إلى بعلٍ، بل الى حقل الظلام المتخبط في شباك العراء .

سكون موحش كِبَل العائلة، ولم يكن يقطعه غير تأوهات خفيضة للاولاد يلكر بعضهم بعضاً بالمرافق . برينا كانت مطرقة بانحناء، اما خاتي فقد انجرفت مع اللهب المتراقص في الكوة الزجاجية للموقد . كان في ودها ان

تعتذر وتمضي، لكن قلقاً مُراً حط بثقله عليها فلم تجرؤ على القيام. ولربما عنَّ لبرينا نفسها ان تدفع خاتي الى الذهاب لتتفقد اولادها الذين غادرتهم منذ الصباح، غير انها اجفلت، خِيفَةً، من السكون الذي سيسود اكثر، ومن اسئلة اولاد الملا التي سترتفع بعد حين، في اغلب الظن، ولن يعينها على الرد عليها إلا خاتي. انها تتوجس شيئاً ما من تأخر زوجها غير المبرر. بل لم ينقطع توجسها المقلق منذ انزلاقه الوليد من احشائها، مصطحباً مع جبل السُرّة مهزلة لا يعرفون اين يخفونها؛ في الوسادة المدفونة، ام في بلاهة سينم؟ في صمت مهمد الرجولي، ام في حيرة خاتي؟.. والاولاد؟.. هيه. سينسون، انها حكاية من مخيلتهم، لا من رحمها هي - رحم برينا ابنة عفدي ساري.

«ما العمل؟» تدرج صوت خاتي ثقيلًا. رفعت برينا يديها في تساؤل صامت: «ما العمل؟». كان في كلمتها الهامسة رنةً نشيج محتبس. قالت اخت الملا من جديد: «أعلينا ان نستعين بأحد ما؟»، فردت المرأة الاخرى وهي تنقل بصرها في وجوه الاولاد الواجحين: «لا اعرف. أكان على الملا ان يتأخر عن الرجال؟» قالتها في عتب، وأردفت: «ثم.. اين نبدأ البحث عنه؟ في المقبرة؟ وما الذي يشغله في المقبرة ليظل هناك؟ في الطريق الى البيت؟ في بيوت الناس الذين نعرفهم؟ غريب... لكن علينا ان نبلغ ابي». وكأنها كانت خاتي تنتظر كلمة حول مهمة التبليغ فانتصبت واقفة بطولها: «سأكلف حشمو»، وقد استحسنّت برينا ذلك، فتكليف حشمو ينطوي على رغبة لا تُخفى من خاتي لتفقد اطفالها في الأقل.

استعارت اخت الملا كيساً من اكياس الخيش الفارغة لتقي نفسها من الثلج، وخرجت.

هطول كثيف للثلج يسد على خاتي رؤية اي شيء في ذلك الظلام الأرقط. بيتها غير بعيد عن بيت اخيها، في الجهة الجنوبية من الحي الغربي، ولبلوغه عليها الإلتفاف من الشرق، لأن ما من زقاق يخترق صف البيوت المتراصة الواقعة في الوسط بين بيتها وبيت اخيها. غير ان ثمت منفذاً آخر، مختصراً، يمر في حقل «ساكو» السرياني، المكشوف إلى أقصى الجنوب. وهي تسلكه في الربيع والصيف عادة، اما في الخريف والشتاء فهو وعر بسبب طينه الاحمر الذي يلتصق بالاحذية التصاقاً شديداً، ويترك أثاراً لا تُمحى على العتبات. وقد يمت وجهها صوبه، فساكة الثلج، في هذا الوقت، ستمنع ما تحشاه في المطر.

الحقل المكشوف وضياء اكثر من الأزقة وسط البيوت . خاتي ترى ما بين خطواتها ، ولو توقّف الثلج لرأت أبعد مما يمكن ان تراه في ليلة عادية . والحقل موحش ، لا يبين في مسافته المنبسطة إلا شبح هضبة ترابية صغيرة تتوسطها رافعة للمياه . البعيد ، عادة ، في ظلام كهذا ، يكشف عن اشكاله قليلاً ، اما القريب فيخفيها ، وخاتي تهتدي بالبعيد ، وبلهفة ملحاحة الى رؤية اولادها وزوجها قبل ان يعمدوا الى النوم مبكرين كعادتهم . غير ان صورة حشمو اكثر الحاحاً على نفسها . هذا البسيط المطيع ، المضحك بسذاجته ، يستثيرها على غير توقّع . شفقة ممترجة بحنان ما تحيط بالصورة . لسنين لم تبد إلا استخفافها به ، متفككة بكل شيء فيه حتى القهقهة . أتراه طبعها المرح هو الذي ساقها الى الزواج من رجل يستدرّ المرح ؟ لقد حملت الامور ، أبداً ، محمل الخفة ، وكان زواجها جزءاً من ذلك . قالوا : « اتزوجين حشمو ؟ » فردت : « اتزوجه ، وأتزوج اباه » ، وإذ حاولوا التأكد من تصريحها هذا ، اردفت : « الرجال متشابهون . يقتلون نساءهم بتجفيفهن امام التنور من كثرة طلب الخبز الساخن ، وحشمو سيقتلني من الضحك على الأقل » .

إنها ترمع ، في هذا المدى المسيح بظلام رمادي يتدلّى كعرانيس الذرة ، ان تعتذر الى حشمو عن وصفه بـ « خصية القنفذ » . هكذا ، ستعتذر دفعة واحدة ، ولن تُسمِعْ ما يهينه بعد الآن . ثم تبسم على أثر قرارها ابتساماً لا تُرى : « بماذا سأصفه إذًا ؟ » ستبحث في سيرها عن وصف خفيف لا تجريح فيه لبعليها : « فليكن : الدلو المثقوب » ، وتهز برأسها غير مستحسنة : « فليكن ، جاروش البعر . لا . الأفضل : جاروش الملح » ، وترد على نفسها : « ولماذا الجاروش ؟ إنه مزارب اخبار المدينة ، سأدعوه : المزارب . نعم ، هذا افضل » .

كان حشمو يشتغل سائقاً لحصادة القمح عند الملاً قبل ان يبيعها الاخير في ايام ضيقه ، وها هو يشتغل عند اناس آخرين . عمله عمل موسمي ، ثم يقبع في داره تسعة اشهر . غير انه لا يتوانى عن تقديم اي عون لقاء اجر صغير في ايام البطالة الطويلة . يدهن البيوت بالجير مقابل نصف ما قد يناله عامل آخر . يذبح الخراف والأبقار التي تحفظ الناس لحومها للشتاء ، مقابل جلودها واحشائها . يسوّي بمدحلتة الحجرية سطوح المنازل إذا اشتكى سكان بيت ما من الدلف . يملط بمسحجه الجدارن اللبنيّة اذا تقشّرت . انه ، اختصاراً ، مستعد لكل شيء ، بصبر يعادل صبر شجرة الكينا في ساحة دراهم . مدبر

تعتمد خاتي عليه برغم حقته، وها هي بتدبيره هذا، تتمكن من إرسال ولدين من اولادها الى المدرسة الابتدائية.

على عجل تحاول خاتي اجتياز الحقل، لكنها تغوص حتى منتصف ساقيها في كل خطوة. يقيناً ان ما يتساقط من الأعلى، الآن، ليس ثلجاً، بل وسائد ولحف بيضاء؛ اطباق وقبعات من فرو سماء منهارة برمتها من ضربة ذعر ابيض. ووسط كل ذلك سكون يهتز كثرثة كلما زفرت خاتي: «لا بأس يا حشمو، سأصل، فلدي الكثير مما أرويه وأنت ترتدي حذاءك لتبلغ عفدي ساري»، وتصل، فعلاً، الى تخوم الحقل الشرقية، المتصلة بأسوار المنازل هناك. وبعد اجتياز سورين، تماماً، تنعطف في اتجاه ممر ضيق بين منزلين، لا يكاد يتسع إلا لمرور شخص واحد، تدلف منه الى زريبة خربة سقط احد جدرانها، وظل بابها، غير الموصل، مفتوحاً على الجهة الاخرى، حيث بوابة سور بيتها الواطىء. تدفع البوابة الثقيلة دفعا، وحين تدخل توصلها بعمود خشبي.

ضوء خافت يلوح لبصرها من نافذة المنزل. «انهم نائمون» تقول لنفسها. يجعلون الضوء خافتاً حين ينامون: «لا بأس يا حشمو. سأحدثك وأنت نصف نائم. سأسندك حتى ترتدي حذاءك، فنومك ثقيل، والهواء، خارجاً، كفيل بايقاظك».

كانت خاتي تتعمد ان تحدث خشخشة كبيرة في الثلج بقدميها، ثم لم تسمع شيئاً بعد ذلك. المفاجأة والألم حبسا، معاً، حتى الصرخة التي كان يمكن ان تطلقها المرأة المنصتة الى وقع حذائها. هوت بطولها كحزمة من الخرنوب. انتفضت لثانية واحدة حين عبرت ومضة بهية ركناً من اركان اعماقها. بعد ذلك استسلمت للنعاس الشبيه بفرخة دجاج وديعة، ذات زغب اصفر، تلتقط بين اناملها فتات الخبز اليابس.

على كل حال، لن تبقى خاتي مرمية طويلاً هناك. قلق سيسبتد بربنا حتى الفجر: «ماذا دهي خاتي وحشمو؟»، ثم ستوقظ كرزو: «هيا يا ولدي. ابوك لم يرجع، وأكل الشيطان زوج خاتي. اذهب وقل لعمتك اننا ما نزال ننتظر ان يأتي حشمو بعفدي. هيا بالله عليك، ولا تكن كسولاً». وحين سيكتشف الولد عمته النائمة في ساحة دارها سيجتمع خلق كثير هناك. عفدي وجهور، والأشوري، واولاد الأشوري، والجيران الآخرون واولادهم. حتى الزراير التي لا تباح السلك فوق ساحة بيت الملاً ستنتقل الى اغصان

شجرة الكينا العالية في ساحة بيت خاتي . فالذي جرى لم يكن قضاءً وقدراً . لا . ثمت من نصب فخاً ضخماً من فخاخ الذئاب وسط الساحة ، مربوطاً الى سلسلة حديدية ذات وتد دُق في الارض بأكمله ليلجم الفريسة .

الشرطة ستأتي بدورها في معاطف سميكة مرفوعة الياقات حتى الأذان . وبرغم كل جهد عفدي ، الذي سيحاول اظهار الامر كنوع من انزلاق قدم او كخطأ في التقدير ، إلا ان استنطاقاً صغيراً سيشمل حشمو واولاده ، الذين سيسردون الحكاية كاملة ، متبارين في اضافة التفاصيل : «والدنا نصب الفخ . أمنا تسميه خصية قنفذ . قالت له انت خصية قنفذ قبل ذهابها في الصباح فنصب والدنا الفخ . قال لنا : امكم دجاجة . سترون كيف ستتخط . ساعدناه في دق الودد . بعد الظهر . لا . نعم . بعد الظهر . ها؟ عصرأ . نعم . بعد أذان العصر . انتظرنا نراقب من النافذة طويلاً فتأخرت أمنا» ، وسيستفيضون في الكلام امام الرجال ذوي القبعات ، برغم تبرم هؤلاء : «فهمنا يا اولاد . فهمنا . ابتعدوا» .

سيلتفت عفدي الى حشمو مذهولاً : «لماذا يا حشمو؟» ، وسيرد الرجل المحاط بشرطين يهّمان بإصعاده الى السيارة المقفلة كصندوق : «الفخ كان ظاهراً ، ولو لم تتأخر خاتي لتلافته . أنا لا أحب دخول هذا الحشد إلى ساحة داري ، ولست خصية قنفذ . سأنصب فخين في المرة التالية» . وحين سيصير داخل السيارة ، سيُبْعِدُ احد رجال الشرطة ، مطلاً من وراء منكبيه برأسه ، صارخاً : «يا اولاد ، يا اولاد ، لا تعبثوا بصندوق آلات النجارة . لم أستعملها بعد» .

كان فخاً ضخماً ذلك الذي أطبق على ساق خاتي فهشمه بفكيه المستنّين . نزت قليلاً وهي غائبة عن الوعي ، ثم حدرها الثلج فنامت . وكان في إمكانها بعد تلك الغفوة ، ان تتفقد بيديها الطليقتين جدران الحفرة التي استقرت فيها ، في مقبرة الهلالية ، ومن ثم أن تفتح ثغرة في احدها لتقع على حفرة ثانية ، تجاورها تماماً ، فيها مخدة ملفوفة بغطاء ابيض . ضحكت طويلاً ، ثم اكتأبت وهي تسأل نفسها : «تأخر الملا كثيراً . علي ان أوقظ حشمو . . خصية القنفذ» .

الفصل الرابع

خيام من الغبار تنتصب على جانبي الطريق حين يأتي هؤلاء الرجال على دراجاتهم النارية السوداء. كانوا يأتون ثلاثة ثلاثة في أغلب الأحيان. إثنان منهم لا يتحدثان الى أحد، بل يجري الكلام فيما بينهما همساً، بلغة غريبة، والثالث دليلهما، وهما يختارانه بتوصية من مخافر النواحي، التي تلتزم، بدورها، بتوصية من مدراء المحافظات.

كان عددهم يرتفع شهراً بعد آخر. وهم يصلون من بلاد نائية الى العاصمة، على الأرجح، ثم يتوزعون منها بسيارات بيك آب محملة بدراجات نارية على المدن لينطلقوا منها الى القرى المنشورة كخزر رمادي في عراء الشمال. دليلهم ينادي على الناس في الساحات فيجتمعون ليتم البيع والشراء وسط ابتساماتهم وفضولهم.

ولم يقدّر أحد من سكان القرى هذه الحمى التي انتابت هؤلاء الشقر القادمين من ظلمات ما وراء المياه، حيث تعيش الأبقار والخنازير متجاورة، والنساء يسبحن مثل الرجال في سراويل قصيرة، بحسب ما يقال. ولم يخطر ببال أحد، إذ يرونهم يجمعون الخرز والحجارة مقابل أثمان تُسَلِّل اللعب، إلا أنهم أسرى بطر وضجر من مُتَع الغرب المبذولة، حتى لأن الرجل فيهم لا يعرف اية خليّة يختار لليلته. وهم، فوق هذا كله، يتبولون، واقفين، كالكلاب، من قلة الحياء. لا بأس، فليشتروا.

كانت الهضبات تتفجر تحت معاول اهل القرى خرزاً من كل لون، ورقائق خزفية منقوشة، وجراًراً صغيرة لا تخلو، بعض الاحيان، من قطع

معدنية مصكوكة علا نحاسها صدأ أخضر. انهم لم يكونوا يتقصّدون التنقيب قط ليجمعوا هذا المتاع المدفون جمعاً نفيساً، بل يعمدون الى ذلك بين حين وآخر مصادفةً، إذ يحفرون قبراً فيقعون على المتاع، او يتعمدون البحث عن قطعة تصلح رقيةً وتعويدةً. كثير من الخرز الازرق الكبير كان يتدلى على غُرر الاطفال وقد ألصق بشمع العسل الى الشعر، وخرمت رقائق خزف كثيرة، ايضاً، لتتدلى فوق الابواب. كل شيء يقعون عليه، عدا الذهب الإبريز، لا يأبهون له، وهم يتسمون، في سرهم، إذ يبعونه الى هؤلاء المضحكين ببناطيلهم التي تشبه بناطيل الدرك الجواله على الخيول، الضيقة عند الساق، والواسعة عند الفخذ من جهة الخارج، وبوجوههم المغبرة، التي تتوسطها نظارات كبيرة، ذات حواف مطاطية تحيط بالعيون إحاطة محكمة تحت قبعاتهم الـ «كُولْبُك».

قرية «موزان»، الواقعة على منتصف الطريق بين القامشلي وعامودا، كانت الأوفر حظاً من زيارات هؤلاء، فهضبتها العالية تتفتق جيّاً جيّاً عن عظام، وأشباح ينتقلون من سفح الى سفح بقناديل يراها اهل القرية، وعن جرار صغيرة ملأى بخرز منقوش. وكان «باران» بن ساري، جد عفدي ساري، يلتقط الكثير من ذلك المتاع في أدنى السفح الغربي للهضبة، حيث تجرف سيول الشتاء التراب من حواف القمة الى كرمه المنتشر على رقعة كبيرة من السفح والسهل معاً، حتى لتبدو الشجيرات، من بعيد، كمخالب تتشبث بالهضبة الهاربة. وما كان يحفره السيل الى كرمه المتميز بشجراته الصغيرة، ذات العناقيد التي لا تتجاوز حبات عنبها حجم عين الدجاجة، فهو ملكه. وقد جمع «باران»، ببيعه الخرز الى اولئك الشقر، ملاً وفيراً، فأجر الكرم الى أخيه «جُومَرْد»، مقابل نصف حصة مما يبيعه في الموسم في أسواق القامشلي، ذات الثكنة الفرنسية، ويُمّم بعائلته صوب «عامودا» ليشترى أرضاً تتاخم أرض «حسو الميرسيني»، ثم اضطر، إثر القلاقل التي زرع البدو بها تخومهم الى النزوح صوب «موسيسانا». وحين حطّ حسين، ابن حسو الميرسيني، الملقب بذي القرنين، في القرية تلك، كان «باران» في أرذل العمر، يتولى إعاشته في داره الكبيرة ابنه «عبد الصمد بن ساري»، فتصادقا حتى ماتا، ومن بعدهما تصادق إبناهما عفدي وبيناف، وكان الاول يكبر الثاني ببضع سنين. وقد تجافيا قليلاً حين صارا شابسين، إذ توجه بيناف الى مجالس من يدعوهم بالفقهاء، بينما انصرف عفدي الى الجاه، يلمّه من عرق البغال المحمّلة بالتبغ

بين تركيا والشمال السوري ، جامعاً من حوله أفاقين لا يرجعون الى صديق إذا أصيب إلا لسرقة بندقيته . لكن عقدي يكن للملأ بيناف - وقد صار ملأ بعد حفظ مائة حديث ، اضافة الى حفظ القرآن عن ظهر قلب - إحتراماً لا تبدده المجافاة ذات الطابع التقى .

كان عقدي ساري اكبر اخوته ، وأول الراجلين بزوجه وابنته برينا ذات الأعوام العشرة صوب مدينة القامشلي ، فتبعه ، من بعد ، نصف سكان القرية الى هناك ، رعاة ومزارعين ، حتى ان الملأ ، الذي كان قد تزوج توأ بزوجه الاولى ، نزح بدوره مع عروسه واخته «خاتي» التي تعهد هو برعايتها ، عله يجد في المدينة مسجداً يؤم فيه الناس ، او تلاميذ يعلمهم حفظ القرآن . ومن ثم لحق به اخوته ، وذلك ، تحديداً ، إثر اختفاء المعلم ذي ربطة العنق الحمراء ، الذي عمل محاسباً لدى أبيهم . وكانوا ميسورين ، بعامة ، اذ خصهم الاب من ماله ما يجعلهم يخوضون به معترك الارض . وبرغم ان الملأ لم يلتفت الى الزراعة اولاً ، بل الى رسالته التعليمية ، غير انه انصرف ، الى مجارة اخوته في الزراعة ، فأصاب غنى ومكانة .

كان الفاصل بين بيت عقدي وبيت الملأ بضعة زقات وأرض خلاء مديدة ، في الجهة الغربية من المدينة ، حيث الافق الطيني الذي يصل سطوح البيوت بالتلة البعيدة لقرى الهلالية . ومن ثم ضاقت الارض الخلاء ، اذ بنى فيها رجال عقدي بيوتهم ليجاوروا «سيد التبغ» ، غير ان امراً ما ظل ينغص على هؤلاء دخولهم الى بيت ابن ساري ، وخروجهم منه ، دون أن يُبَدُّوا للرجل تذرهم مدى عشر سنين ، بل دون ان يسأله أحد في الأمر إلا مرة واحدة ، حين دخل «سظامو حجي عباس» على عقدي ، ذات مساء ، لاهثاً : «بحق النعمة ، ما الذي يسكن الصندوق المُهمَل قرب الزريبة؟» ، فرد عليه عقدي باحتداد لم يفهمه غير زوجه وأولاده : «إذا سألتني أحد عن هذا الصندوق مرة ثانية فليرجع من الباب الذي دخل منه» . وانتهت الأسئلة عن محتوى الصندوق فعلاً .

بتأكيد ، ثمت زريبة في كل بيت من بيوت الشمال ، تتفاوت أحجامها بين ميسور وميسور . وككل بيت ، ايضاً ، كان في باحة دار عقدي زريبة تضم بضعة خراف وبقرتين تتدلى ضروعهما من ثقل الحليب . وفي الزاوية التي يتصل فيها جدار الزريبة بالسور انتصب صندوق ضخم رُفِع من قدمه بالبراح

ذات ألوان مختلفة، بعضها من صناديق البندورة، وأخرى من خزائن رثة أُعيدَ استخدام خشبها للتزيين.

كان صندوقاً لافتاً للنظر على كل حال، لكنّ تنالي المطر والشمس، والرّشاش الطيني الذي يَنْثَرُ من الميازيب القريبة منه، أحلاه الى جزء من الجدار، حتى أن الأعشاب ذاتها التي نمت على الأرض الغنية ببقايا الروث قُربه، نمت في شقوق ألواحها أيضاً، كأنها هو وصلة تصل التراب بالتراب، والأرواح الهيئة لأعشاب الزوايا الداكنة بأعشاب الجدران الأكثر نضارة.

أولاد عقدي، وحدهم، كانوا يلقون بنظرات مرحة الى ذلك الصندوق، وقد يعمدون أحياناً الى قرعه قرعاً خفيفاً من غير أن يراهم الأبوان، ومن ثم ينصتون بوضع آذانهم على خشبة لتتناهى اليهم نحنحة كأنها تخرج من أساس الحائط الطيني، أو من جذور النبات المعرّش. ولربما تمتموا بعد ذلك: «شُدّ الحزام وسطك. السيل سيجرف الحمار». بيد أنهم لم يعلنوا لأحد قط خفايا صندوقهم، كأن هو جزء من عفة العائلة أو شرفها، إذا أعلن أهين. وأولاد عقدي الذين تتفاوت أعمارهم بين طفولة ورشد، يتسمون بتعقّف يمازجه استعلاء ألقى به الأب إليهم بإشراكهم في مجالس الكبار: «عاشروا الرجال تكونوا رجالاً»، فتملّكتهم، حقاً، صرامة لم تناسب وأعمارهم، فكانوا يستخفون بما يذهب اليه، من هم في جيلهم من هو صبياني، بل يُقسمون كالكبار، إذا أقسموا، بشرفهم، كأنها لا محيد عَمّا سيتخذونه بقسمهم هذا. وقد صار في مُكْتَنَتهم، بعد ذلك، أن يطردوا شخصاً من مجلس الأب إذا لم يُرقهم، وسط فخر خفيّ للأب ذاته بقرار أولاده «الرجال»، ووسط نظراته التي تواكب لفافات التبغ التي ينفثون دخانها، من صغيرهم حتى كبيرهم: «التدخين شارة رجولة» يردّد عقدي، وإذا انتحى بأولاده نصحهم: «فليخرج الدخان من الفم والمنخرين معاً».

لقد بقي الصندوق ذاك في مكانه حتى ما بعد مقتل «باقي جواني» على يد «مجيدو»، اكبر اولاد عقدي، بما يقارب سنة، أي: الى حين استقرت ابنته برينا، وأولاد الملاّ بيناف في كنفه، بعد اختفاء الملاّ تماماً؛ ولم يمكن الحظّ هؤلاء الأولاد أن يستقرّوا ما في الصندوق. ففي الأيام الاولى لحلولهم في دار عقدي، وقبل أن يجرهم الفضول الى تلك الأخشاب التي حال لونها، خرجت جثة من وسط الحشائش المتسلقة الى مقبرة الهلالية، في صمت مطبق، ومن ثم اختفى الصندوق فأسدل الستار على عشر سنين من أسئلة مختنقة.

لم يُعَرَّ أولاد بيناف ذلك الوجوم الذي أحاط بوجوه العائلة انتباهاً، لكنهم لاحظوا أن جاذباً ما يستوقف عقدي وزوجه، وأولاده جميعاً، أمام الزاوية الفارغة التي يحصرها جدارا الزريبة والسور، حيث كان الصندوق الضخم. وكانوا، على حداثة عهدهم بالعائلة التي استضافتهم، يستحون من أن يسألوا. لقد ألحَّ عقدي على أعمامهم، حين اختفى الأب ولم يعد، أن هؤلاء الأولاد أضحوا جزءاً من مسؤوليته: «يجب أن يكون»، وإذ ألحت برينا، بدورها، على إخوة زوجها أن تنتقل بالأولاد إلى كنف أبيها لم يمانعوا: «عقدي من العائلة. وأنت أختنا. لا بهم المكان، بل ما ترتضيه القلوب». وهكذا أفرد عقدي غرفتين من بيته الواسع للوافدين: برينا وابن الملا الصغير المتعلق بها في غرفة، والثلاثة الصبية في غرفة أخرى. وقد جرى التعامل معهم بتأنٍ وأناة، حتى ركنوا، حقاً، إلى الرَّحِم الجديد الذي أظلمهم كورقة اهندباء.

أيام مرَّت قبل أن تندَّ عن برينا آهة صغيرة مخفورة بكلمة «جدي». وقد سألهما الصغير الذي يواكبها كظل: «أين جدي يا أمي؟»، فردت: «جدي كان في الصندوق يا بوزو»، وإذ لاحظت حيرة الصغير الذي لم يكن ابن رحمها، أردفت: «كان لي جدّ، مثلما كان لك جد. أتعرف من هو الجد؟»، فأجاب بوزو: «جدي هو جدي!»، فتمتمت المرأة: «نعم. وجدي هو جدي. جدي عاش في صندوق». فظل الصغير يردّد: «جدي عاش في صندوق»، وقد التقطها إخوته منه فصاروا يرددون: «جدي عاش في صندوق»، من دون أن يعرفوا مغزى لما يقولون، حتى صرخت بهم برينا ذات مرة: «لا أريد أن أسمع ذلك. أنتم تتفكّهون بي؟»، فانسعت عيونهم حيرة، ثم اعتذروا قائلين إن الصغير يرددها، وهم يردّدونها تفكّهاً به، لا أكثر، ففاجأتهم في هدوء: «جدي كان في ذلك الصندوق يا أولاد».

حين حلَّ عقدي بعائلته في أرض المدينة كان يصطحب والد زوجته، المسمي بابن زاري، أيضاً. نُسِي الاسم وظلَّ اللقب: «ابن زاري». كان وحيداً بعد موت زوجته، ولم يخلّف غير ابنة واحدة تزوجها عقدي، فأعمال والد زوجته، بدوره، لضيق حاله، وكبره. وإذ نزح من موسيسانا نزح به أيضاً، فأفرد في داره التي بناها هناك غرفة للكهل وأكرمه. غير أن الرجل اعتكف في غرفته، بغتة، ولم يعد يفتح الباب إلّا لبرينا التي تحمل إليه طعامه.

كان ضيق النفس منذ البداية، يشكو إلى ابنته سعة الغرفة التي هو

فيها: «انظري بحق الله، لا أكاد أرى الجدار من مكاني هنا. أعتقدون أنني دجاجة لتتركوني في هذا الحقل؟»، فترد ابنته حائرة: «وما الذي يقلقك في غرفة واسعة؟ أكرمك زوجي فأفرد لك أكبر غرف بيته لثلاث تضيق أنت بها يا أبي». ويسكت الأب الذي جمع كل ما لديه من أوانٍ نحاسية، وصحاف، وثياب، إضافة إلى فراشه وسجادة الصلاة، في زاوية، وترك ما تبقى خلافاً، ناظراً إلى الزوايا الثلاث الأخرى في ريبة واضحة. لكن، حين باتت حفيدته برينا، وحدها، تتردد عليه في اعتصامه الغامض، انقلب إلى ثرثار، دون أن تفارقه الشكوى. كان يستبقها طوال تناوله لوجباته: «يا سراجي يا برينا. يا خبز جدك وعيني، ألا ترين ما يفعلونه بي؟»، فتطوق برينا عنقه في ودٍّ من وراء ظهره: «أنت تبالغ يا جدي»، فيكمل الشيخ مقاطعاً وهو يزدد اللقمة: «كان الجدار الشمالي هنا» وينحني رأساً بإصبعه خطأً وهمياً على الأرض: «حدوده كانت هنا. إنني أضع إبريق الوضوء لصقه أبداً، وها أنت ترين كم من شبر بينهما الآن»، فتنحني برينا عليه بدورها، لتنظر في عينيه معاتبة: «جدي... لم يتعد الحائط، ولم يقترب. إذا كنت تريد استبدال هذه الغرفة بأخرى فلا تختلق أوهاماً كهذه. قلها وأبي سينفذ»، فيhez الجد رأسه تبرماً: «والجدار الجنوبي؟ كنت أبلغه بسبع خطوات، والآن تقتضي المسافة ثلاث عشرة خطوة... ها؟ كنت أرى من نافذة الجدار الشرقي، وأنا جالس هنا، الأوراق في ذروة شجرة الكينا، والآن لا أرى إلا منتصف ساقها الباهت. اعتقد أنني لن أرى ذات يوم سوى جدران البيوت الأخرى وقد سدّت النافذة. ها؟ ماذا تعتقدين؟ سيحولون هذه الغرفة إلى حقل لدجاجاتهم ودجاجات الجيران. من يدري، فلربما جاء أولاد الحي أيضاً إلى هنا ليلعبوا. لا. أنت لا ترين شيئاً». وتحاول برينا تهدئة خاطره قليلاً بمجاراته في ما يذهب إليه: «فلننقس الغرفة يا جدي. تعال، وسنرى إن ابتعدت الجدران غداً. هات حزامك. سنقيس الأرض بحزامك»، فينهض الجد باحتداد: «أأنت تمزحين؟ القياس لا يفيد شيئاً»، فترد برينا مستغربة: «ألا تريد برهاناً؟». «لا» ينفض الجد نفثاً، ويضيف: «من يضمن أن الجدار الغربي، مثلاً، سيظل في جهة الغرب حتى الغد؟»، فترخي الفتاة كتفيها كمن عيل صبره: «لن تقول الآن إن هناك من يغير اتجاه الغرفة أيضاً»، وإذا لا تسمع رداً، بل تلمح الرجل يحرق ساخراً من تحت حاجبيه الكثين، تُردف: «أخرج بنفسك، وحدد الجهات»، فيصفق الشيخ بمرح: «ها... غرف ما ستقولين. أنت أيضاً تريدني أن أخرج».

ويعتدل في جلسته بعد ذلك: «كل هذا من أجل أن أخرج؛ من أجل أن أضيع. توسعون الغرفة لأضيع، والآن الخارج. هاها. بماذا أستدل للرجوع الى البيت اذا صرت خارجاً؟».

وفي مساء أحد الأيام التالية انتقل الشيخ بشيابه، وابريقه الى الزريبة، حيث وجدته ابنته في الصباح، وهي قادمة لحلب البقرتين. سألتها عما يفعل هنا، فرد أنه يستحسن الإقامة في الزريبة. حاولت، جاهدة، ان تشنيه عن رغبته الغريبة، لكنه أصر بما لا يدع مكاناً للحاح: «ستراقبكم الحيوانات هنا لن تستطيعوا تغيير المسافة بين الجدران. كنت أنام هناك فتستغفلوني، أما هنا فلدي شركاء في الأقل، وهم يقظون»، وإذا حاولت ابنته إفهامه أن شركاء، هؤلاء، لن يفيدوه في أي شيء سوى جلب البراغيث، رد بحزم: «سأبقى هنا. أيضركم أن أكون بقرة؟». وقد أسرفت الابنة في أخذه باللين: «أبي، أنت لست بقرة، فلماذا تخرجنا؟»، لكنه احتدم أكثر: «اتخرجكم أبقاركم؟ لا أريد منكم سوى هذه الزاوية. لن أخيف الأغنام. لن أخيف البقرتين. هاتي فراشي فقط، فالمكان واسع هنا».

لأكثر من شهرين كانت برينا تمدُّ جدّها بطعامه في الزريبة، ويوماً بعد يوم كانت شكوى الجدّ تزداد كثافة، وثقلاً، كرائحة الروث، من جديد: «لا يتركونني أهذا قط. أمك تدخل وتخرج كل صباح وكل مساء. الدجاج يتسلل الى هنا. هذه الحيوانات الناعسة لا تراقب شيئاً سوى مزاولها. يباعدون بين الجدران حتى انني لم اعد أشم رائحة الروث. ابتعدت البقرتان والأغنام كثيراً. ها؟ أنت ترين يا برينا، يا خبز جدك، أنت ترين. كانت بين قوائم هذه الحيوانات وسجادي بضع خطوات، والآن ثمت سهل يفصل بينهما. كنت أردّها، من قبل، حتى لا تدلق إبريق الضوء هذا الذي أضعه لصقي، والآن. . ها. . الآن يا سندٌ سقفي أنادي الأغنام لتقترب فلا تسمعي. وأمك، نعم، أمك لم تعد تراني لأنني صرت بعيداً لا يرى. الى أين سأنتجه في صلاتي؟ كانت مزاول الحيوانات في جهة الشمال، وها أنت ترين أنها في الجهة الشرقية. يخلطونها عليّ. اسمعي. . .»، فيرتفع صوت حفيدته مقاطعاً: «جدي. . أين تريد أن تسكن حقاً؟ ستكون إهانة لأبي إذا عرف أحد أن جدّ أولاده يعيش في زريبة. أبي سيموت من الغيظ». «أووه» يتمتم الجدّ، مستخفّاً بما تقوله، ثم يمسك بيدها: «برينا، يا بيدر جدك، ألا تستطيعين جرّ الخزانة المرمية هناك؟»، ويشير بيده الى خزانة مهملة كانت العائلة تستخدمها لحفظ

العدس المجروش، والسكر، وأوعية الجبن المملح. وعائلة عفدي، وحدها، ممن نزحوا الى المدينة، استخدمت خزانة كهذه، «ليبدو البيت لائقاً بوجودنا كمدنيين الآن»، كما كان يردد والد برينا. فاليوت الاخرى تحتفظ بمؤونها على أرض الغرف، أكياساً كانت أم صفائح مغلقة، حتى أنها لتستحيل الى مرتع للدجاج تقتات بسقطِ العدس والبرغل. ولكي لا يبدو عفدي أقل شأنًا من المدنيين - كما جرت تسمية أهل المدينة على ألسنة الأكراد - جعل مؤونة البيت في خزانة خشبية ضخمة، صنعها له الصوفي محمود من عوارض السقف المتبقية بعد بناء بيت عفدي نفسه، كما يفعل أهل المدينة تماماً. لكن الخزانة لم تصمد طويلاً، دون دهان وغراء مما يقي الخشب من الدويبات القارضة، فانتفخت الأبواب من الرطوبة، واتسعت الشقوق، وانبثقت ثقب في الحواف كلها، فألقت العائلة بها خارجاً بعد أشهر قليلة لتغدو مرصداً للديكة تشرف منه على شؤون نوعها، وترفع الأذان الأنيس عليها، برغم السور الذي يجعل النهار أقل سُلطة، بأوقاته، مما يقتضيه النهار في العراء المديد عادة.

«الخزانة» رددت برينا، «وَيَمَ تنفعك؟»، فتمتم الجد: «سترين»، وأردف في سره: «لن يستطيعوا التوسيع ما بين جدرانها. سأسمع صرير المسامير المخلعة في الأقل». ثم نظر في عيني حفيدته بما ينم عن شطارة معلنة: «سأضع حداً لهذا الهراء يا كحل عيني. سترين». فألوت برينا بشفتها السفلى: «ليكن. اتساعدني في جرّها؟»، فارتد رأس الجد الى الوراء قليلاً: «تريديني ان اخرج؟. هاها. يا للعبة» فاحتدت الحفيدة: «والله لا يهمني ان بقيت هنا الى أبد الأبدين. لكنني لا أستطيع زحزحتها وحدي. ألا ترى؟»، ففترس فيها الجد قليلاً، ثم أغضى: «ليلاً، ليلاً يا برينا. سنجرّها حين ينامون».

وفي تلك الليلة، انتقلت الخزانة الخشبية، في صمت لم يقلق حتى الدجاجات، الى الزاوية التي يشكل ضلعيها جدارا الزريبة والسور. ومُدّت على الارض بطولها الذي يسع رجلاً طويلاً اذا اراد ان ينام، ويكفي ارتفاعها لشخص جالس دون انحناء. دَفْنَا الباب الى الاعلى، وفي وسع احدهم ان يدخلها برفع دفة واحدة. والقفل، بالطبع، صار الى الداخل في الصباح. لم يعد احدٌ، حتى برينا، يحفل بالأمر بعد ذلك. شبح الجد يتسلل كل ليلة، وحده، وينقل الزاد الذي يبقون حصته له منه في غرفته القديمة التي

استحالت إلى بيت للمؤونة والطبخ معاً. لعبة أشبه بتجاهل الناس لأنثي الأرنب حين تختفي عشرين يوماً في جحر آن تكون حبل، ولا تخرج إلا ليلاً لقتات ثم ترجع إلى الظلام العابق بانتظار سلاقتها، وقد تبقى أياماً، بعد أن تلد، على النحو ذاته، خارجة ليلاً بصغارها، مختبئة نهاراً.

أشياء كثيرة اختفت منذ انتقل الشيخ الى «المسكن» الذي لن يتمدد قط: صحنون وباريق. مناديل زوج عفدي، ومغذاتها المطرزة. حفنات كبيرة من كل كيس من اكياس التبغ الكبيرة، وكانت تظهر، من ثم، مرمية حول الصندوق الخشبي.

ما كان على العائلة عير ان تلم، في الصباحات، بعض الفائض الذي يضيق به «مسكن» الجد، ومن ثم تنسى كل امر آخر. انه لا يُقلق أحداً. شبح خفيف كقطرات الماء التي تدلف من السقف لا اكثر. سر، وأقل من سرّ لأنه يُنسى، لذلك لم يُشر اليه فردٌ من عائلة عفدي، ولم يكلم عنه، فالمسكيّ منسيّ، إلا مرة واحدة جُنّ فيها جنون عفدي: «اين منديلي الاخضر؟»، وظل يصرخ نصف نهاره: «سأحرق الصندوق»، فأمسكت به زوجته وابنته: «أي منديل اخضر؟ وما الداعي الى كل هذا اذا اختفى منديل؟ عندك الف منها». وقد هدأ الرجل على مضض لأنه لم يهتد الى شرح مقنع يعادل غضبه باختفاء منديل. لكن برينا كتمت شبه صرخة في اليوم الثاني، اذ وجدت المنديل قرب «مسكن» جدها. كان منديلاً مهترئاً، اويكاد، ملفوفاً على قطع صغيرة داكنة، يابسة، تشبه اصابع الآدمي. حملت المنديل الى أبيها الذي يهم بمغادرة البيت، معولة عويلاً خفيفاً في اشمئزاز: «ما هذا يا أبي؟»، فتسمّرت عينا الأب على ما بين يديها، متمتاً: «منديلي»، ثم سارع فاخطفه منها: «اين وجدته؟»، فلم يلتق جواباً، بل نظرة متسائلة في عيني ابنته يشوبها ذعر خفي.

لفّ الرجل المنديل على القطع اليابسة، ثم عقد اطرافه عقداً محكمًا، وحمله حتى التنور البارد الذي يقع في زاوية السور المقابلة للخزانة الخشبية: «لِمَ احتفظت به طويلاً؟» تتم وهو يرمي به الى رماد القاع، والتفت الى ابنته: «متى ستخبز امك؟» فردت الفتاة: «بعد ساعة، ربما»، فهز الاب برأسه هزاً لا معنى له، واتجه الى بوابة السور ماضياً الى ما ينتظره.

سألت برينا امها، مراراً، عما كان في المنديل. وفي كل مرة كانت امها تنهرها: «متى ستخرسين؟ منديل، منديل»، فتلحّ الفتاة: «ولماذا جُنّ أبي حين اختفى؟ وهذه القطع اليابسة.. امي»، فتمسك الأم بأحدى جديلتها حتى

ليكاد رأس برينا ان يلامس كتفها: «ماذا تفعلين بشخص يتكلم على عرضك؟».

كان سؤال أمها مدخلاً الى ما فاتها من قبل، وقد أجابت وهي تخفض بصرها: «اقطع لسانه»، فبادرتها الأم: «واذا كتب شيئاً بالقلم يمس بعرضك؟»، فردت الفتاة: «اقطع اصابعه...». «نعم» همست الأم: «اصابعه». فتملك برينا بعض الذهول وهي تستعيد صورة القطع اليابسة في المنديل، ثم نظرت في عيني امها: «كانت...»، ولم تدعها الأم لتكمل: «نعم، كانت اصابع ال...»، وسكتت.

من يكتب ما يستأهل قطع اصابعه غير من يسمونهم «متعلمين»؟ هكذا عن لبرينا ان تسأل نفسها بعدما ارخت امها يدها عن احدى جديلتيهما. ولما لم يكن قد مضى على مجيئهم الى المدينة ما يجاوز السنة، أعيانها فكرها في استحضار من قد تكون الاصابع المقطوعة اصابعه. لم يختلط بهم احد يجر شبهة كهذه، ولم تحتف اصابع احد: «لمن هي يا امي؟» ألحّت برينا على امها في ضراعة، فلانت المرأة: «المعلم... المعلم».

عصف دوار صغير بالمرأة لبرهة: «المعلم». نعم. انها تذكر المعلم الذي اختفى، بعدما عمل محاسباً لدى حسين بن كوجري. المعلم ذو ربطة العنق الحمراء. كيف اختفى ولم يسأل احد عنه؟ حتى أمها التي كانت عيناها تتدحرجان وراء خطي الشاب لم تنبس بما يشير الى تساؤل حول اختفائه.

ماذا كان على برينا ان تستعيد في ذهولها؟ ملامح المعلم، ام التواطؤ الصامت لبيوت القرية جميعها؟... والاصابع؟ آه. ثم مدت يدها فامسكت برؤن امها: «لماذا يحتفظ ابي باصابعه؟»، وقبل ان يصلها جواب، تدحرج سؤال آخر من سماء اسئلتها: «ما شأننا بالمعلم يا امي؟».

سحبت الأم ردن ثوبها من يد برينا في هدوء، ثم اطرقت: أتذكرين ابن علي مشكي؟ تذكرينه على ما اعتقد. كان يعرف القراءة، وكان المعلم يسلمه رسائل الى اصدقائه كلما نزل ابن مشكي الى مدينة القامشلي على دراجته. ينزل مرة كل شهر الى المدينة ليستطلع احوال سوق الماشية لأبيه، ويرجع في اليوم التالي، بعدما يبيت ليلته عند اقارب امه، هناك. وبالطبع كان يضع رسائل المعلم في صندوق البريد الى جهة لا يعلمها إلا ربنا. وبحسب ما قال ابن مشكي فانه اطلع مراراً على الرسائل التي نقلها. احس قلبه ان الكلب مستهتر زنديق، لذلك كان يفتح رسائله، وقد تأكد فعلاً عما ذهب اليه قلبه،

وصمتت لبرهة قبل ان ترفع عينيها الصارمتين الى برينا: «يا ابنتي . . . كان ابن حرام . اكرمناه فبال على الصحن»، لكن برينا فاجأت امها بسؤال آخر، بدل استيضاحها مضمون رسائل المعلم: «ولماذا كان ابن مشكي يفتحها؟». «الرسائل تعنين؟» همست الأم، فأومأت الفتاة برأسها. «الرسائل . . . إيه» استرسلت الأم من جديد: «شرب حليياً حلالاً، لذلك احس قلبه بريية . والده تقي . علي مشكي حمل قيذاً محمى على النار بيديه، حين داهم الدرك الجواله على خيلهم موسيساناً بحثاً عن تبغ مهرب . كان قرب زوجه التي تحبز على الصّاج حين جاء الدرك، فنادوه ليقرب فقال لهم ان ينزلوا، هم، عن خيولهم ويقربوا فرماه احدهم بقيد حديدي على وجهه، صارخاً: سأخذك مخفوراً بهذا على قلة أدبك . فلم يكن من علي إلا أن قلب الصّاج عن الجمر ورمى بالقيد فيه، واذ حمي رفعه الى الدرك: ضعوه في يدي إذا استطعتم . فولّوا مذهولين» .

لم تحف برينا دهشها من الرواية: «واوو»، لكنها عادت الى سؤالها: «ولماذا يفتح ابن علي مشكي رسائل المعلم؟»، فجذبتها الأم من كمها جذباً مالت كتف الفتاة معه: «أأنت مع المعلم ام معنا؟»، فرفعت الفتاة حاجبيها: «لم تكلمي حكاية رسائله يا أمي!»، فدفعت الأم بذراع ابنتها الى الخلف في عصبية: «كان يكتب عن القرية كلاماً . . . يا الله، ويكتب عني . . .»، والتفتت حتى صارت في مواجهة ابنتها المتسائلة تماماً: «عني . . . عني» كنت اكرمه فبالغ في التفسير . قال عن الرجال انهم بغال ذوو لحى، وعن النساء انهن دجاجات . وعني . . . ثم ازدرت زبد غضبها: «قال عني انني أكفي عشرة رجال في يوم واحد»، وبصقت الى ناحية الشمال .

عشر سنوات، كبر فيها من كبر، ووُلدَ مَنْ وُلدَ وماتَ مَنْ مات . عشر سنوات والنباتات تنمو على «مسكن» الجلد الخشبي وشبحه، ومن ثم تتسلق السور فاردة اوراقها للجهات الطليقة في ماوراء السور . عشر سنوات والجدُّ يضيق المساحة الضيقة للصندوق من الداخل . انه يكره ما يفيض عن جسده . لا لزوم للمسافات مادام الجسد رافلاً في سلام حدوده . لا لزوم الا لشق في خشب الخزانة يرى منه تعاقبات النهار، والخيوط المفضي الى طعام يقتنصه فلا يتكلّف شكر أحد، حتى نفسه .

كان اكثر ما يضايق الجدّ في مكمنه الهادئ ان تقف الدجاجات احياناً امام الشق الذي ينظر منه الى الساحة، وهي تميل برؤوسها في حركة متدرجة

كمن يدير مفتاحاً في قفل ، ناظرة اليه بعيونها المستديرة الصفراء من انعكاس النهار عليها : « ابتعدي » يومئذ بيده فتزداد ريبة . « هش ، هش » يهمس فتهتز اعرافها القصيرة دون ان تبارح مكانها ، فيتوعدّها : « سترين أيتها المتلصّصات » . وفي كل صباح ، حقاً ، كان ريش ما يتناثر حول الصندوق أيضاً ، فتكنّسه برينا من غير ان يعتمل في داخلها إلا سؤال صغير : « أياكلها نيئة ؟ » .

على كل حال ، خرجت جثة الجدم من الصندوق في صمت محكم ، وسط تساؤلات اولاد الملا بيناف ، التي بدّتها ، من ثم ، زوج أبيهم برينا ، لكن دهشهم ظل على حاله : « كيف اتسع المسكن الخشبي لكل هذا ؟ » حين افرغته عائلة عقدي مما يحوي : ثياب ومؤن تكفي ستة أشهر ، من البرغل ، والعدس المجروش ، واللحم القديد ، والتبغ ، والعظام . . . نعم ، العظام . لم احتفظ بعظام الدجاج في مسكنه ؟ كانت مبرئة كأنها سيجعل منها مكاحل للنساء . وقد حلا لهؤلاء الاولاد ، بعدئذ ، ان يجعلوا من الصندوق مسرحاً لألعابهم ، وسط النظرات المستنكرة لأولاد عقدي المترفعين ، قبل ان يختفي تماماً .

باتت رقعة الثلج تنحسر رويداً رويداً . شمس متلاحقة دفعته الى الزوايا الظليلة حيث استحال الى تماثيل صلبة تحت انامل رياح الشمال المتدحرجة من قمم جبال طوروس . اما الارض فكانت تميع قليلاً في الظهيرات فتزلق عليها الاقدام في الازقة ، وتتجمد فيما تبقى من اوقات اليوم ، ثانية ، فتزلق الاقدام على زجاجها من جديد . وكان للخطوات عليها ، اذ تتجمد ، وقع أنيس ، يبشر بمجيء امرئ او برواحه : ذلك ما يصغي اليه اولاد الملا عادة ، وهم متحلقون حول المدفأة في غرفتهم ليلاً ، فما دام الكبار يقظين ففي ذلك سلام للصغار . ومضافة عقدي سلام على كل حال ، وهي لا تبدأ شؤون يقظتها إلا مع حلول الظلام ، فيسأل اولاد الملا زوج أبيهم برينا : « لماذا يحمل الضيوف ، دائماً ، صُراً ملفوفة يا برينا ؟ » ، فترد المرأة : « هذه شؤون الكبار يا ملائكتي اللصوص ، وحرى بكم ان تلتفتوا الى شؤونكم » ، وتسترسل لتصرفهم عن سؤا لهم : « سيشتري أبي لزيوان قلم حبر غداً » ، فيدب الصخب فيهم ، بين معترض وفرحان ، بينما يكفي كرزو بنظرة حسد الى اخيه الذي يصغره .

لقد نسوا امر الصرر من تعودهم الطويل على رؤيتها في الايدي ، وهي

«شأن من شؤون الكبار». ذلك ما اهتموا اليه دون محاججات اخرى، على كل حال. واذ وقعوا، مصادفةً، فيما بعد، على ما تحويه، لم يعنهم الاسر كثيراً: تبغ. عينات من التبغ يبسطها الداخولون بين يدي عفدي، ومن ثم يخرجون مخفورين بتوجيهات مقتضبة. لكن الاولاد استشعروا، ذات ليلة، حركة اكثر ثقلاً مما تعودوا في لياليهم من قبل. حتى ان برينا، التي كانت تساررهم حتى يناموا، خرجت الى الظلام ولم تعد، فبادر كرزو الى التسلل مستطلعاً، بعدما القى في اخوته كلمة تحذير لا يستهان بها: «اذا لحق بي احدكم فسأرميه في البئر».

كان جميع من في مضافة عفدي واقفين، يتبادلون عناقاً حاراً مع شاب لم يستطع كرزو تبين ملامحه من خلل الباب الذي نسي الداخولون ان يوصدوه. وكان في الجمع برينا وأمها، ممسكتين بكتفي الشاب كأنها تحاصرانه خشية عليه من فرار محتمل. وإذ استدار الضائع بين القبلات القى عليه السراج شيئاً من ضوئه، فتكشف شعر قصير، متصل بلحية خفيفة حول الوجه، يتوسطها شاربان كثان انحدرتا فوق الفم، كما تكشف حطة سميكة منسلتة حول الرقبة في فوضى، كأنها كان يتقنع بها أن دخوله. وفي برهة من برهات ذلك المهرجان الصغير وقعت عينا الشاب على الصبي المتسلل الى الداخل بنصف جذعه فقط، فابتسم له، مومئاً برأسه إيماء ذات ود، واذ انتبهت الأم وابنتها برينا الى حركته، التفتتا صوب الباب، ثم لوحتا للصبي تلويحة خفيفة تنم عن استنكارهما لدخوله المتطفل، وتهيبان به، بالتلويحة تلك، ان ينصرف، لكن الشاب استوقفه قبل أن يمثل فيخرج: «هيه.. تعال يا يربوع»، فتردد الصبي بين نداء الشاب واستياء زوج ابیه؛ أيدخل أم يخرج؟، بيد أن جهور بن ساري حسم اللحظة: «ادخل يا كرزو. سلّم على خالك». «خالي؟» همسها الصبي لنفسه. لا عهد له بأخوال يرتادون بيت عفدي، ومع ذلك تقدم في اتجاه الشاب الذي كان جهور يبادره شارحاً: «انه من اولاد الملا بيناف، وهم يسكنون هنا، الآن»، فهز الشاب برأسه: «عرفت الحكاية. اكرموهم»، واستدرك فخاطب عمه جهور بصوت خفيض: «ماذا جرى لأولاد خاتي؟»، فرد عمه: «انهم عند مهمد بن كوجري، وابوك يهتم، بنفسه، بامر حشمو في السجن». وفي غمرة حواراتهم الهامسة تلك، تضع برينا يدها على كتف كرزو، مبددة حيرة الصبي: «هذا الشاب هو اخي مجيدو».

بعد ما يربو على سنة عاد مجيدو من «ديار بكر» التركية، متلثماً، وها هو،

الآن، يلقي النكات في الجالسين: «بغل عَرِيْبُو لم يكن ليتزحزح من مكانه ابداً. توقف بعد خروجنا من نصيبين، على تخوم الدغل، البغال الاخرى كانت محملة بما يكفي، ولم يكن ممكناً توزيع أحمالها عليها لتركه خلفنا. قلنا لابن مَيْسِي عليك به، فلك طرائق تزحزح نصيبين بأكملها، فما كان منه إلا ان اخرج كيس النشادر من تحت عباءته، ودس حفنة منه في مؤخرة الحيوان»، وطارت القهقهة حتى ارتعش اللهب في الموقد. «حفنة كاملة»، فتلوى الرجال من الضحك. «ما يكفي ليصعد نهر جفجف مجراه إلى أضنة. .»، فافترت شفتا كروز عن هأهأ مكتومة وهو ينظر الى الجالسين الذين يهتزون ككرات. «و. . . هات يا بغل» دمدم مجيدو. «طار. طار. كتمنا انفاسنا ونحن نرى عريبو يخنفي، راكضاً، وراء بغله»، ومسح دموعه التي انسلت من كثرة الضحك: «قلنا بدأت الورطة. سيفيق عسكر الحدود من دجلة الى درباسية على النيق والزعيق، فكلّفنا اسرعنا ركضاً: عَمَرَكْسَبُو»، ومدّ يده الى علبة عمه جهور، عاقداً منها لفافة: «قلنا: عمر، الحق به بحق الله. خسارة بغل، ولا خسارة ابن آدم. فلحق به الرجل. شجاع وابن شجاع عمرٌ هذا. لقم بندقيته وركض»، ثم توقف مجيدو عن السرد، ناظراً في الوجوه من حوله، كأنها يستحثهم ان يسأله عما جرى في ما بعد، واذ وصل الى كرزو مطّ عنقه: «أتعرف ما جرى؟» فغارت رقبة الصبي بين كتفيه خجلاً من تخصيصه بالسؤال، ثم دارى خجله ملتفتاً الى برينا، هارباً من نظرات مجيدو الذي استرسل: «لم يعد عمر كسبو تلك الليلة. انتظرناه حتى الفجر، ثم اكملنا طريقنا الى الدغل حيث سلّمنا البضاعة الى المنتظرين. بالطبع لم نستطع الرجوع بعد ان فضح النهار المنطقة كلها، وآثرنا البقاء بين الاشجار حتى المساء. جعلنا سائراً من الثلج حولنا، ولم يدخل بلاعيمنا، والله، غير دخان التبغ. واذ هممنا بالعودة، بعد الغروب، وقعنا على شبح متكوّم في المكان الذي هرب منه البغل. تحاشيناه بحذر بليغ، لكن صوته الهادىء جمدنا: «يا جراء إبليس، الافضل لكم ان تركضوا»، فهتفنا به: «عمر؟ أين اختفيت؟»، وتقدّمنا منه فألفيناه مخفياً رأسه تحت عباءته، مخافة ان يبين جمر لفافته التي يدخنها في هدوء غريب. ولما احطنا به، ازاح العباءة عن رأسه، نافخاً في غضب: «أي حمار جئتم به؟»، وازيد قبل ان نسأل، بدورنا، أيّ حمار يقصد: «اتعرفون الى اين اتجه البغل؟. . . الى المخفر التركي مباشرة. أشتريتموه من المخفر؟ وحقّ النعمة لو دلتكم في الليل على المخفر لتّهتم عنه،

لكن ابن الكلب، هذا البغل، قصد المخفر. بغل. ماذا تقول لبغل؟ انما هذا الاحق عريبو. عريبو، وأفقنا، حقاً، على سؤال غاب عنا: «اين عريبو؟»، فوضع رأسه بين يديه كأنها يتأسف على حياته كلها: «عريبو من سلالة البغل. سأشق قميصي اذا لم يكن من سلالة البغل نفسه. لقد دخل المخفر وراء البغل. شدهت فاستلقيت في حفرة على بعد مائتي خطوة من المخفر، كاتماً انفاسي، منتظراً طلفة تأخذ بحياة الاحق، غير اني لم اسمع الا عويلاً ونباحاً، وصخباً ظننت معه ان القيامة قامت، فنذت بجلدي دون النظر الى الوراء. والله لو صوّب دركي بنديته الى ظهري لما استلقيت بعد سماعي ذلك العويل. جُنتِ الجنُّ، هكذا ظننت». ولما رأى مجيدو مبلغ الجّد الذي اصاب السامعين بعد الهزل المقهقه، اختصر الحكاية على نحو مفاجيء: «في تلك الليلة لحق بنا عريبو ببغله»، فقاطعه الجالسون بدّهش: «عريبو؟»، فردّ: «نعم. عريبو وبغله المحمّل تبغاً. لحقا بنا سليمين كراحة يدي»، ورفع يده المبسوطة تحت انعكاس اللهب في الموقد، مديراً بها على كل اتجاه: «أترون؟ لا خدش»، وأضاف: «صُعقنا، ثم توجّسنا خوفاً: كيف نفذت يا عريبو؟ فأجابنا في هدوء زاد من صعقنا: هربوا. كانوا نياماً، واذ دخل البغل، ودخلت من خلفه الى وسط المخفر، هربوا. لو كان لدي بغل آخر لجلبت بنادقهم. قلت لنفسي، هناك، لا مفر. بوغتوا، لكنهم سيطوقون المخفر بعد دقائق، فجلست الى صحن عدس ساخن. ازدردته كله، ودخنت عشرين لفافة دون ان يظهر اثر لدركي، فأخذت برسن البغل وعدت. ضللت الطريق، ولهذا تأخرت عليكم»، فانفجر الجالسون بقهقهة تشقّق الجليد من رينها في الخارج، حتى ان كرزو اتكأ برأسه الى كتف برينا وهو يهتز اهتزازاً يرجّ المرأة في مكانها.

كان عقدي الذي يتسم دون ضحك، على خلاف الجالسين، يجتلس بين البرهة والاخرى نظرات ابوية الى ابنته برينا، التي كانت تكتفي بالابتسام، بدورها، محتفية بأخيها لا بما يرويه. ففي وسع الأب ان يلتقط خلجات صغيرة للأسى تحت اهدابها، وان يعتصره إشفاق يجهد في اخفائه، وهو ليس في حاجة الى اخفائه، او تمويهه، على كل حال، فلحيته الكثّة التي تسلّقت خديه، ايضاً، كفيّلة بذلك. لكن عينيه لا تثبتان على شيء، كأنها تحاولان مباغته الجهة التي سيطفر منها قلق مقبل كالعصارة البيضاء التي تظفر من نبتة الخرنوب اذا تقصّف سويقها. انه يشق لحظته بين غبطته بابنه العائد،

وأسأه على ابنته العائدة، ويبقى حيران في وسط الشرخ . يحاول التوفيق بحكمة الكهولة فيستعصي عليه كبده . «السيد يلجمُ بحيلة سيادته ان يتورَّع ، وانت سيدٌ عفدي» . لكن موعد عفدي مع وجهي ولديه موعدٌ كجرة اصابها حجر . وقبل ان يتدحرج كبده كمدحلة الأسطحة الى هنا او هناك ، ينهض ابنه : «انا عائذ يا ابي . وَصَّني» ، فيجفل الاب : كيف ضاع كل هذا الوقت ولم يظفر بشيء . اين كنت عفدي ؟ ، ويتمتم الرجل في وقار لا توسل فيه : «ألا تريد ان تبقى وقتاً آخر؟» ، فيhez الشاب رأسه : «الكلام دلّوا يا ابي . ستمتلىء الحارة بالخبر اذا بقيت» ، ويوافقه الاب بإحناء من رقبتة ، وهو يمسد على لحيته الكثة بيده .

ينخرج الشاب على عجل ، غير موّدع ، على عكس ما دخل . انه يختصر ، لكنه لا ينسى ان يلقي نظرة على «كرزو» وهو يغمز بعينه للصبي كأنها يوطد مودة لم يسعفه الوقت اليها . وفي الحال ينهض الاب وابنته برينا مواكبين ، فيسارع كرزو ، بدوره ، الى اللحاق بهم في خفة الهرة . وامام بوابة السور ، خارجاً ، حيث ترتجف اربعة بغال حاقدة من انتظارها في ذلك البرد ، تتمم عفدي الى ابنه بضع كلمات تحثه على الحذر ، واحاطت الأخت بعنق اخيها في عناق صامت . اما الأم ، التي خرجت متمهلة ، فقد استندت بيدها الى كتف كرزو ، على مبعدة مترين من المشهد ، دون ان تتفوه بشيء ، متقنعة بالظلام الذي لن يفضح قلبها الصاعد الى عينيها . وفي اللحظة التي هم فيها مجيدو أن يمتطي احد البغال ، بعدما اتخذ ثلاثة من رفاقه مجالسهم على ظهور البغال الاخرى ، استدرك شيئاً فاتته ، فالتفت الى ابيه : «ثمت امر غريب يجري ، في المكان ذاته ، دائماً ، بين الدغل الممتد من «الهلالية» الى «نصييين» يا ابي» ، ومسّد بيده على عنق البغل ، ناظراً ، دون تحديد ، الى الظلام فوق رأس ابيه : «كأنها المسح اناساً مضيين مع بغال مضية ، ضاربة بلونها الى شيء من البفسجي . غريب . دائماً احاول تحديد ما ارى فتزوج عيناى . وثمت . . . نعم ، ثمت من يومىء في مقدمتهم بشيء ما في يده . اقول لنفسي اننى واهم . كل هذا وهم . ما من احد من رفاقي رأى ما رأيت ، لذلك لم احدث احداً بالامر . غريب . . . أجرى ذلك لأحد من رجالك انت؟» ، فرد عفدي دون ان يتبين ابنه ملامحه في الظلام : «احاولت ان تطلق النار عليهم؟» ، «لا» قالها مجيدو ، وأردف : «لا اريد ايقاظ الدرك يا ابي» . فهمهم الاب : «لا تهتم ما داموا بعيدين عنك . والدغل ، على كل حال ، مليء بارواح كهذه . لا تنظر

اليها. الارواح خجولة، وهي تستثار اذ تعرف انك تنظر اليها. من يدري، ربما تكون ارواح خير. تفاعل يا بني». فلم يعقب مجيدو على كلام ابيه، بل وضع كلتي يديه على ظهر البغل ثم قفز متسلقاً الحيوان بصدرة اولاً - لأن ما من ركاب للسرّج يضع فيه قدمه - ومن ثم استوى فوقه. واذ تمّ له ذلك استدار بالحيوان شألاً، ومضى تتعقبه بغال رفاقه.

مذ قتل مجيدو بمسدسه باقي جواني لم يعد الى البيت. اختار البقاء في الجانب الآخر من الحدود السورية، قائماً على تنظيم القوافل وبضائعها، وعلى اختيار الرجال لعبور الحدود، حتى اجتمع له رهط اشبه بفرقة إعدام، وكان المضطلمون بالامر، من قبل، رجال يؤثرون الدهاء على المصادمات القاتلة مع درك الحدود، او المنافسين الذين ينبثقون هنا، وهناك، حيناً بعد آخر. وقد ظل مجيدو، على كل حال، ضمير الظلام وقصاصه المقضي، لأشهر بعد ذلك. لا يرفع الواشون اليه اسماً غير مرضي عنه حتى يدبر القدر كيداً لصاحب الاسم، هكذا، في هدوء تتواطأ جدران البيوت، والقرى، على تبجيل اسراره؛ ثم، وبضربة احكمتها الغابة، في الخط الوهمي الفاصل بين شجيرات الكينا والصفصاف، تحديداً (بل فوق طبقة الطمي الرقيقة للجدول الذي يتفلّت بصعوبة من شبكة العليق، آتياً من المسافة المكشوفة للحدود، غير الأمانة قط، بسبب وجود مراصد فردية ليست غير حفر تحوطها حجارة على غير انتظام، يتلصص من فوقها حرس لا يأبهون ان كانت قبعاتهم ظاهرة ام مخفية). نعم. هناك، في الخط الوهمي المنخفض قليلاً عن مستوى ركام الأوراق، سقط مجيدو بكامل قامته فوق طمي الجدول، وقد حفرت يده، في محاولتها الاخيرة ان تحمي الجسم من ثقل السقطة، اخاديد لينة انسربت منها المياه الى كُمَي سترته، فبللت قميصه الداخلي حتى المرفقين، وجزءاً مما يستر صدره، بعصارة تميل الى السواد، اما وجهه فغاص في الماء، على هيئة سدّ صغير يقطع الانسياب الرُخِيّ للمجرى الضحل، ويولّد الفقاعات الزبدية من حوله.

لم يكن في جسم مجيدو اي اثر لضربة، حين قلبه اصحابه وتفحصوه وجِلين. لقد انفصل عنهم، ذلك الفجر، على حين غرة، وهو يتمتم: «ألن يتعب ابن الكلب من مناداتي؟»، واذ سأله احد رفاقه على اللاتعيين: «من يناديك؟»، رد وقد الوى عنق بغله: «سأبُول»، وأردف كانما اشتد برمه بحال لا تعني احداً سواه: «لا يعجبني هذا المزاح المختلط بكلمة «خالي»». ثم غاب طويلاً حتى عثر عليه رفاقه منكباً على الجدول يسده في حلق غير منظور. ولما

حمله، وسط دھولهم، على بغله، فرّ البغل بالجنة. فرّ سليل الشيطان متجهاً الى دغل العليق والشربين المتاخم لأسلاك الحدود تماماً. لعبة مرة قصيد البغل منها ان يسدل الستار على حقيقة موت ابن عفدي، فبات كل شيء نهياً للأخيلة بعد بحث دام ستة ايام، ولم يبن أثر للجنة.

كان عفدي حانقاً تلك الظهيرة كدبور. دخل ساحة داره في ما يشبه الهرولة، هارباً من حكاية «حشمو» كلها: «تعبت... تعبت من ذبابة عقله». وما كاد يلقي بنفسه على الأريكة الرقيقة داخل مضافته، حتى اجتمع حوله اولاد الملاء، وابنته، وزوجه، وبعض اولاده متسائلين، فاختصر المسألة دون ان يرفع رأسه المتكىء على مخدة عالية في يأس واضح: «كلما اقنعنا القاضي بشيء خرج حشمو بشيء آخر. استئناف وراء استئناف. مجنون... لا احمق... لا. حمار... لا. نريد تسوية الامر على أي نحو كان، لكن حشمو هذا يدوس على امعائنا. نقول له: حشمو، قل انك نصبت الفخ للعصافير وليس لزوجك خاتي، فيرد: أنا أبله؟ هذا فخ مصنوع للكائنات الكبيرة. فنلكزه: نعرف ذلك، لكن عليك الإدلاء بما يدل على انك أبله قليلاً ليكون الاستئناف في محله، فيرد ابن الجرو: أنا أبله لأكون أبله؟». ويستوي عفدي جالساً، وهو يعقد لفافة ثخينة من علته الفضية، قائلاً في أسى: «نقول له: انت لست ابله. غير في الحكاية قليلاً لننتهي من هذه المهزلة، فيرد علينا: «وماذا علي ان افعل؟... آه. نعم. ماذا عليه ان يفعل. افعل اي شيء يا حشمو. نقول له: أخبر القاضي انك نصبت الفخ للذئب، للملائكة، لليل، للثلج، لروح امك يا حشمو. قل أي شيء ولا تتهم اولادك».

لقد حاول عفدي، طوال الربيع، الذي تلا حماقة الثلج الكبيرة في ذلك العام، ان يجنب اولاد خاتي بؤساً يزداد كثافة كدخان الروث الرطب في تنور. ويالحاح من نجمة قلبه برينا، برغم ملآلته الواضحة من المسألة كلها، اقسم - ورجل مثله لا يحث بقسم - ان يناصر يتامى اخت الملاء. ثم بحث عن مدخل لنصرة حشمو فلم يجد - كما أسر اليه الاذكاء - غير اتهامه بالبلاهة، عسى يخفف ذلك من الجرم، فيقتدى الجاني بالمال من «الحق العام» الذي هو قصاص الدولة وحدها، مادام لم يرفع احد ضد حشمو دعوى «حق خاص». وحشمو ابله وبسيط في زعم عفدي وبقينه، فالامر، إذًا، امر تدبير لبق. وقد توصل، فعلاً، الى حصر المسألة كلها في تغيير شهادة الجاني. نعم. «فليغير شهادته. ليقبل، مثلاً، ان الفخ كان منصوباً لذبابة، لحمار، لذئب، للصوص»

قال القاضي لعفدي، وأردف: «انا مقتنع ببساطة الرجل. وسندون الجرهم كحاصل عن غير قصد. كقضاء وقدر»، ثم امر القاضي باحتجاز حشمو رهن التحقيق، لا اكثر، مماطلاً بذلك في اصدار حكم جزائي. وقد حاول عفدي، لأشهر، دفع زوج القتيلة الى ترداد شيء آخر غير الذي يردده كالبلغاء فأخفق. ان حشمو يصير على ما يقول بانفعال واضح، من وراء قضبان غرفة التوقيف: «لست انا من نصب الفخ يا سيد عفدي، اقسام بتراب امي»، فيرد عفدي مهدياً: حشمو. حشمو. لا يهم من نصب الفخ. نريد تسوية الامر كقضاء وقدر. ألا تحب العودة الى اولادك؟»، ويطأ طيء السجين متأثلاً: «كنت المقصود يا سيد عفدي. كيف اقنعك؟ كانوا يلحون علي بالخروج، تلك الليلة، الى الساحة، بحجة أنهم يسمعون حركات مريبة. هاها. شملت الحيلة. اتشمم حيلهم دائماً. والله لو خرجت لوقعت انا في الفخ»، وهنا يعرض عفدي على كم سترته الرقيقة، محاولاً الا يخرج على وقاره: «حشمو. حشمو. يا ابن النعجة، انت تدفع بي الى الهرب»، وقد هرب فعلاً، حينما استوى حشمو واقفاً من وراء القضبان، محتماً بها: «لا تدعني بإبن النعجة يا سيد عفدي». نعم. هب عفدي الذي كان يجلس القرفصاء - ككل من يقابل المسجونين - واقفاً، بدوره، بعد كلمات السجين تلك. التفت من حوله كأنها يبحث عن شيء يسد به ضربه قاتلة، ربها، أوليتلافى ان يسمع احد ما سيقوله: «لماذا لم يقع ابن جرو مثلك في الفخ؟ وحق الله على عباده سأشتري مائة ابريق للمسجد اذا حوكت بخمس سنين، ومائتي ابريق اذا حوكت بعشر».

كان مايزال ملقياً برأسه الى الوراء حين انتهى من آخر كلمة بللت زاويتي فمه ببعض اللعاب الدبق. رفع طرف حطته ومسح فمه، ثم استوى جالساً، فلم يجد في الوجوه اثرًا من تأييد لما فعل. دار على الواقفين من حوله سه وجهاً وجهاً: «ما الذي ينبغي ان افعل يا ملائكة عمري؟». قال ذلك في سخرية ترشح مرارة.

عن «حاول من جديد يا أبي» ارتفع صوت برينا. «مستحيل» غمغم الأب. عقد عندئذ تناهي صوت كرزو: «اولاد عمتي خاتي أبالسة»، فدفعه احد أولاد مواج عفدي من الخلف هامساً: «صوتك مزعج»، فرد الصبي غاضباً وهو يستدير مواجهاً ابن عفدي: «وانت تنطح كتيس». وهنا تدخل عفدي بين الصبيين

الذين تأهبوا للخصام: «هذا ما ينقصنا إذاً. خذا سكينين واقتتلا خارجاً»،
فطأطأ كرزو، بينما خرج الصبي الآخر مقطباً كرجل أهين.
«حاول لمرة اخيرة» رددت برينا في توسل خفي، فوضع الأب رأسه بين
يديه، لاجماً اجابته الغاضبة، ثم رفعه من أثر الجلبة التي تناهت من ساحة
الدار، ممتزجة بعويل رجولي: «مات مجيدو».

لم ينتظر الرسولان مواجهة الأب بالامر، ولم يتصنعا المداورة الواجبة،
عادةً، في اطلاق خبر ضائع كهذا. لقد أعولاً مذ توسطتا الساحة، وصرخا
معاً: «مات مجيدو»، كأنها يخبران الزرية، والصور، والبئر، والعشب المتمايل
على حواف الأسطحة. ثم شد كل منهما حطته عن رأسه كدليل على فداحة
المصاب، وتراخى كفزاعة عصافير، منتظراً رد فعل مَنْ في البيت. ولم يُطل
الصمت إلا لثوان: هصرت الاجساد الأجساد وهي تخرج من المضافة. الافواه
مفتوحة وخرساء من الصدمة، والعيون وحدها تستفسر. غير ان مشهد
الرسولين خيب أي أمل في خطأ محتمل.

كان عقدي آخر من خرج بوجهه الذي خلا من اي لون. اتكأ على
عارضة الباب بظهره، ورفع احدى يديه في صمت الى صدره، معتصراً ثوبه،
فوق القلب تماماً.

عويل العائلة خافت في الساحة، كأنها تمتص الرثات اكثره الى
الداخل. الدجاجات مطت اعناقها وقد توقفت، كل واحدة حيث هي، عن
بلايتها المحمومة. يد برينا، وحدها، علّت الجمع المنحني، في اتجاه الفراغ
العالي، متضرعةً، او محاولةً الإمساك بالمغزل الأبدي الذي يبرم الخيوط ثخينة
اورقيقة بحسب اللعبة وأصولها. وكان ثمة في الاعلى، فوق الساحة تماماً، على
نحو يسد السماء، جاروش كبير تتناثر من حول رَحِيَّه فتافيت عدس أحمر.

قالت زوج عقدي انها ستطبخ عدساً للاولاد بشحم النعاج، وأدارت
المقبض الخشبي المثبت عمودياً في الحجر المستدير. كرررر. كررر. كررر.
رَحَيَّان من البازلت الاسود تدور احدهما فوق الاخرى. اليد الحرة لزوج
عقدي تلقم الثقب الواسع في الرّحى العليا للجاروش بحففات من العدس.
كرررر. صوت انيس في ذلك الظل الصباحي للربع الاخير من ربيع العام.
فراخ الدجاج، التي نما الريش على اجنحتها دون اجسامها العارية، تقترب في
ذل واضح من الجاروش. تقف منصّة الى الصوت وقد حسرت رقابها الرفيعة
الى داخل اقفاص صدورها، قبل ان تتلقم، بخفة السارق، فلقة عدس

سقطت هنا او هناك . أم برينا تهش بيدها ، بين برهة واخرى ، على اللصوص
الجبسورة فينفرط عقدها الحيواني . لكن الدائرة تلتئم من جديد : فراخ في
الاسبوع الثاني من ولادتها . جلود زرقاء او بنفسجية . ريش على الفخذين
والجناحين ، والجزء العلوي من الرقبة . لقد تعرّت من زغبها اولاً ، ثم
اكتست ، شيئاً فشيئاً ، ذلك النسيج الذي يدلّ على نوعها . لا خطأ قط . ما
من فرخة نما على جلدها الرقيق شعر أو وبر ، وما من فرخة اتخذت مزاجاً غير
الذي للدجاج ، اذ لم يقل احد ان احدى هذه الفراخ عفت عن النخالة ، او
الحنطة ، او العدس ، او الخبز الفتيّت ، لتطالب بالشواء ، او بالثريد ، او ببقول
مُتَبَّلَة . هكذا ، ارتأت ، منذ وقت لا ندره ، ان تدور من حول الجاروش
لتختلس من المرأة الرحيمة ما تستطيع نيله من مكان آخر ، دون اختلاس .

كان ثمت تواطؤ خفي بين زوج عقدي وفراخ دجاجها : لا تنظر اليها
حين تسرق العدس ، ولا تسرق الفراخ العدس حين تنظر المرأة اليها . لكن ،
كان واضحاً ان الفراخ تلتزم لعبتها العادية ، دون ان تلفت نظر المرأة الى شيء
غريب يختلط بالعشب المائل الى الجفاف في الزاوية التي يؤلفها تعامدُ السور
والحظيرة . ولما طالت المناوشة بين المرأة وفراخ دجاجها من حول الجاروش - هي
تهش بيدها ، وهنّ ينتكسن قليلاً ثم يتقدّمن - حزمت الحيوانات الصغيرة تلك
أمرها على دفع الملهاة ، التي لن تنتهي بطعمها الشبيه بطعم العدس ، في اتجاه
لم يرسمه ذلك الصباح لدورته العادية . فلقد انفضت عن الجاروش ، جميعاً ،
باتفاق احرص ، ومضت الى الركن ذاك ، حيث العشب الكثيف الجاف في
الزاوية التي يؤلفها تعامد السور والحظيرة . اخفضت اعناقها لبرهة ثم رفعتها
لتمايل الأعراف الحمراء كمروحة من فوق رؤوسها المذعورة .

أكانت مذعورة ، أم تعمدت صخبها الفاضح ؟ ما من شبح يخفى عليه
قصد تلك الكائنات المضحكة بريشها غير المكتمل ، لكن كان على ساحة بيت
عقدي ان تشهد كماأها الربيعي قبل هبوب الصيف بزيانه الماجنة ، لذلك
التفتت المرأة الى الزاوية التي تطايرت منها الفراخ كأنها قذفت بها الارض قذفاً .
وقد خطر ببالها ، للوهلة الاولى ، ان ثمت أفعى ، أو عقرباً أجفلهن ، فقامت
تتفقد العشب . ولم يطل بها بحثها ، إذ نكصت مجفلة بدورها ، صارخة وقد
عمدت ان تحمي رأسها بذراعيها .

دأبت زوج عقدي ، منذ طفولتها ، الى الحركة ذاتها إذ تُفاجأ : ترفع
ذراعيها على نحو يتساوى فيه العضدان مع مستوى الكتفين تماماً ، بينما ينحني

الساعدان انحناء يشكّل فيها كل منها زاوية حادة في المرفق، أي: تتجه الكفان الى الرأس من الجانبين، في محاولة لحمايته من شيء، او لتطويق ما يعتمل فيه من صدمة. لكنها، في اليوم الذي نعى الرسولان ابنها «مجيدو» لم تعتمد الى ذلك. تهذّل كتفاها حتى ليظنّ الناظر انها نسيت ذراعيها في الغرفة آن خروجها، وغشي لسانها طعم حريّف يشبه الوخز. وكادت ان تتداعي فطوّقها بعضهم مُسندين. «مجيدو، أهذه هديتك لنا؟» أطلقتها على غير تبصّر فيما تقول، ثم التفتت يميناً، لتسأل دون تخصيص احد بسؤالها: «ماذا جرى لعريسي أنا؟».

«والله» أقسم «ميرفان»، وكرر: «والله يا سيد عقدي» حين قال مجيدو «الن يتعب ابن الكلب من مناداتي»، سألته: من يناديك؟ فرد - إحزر هذا الرد الغريب - سأتبول. من يذهب ليتبول يا سيد عقدي لا يبدو غاضباً هكذا، بل يبدو عجباً. نعم. حين يحتقن احدها ينسلّ مهرولاً فنهم، اما ان يتمتم: «لا تعجبني كلمة خالي» فهذا. . وهز ياقة جلبابه كمن يرد الحرّ عن عنقه: «هذا شيء مضحك». فارتفع صوت زميلة «رشو» الذي دخل معه الى الساحة حين نعى مجيدو: «ليس مضحكاً ما قاله يا ميرفان. كان يردد مراراً، على نحو مزاح: انا خال الثلج. وكنا نردد، بدورنا، اذ يقول ذلك: كن خال الهواء اذا شئت. كن خال الشرطة، والغابة، والحدود كلها. نعم. فترسم على وجهه تعابير جادة فجأة، ويرد: انا خال هذا الحارس، ويشير بيده الى بقعة بنفسجية من الغابة». وأردف: «في الليل، يا سيد عقدي، تبدو تلك البقعة اكثر شفافية من كل ما هنالك، وفي النهار تبدو داكنة، كأنها تخفي شيئاً يتحرك حركة ثقيلة. دائماً. نعم يا سيد عقدي. . دائماً كان المزاح ينقلب الى شيء جاد. مجيدو يبدأ المزاح، كلّما صرنا في محادثة تلك البقعة، ومجيدو يقطع المزاح، حتى كدنا نظن انه ضجر من صحبتنا. ذلك شيء يكدر النفس يا سيد عقدي حين نفكر اننا نُضجر مجيدو». ويأخذ رشو نفساً ليضيف: «لم يكن يهمننا رزقنا، بل صحبتة الحلوة»، قال ذلك بتملق فرمقه «ميرفان» محتقراً. «آه. نعم» همس رشو، ثم اعتدل بهاجس ان يتلافى نظرات زميله، ويصحح انزلاقته التي لا مبرر لها: «قال سأتبول، ولم يعد. اتجه الى البقعة البنفسجية تلك مباشرة، وحين وجدناه كان ملقى على جدول، ومن حوله تنف صغيرة من اوراق دفتر بهتت كتابة ارقامها. مجيدو لا يحمل دفترأ قط، يا سيد عقدي. نف الاوراق كانت جديدة كأنها مرقها احد لتوه، ونشرها هناك» وتوقف ليرى

اثر كلامه في الوجوه، فعاجل ميرقان سكوت زميله: «أنت نسيت يا رشو ما كان يقوله منذ ان ذاب الثلج. أتذكر- ها- : انا خاله؟ خال من نسأله، فيرد: خال الذي انا خاله. نعم يا سيد عقدي. كان يردد الكلمة في مرج، فلماذا جرى ذلك اليوم ليبدو متأففاً ضيق النفس من ان يكون «خالاً»؟ الله اعلم». «أليس هذا صوت امي؟» سألت برينا اولاد الملاً بيناف، وهي متأكدة انه صوت أمها. كان سؤالاً أخرق على كل حال، لكن في إطلاقه، بصوت مسموع، بعض المراوغة في أمر مؤكد دون ريب: الصوت صوت أمها، فلماذا تسأل برينا هؤلاء الاولاد إذًا؟. لقد توقف الجاروش عن الطحن، ثم علت الصرخة بعد قليل. ولم يلحظ احد، بالطبع، تلك البرهة الصامتة الفاصلة بين الطحن والصرخة، اذ التقدير ان يظن الى ذلك من يراقب الحدث، لا من يغفل عنه. وكانت الفراخ وحدها، بحسب هذا التقدير، قد فطنت الى الامر أولاً، لكنها كانت مشغولة بتدبير حيلتها، فَسَهَتْ عمداً عن سكوت الجاروش لتتھيا للعويل المختنق بطعم الذعر.

ماذا كانت تقول برينا للاولاد في تلك اللحظة؟ لا يهم بالتاكيد ما كانت تقوله وهي تحك بأصبعها، من تحت منديل الرأس، شحمة أذنها، اما الاولاد فبدوا غير عابئين بكلام المرأة إلا قليلاً، مُلْتَمِينَ على طائرِي حَجَلٍ ينقران بجسارة كل اصبع تمتد الى قفصهما.

هكذا كان المشهد بعامته، حين صرخت زوج عقدي، لكن مَنْ يُؤثِّرُ التماذي في الإحاطة بما احتوت الساحة، آنئذٍ، فسيقع على شؤون صغيرة لا تقدّم ولا تؤخر في الرواية اذا روتها امرأة من الحيّ الغربي مثلاً، وهذا ما لم يقع بعناية الوجهاء الطيّفين ممن تنفع شفاعاتهم المخبأة في الشعاعات. . نعم: الشعاعات.

كل بيت له شعاعه، والابواب، والشبابيك، عادة، هي مرتع هذه الشعاعات، غير ان بعضها يدلف من السقوف أيضاً. وللتفصيل يمكن الاشارة الى ما يلي: الابواب الخشبية ملائى بمراكز داكنة صلبة تتمايز عما حولها، وهي، ببساطة، عبارة عن طفرات كانت تشكل غصوناً، في ما مضى، في جذع الشجرة الأم. وحين يسوي النجارون لوائح الخشب بمناشيرهم، تبدو الامكنة التي انبثقت منها الغصون في الجذع على شكل مراكز لولبية، وهي غير ثابتة بعامته، يمكن دفعها باصبع اليد لتسقط من الجهة الاخرى، ويبدو مكان كل واحدة ثقباً، كأنها لم تلتحم الغصون في الاساس،

بمحيطها. انها مسألة مرسومة على كل حال، فلقد حاول الغصن في انبثاقته ان يستقل عن الجذع فاستعصى عليه الامر، بحكم انه لا يملك، اضافة الى إراداته الخفية في استقلاله، ما يمكنه من ذلك: اي: ان يركض وحده الى تربة اخرى، ويحفر حفرة يودعها جذوره، ثم يردم التراب عليها، لينصرف الى تأملاته - كعادة النبات - في الحكمة من ان تكون الفاكهة سبباً للحروب.

هذا بعض مما أُشِيرَ اليه في امر الشعاعات، والامر الآخر ان النوافذ تترك في ثناياها مسارب أيضاً. فالنوافذ محض كوى كبيرة، ذات اطارات خشبية تضم رقائق من الزجاج، يسدل عليها، من الداخل، ستار ذو قسمين، ومن الفاصل بينهما ينحدر شعاع ما. اما السقوف فذلك امر متروك لما يولده الدُّلْفُ الشتائي، والريعي، من ثقب لا تراها العين في اول الامر، ومن ثم توسّعها اليعاسيب صيفاً، فتفتحهما الشمس بفضولها ومكرها. غير ان الامر قد ينسحب على كل جهات البيت: اي: الجدران ايضاً، على النحو ذاته الذي يجري للسقوف. لكن يبقى الاكثر مثاراً للتأويل ما يتخلل ارض الغرف نحو الأعلى، تلك الارض الكتيمة عادة، المجبولة بآلاف الزوايح من التراب الاعمى، المرصوفة بالمداحل الحجرية، والأرجل، وقهقهات جبّالي الطين، الذين ابتلت لفافاتهم، حتى منتصفها، باللّعب، وهم لا يبعدونها عن شفاههم دون ان يبلغ الجمر مبلغاً يحرقها عن قرب: هكذا، نعم، تبقى اللفافات مشتعلة الى اعقابها وهم سادرون في حركتهم الخرقاء كاللقالق؛ تنزل ساق وترتفع ساق في العجينة الداكنة، السمراء، التي ستغطي جدران البيوت، وأرضياتها.

من الارض، إذأ، في اتجاه الأعلى. أي شعاع شيطاني ينتفض تلك الانتفاضة من وسط الظلام السحيق في مجاهل الطين؟. من الأرض في اتجاه الأعلى الأبكم، إذأ. من الأرض؛ من الجبلّة الاكثر فوضى كرُدني ثوب زوج الملاً في فرعها، ينبث الشعاع الذي يُلجَمُ لَسَانُ الراوي.

هكذا، إذأ، كان المشهد الذي يحوي، بعامة، شؤوناً صغيرة لا تقدّم ولا تؤخر في الرواية على كل حال، وهي، بحسب ما يمكن ان يُسمَعَ او يُرى، في الساحة، لا تجاوز الحوار الغريب للبقرة في الزريبة؛ واهتزاز الدلو المعلق بالعتلة فوق البئر، كأنها هزّت الحبل يدً من القاع؛ ومرور فراشة مستعجلة؛ وشتيمة من داخل غرفة اولاد الملاً، حيث يبقى الأصغران وحدهما بعد ان

يذهب الأكبران الى المدرسة؛ ورنين قطعة معدنية على شيء صلب، ولم يكن ذلك الرنين إلا من أثر سقوط قرط من أقراط المرأة، إذ قامت لتستطلع الامر، فوق حافة الجاروش الحجري. وقد تطلعت زوج الملاء، حين سماعها الصوت، الى الاسفل، بعدما كان نظرها مثبتاً على الزاوية التي أْجَفَلَت الدجاجات، فرأت قرطها غائصاً حتى منتصف حلقتة في العدس المطحون، لكنها ارتأت التقاطه في ما بعد. وهكذا تقدمت صوب الزاوية ذات العشب، واطلقت صرختها، وهي تحمي رأسها بذراعيها كأنها يحاصرها كربٌ مخيف.

كانت برينا ماتزال تسأل نفسها، على نحو كاللّمح، السؤال ذاته: «انه صوت امي، فلم أسأل الاولاد لمن يكون؟». انها برهة مضحكة بين سؤالها الأبله وخروجها من الباب. وقت يشبه طرطقة اللّبان في الفم. وإذ أدركت أمّها قرب الزاوية التي كان يشغلها صندوق جدّها، في ما مضى، أمسكت بردنها تهدّئها، بينما ظل وجهها منصرفاً صوب ما علمت انه مصدر الفزع، ومن ثم تركت الرّدن مأخوذة بما تراه من خلل العشب المائل الى الجفاف، وتقدّمت قليلاً لتتأكد عن كثب، فارتدّت مثلما ارتدّت زوج عقدي من قبل، وهي ترفع يديها الى وجهها لتقيه من هبوب المشهد: كانت الزاوية ملأى بأصابع منبثقة من التراب، داكنة الجلد قليلاً، وتتحرك حركة بطيئة كأنها تومىء الى أحد.

لن تقارن برينا في ذاكرتها المستدير كفوهة البثر، يقيناً، هذا الحقل من الاصابع إلا بالبذور الأولى التي رأتها في المنديل حول مسكن جدّها، ذلك المنديل الذي أثار جنون أبيها، وجنون الماضي الذي استثاره ابن علي مشكي باطلاعه على رسائل المعلم المغلقة، في الغابر القريب. وبعد برهة الدّهش الاول، الممتزج بطعم يصعد مما وراء الطعم، قائم بذاته، متصل بمفاجأة غير الأليف وطفراته، خطر ببال برينا، وهي تدفع بأمّها لتستدير عن المشهد، ان تنظف الزاوية من ذلك الزرع الغريب. وبعدما قادتها، في سرعة، الى احدى غرف المنزل، عادت ثانية بمعزق كانوا ينكشون به التراب من حول الشجرات، عادةً، وأهوت على الأرض، مغمضة العينين، بضربات أودعتها الكثير من الفزع والاشمئزاز معاً، حتى غطتها زويدة صغيرة من التراب المتناثر، والعشب وما يحتويه.

لومرّ محراث تجرّه عشرة ثيران على أرض الزاوية تلك لما عدلَ فعْلُهُ فعلَ برينا. والثيران، بتقدير بسيط، لن تصطدم بالجدارين اللذين يشكلان

الزاوية على كل حال، وهذا ما فعلته زوج الملاّ. فأثار المعزق جاوزت الارض الى جدار الزريبة وجدار السور، كأنها حاولت المرأة ان تمحو الركن كلّهُ؛ أن تمحو ماضي هذه الزاوية وحاضرها. وقد حالفها قصدها يوماً واحداً، لا غير. ففي اليوم الثاني، وفيما حاولت برينا وأمها، معاً، طيّ ذعرهما، وإدراج ما رأتا في عقْد ما تحفظان من اسرار خاصة، علت صرخات اولاد الملاّ كمثّل صرخات الفراخ في اليوم الذي سبق. وعلى النحو ذاته الذي حمت زوج عفدي رأسها بذراعيها، حمى عفدي رأسه بذراعيه، لكن دون رفعها عالياً الى مستوى الجبهة والعينين، لما يعني ذلك، حتى دون قصد، من انتقاص لجسارته. لقد رأى عفدي، ايضاً، حقلاً صغيراً من الاصابع، في الزاوية التي لم يعرف ان ابنته حرثتها حرثاً من قبل، بعدما لفت ناظره اولاد الملاّ بصراخهم، واجفالتهم.

تقول زوج عفدي لابنتها برينا انها لم تشهد - ولم يحدثها احد انه شهد - تسارعاً في النمو كهذا. وتضرب الفُطْر مثلاً، كاستثناء، دون ان تجد الى غيره سبيلاً: «الفطر ينمو بتسارع. الفطر، نعم يا ابنتي. اغسله بماء بارد، وادلقي الماء حيث تريدن، وسينمو فطر بعد اربعة ايام على الاقل. اربعة ايام... وليس، كهذه الاصابع، بعد يوم واحد».

كان مثّل الفطر أمراً عادياً: يعلق به طلعٌ كثير، فاذا غسل نما في المكان الذي يجرف الماء الطلّع اليه، في مدة لا تتجاوز خمسة ايام من ايام الربيع بالطبع. لكن، كان في ودّ برينا أن تذكر أمها أن مقارنة النبات بالأصابع لا تعنيها. «فلينبُ الفطر في يوم واحد. فلينبُ في ساعة واحدة» تقول برينا في قرارها، وتنظر الى أبيها في أسى، مضيفة، في قرارها ايضاً: «إن ما نتحدث عنه هو أصابع آدمية يا أمي... أصابع آدمية».

من سيعيد ترتيب البيت؟ زلزلة صغيرة ضربت عائلة عفدي بعد انصرافه الى مترين مربعين لا يتعداهما بمشاغله، في الزاوية التي شغلها، من قبل، صندوق أبي امرأته. لكن تقدير العائلة بأن في مُكْنَةِ جهور - أخي عفدي - مثلاً، أن يعوّض على العائلة حضور رجل على قُدْرها، وفي أن ما تملكه من جاه لا يحوجها الى سؤال أحد، لم يكن في الحجم الذي تقتضيه المأساة: لقد خلط «جهور» الأمور، فأقعد الحي الغربي وأقامه، واقتضت حال عفدي أن يتم تبذير الجاه في شراء الألسنة عن إشاعة ما يجري، حتى لقد جرى الكرم، في ذلك الزقاق، جَرِي السيول الصغيرة في الشتاء: لكل بيت مؤونة من القمح

تزيد عن خمسة أكياس، وما يكفي ستة أشهر من التبغ، فلم ينطق أحد، بعد ذلك، باسم عفدي إلا شاكراً. غير أن عفدي كان منصرفاً الى شؤونه، تاركاً لأخيه الجُهم إصلاح الظاهر في الأعين الفضولية، أما الخفي الذي يحجبه السور فذلك أمرٌ على خللٍ لن تُصلحه آلهة الشمال.

دون أسراف في التقديم أو التأخير، نصب عفدي خيمة فوق المثلث الذي شغله صندوق ما ذات يوم، وزودها بسرير وبإبريق للوضوء، ومن ثم قبع في داخلها لا يخرج قط. ولم يكن من شيء يدل على وجوده إلا صرخته بين حين وآخر، طالباً تزويده بمقص أكبر، من تلك المقصات التي يشدّبون بها غصون الشجر، ويجزّون الصوف، أو طالباً فؤوساً ومعازق جديدة. ويقيناً، لو جرى حساب ما دخل الخيمة من مقصات وفؤوس ومعازق، لانصرف الظن الى أن جيلاً من البستانيّين يبيء العدة، داخل ظلام الخيمة، لاقتحام المسافة ما بين نهر «جغجغ» والخابور.

هكذا، ببساطة، كانت صرخة الأب تعلو فيأتي ما هو مطلوب على الفور، فيُلقي أمام باب الخيمة الى ان يأخذه عفدي تحت ستار الظلام، ومن ثم تتكوّم، صباحاً، مئات من الأصابع، كقرون البازلاء، خارج باب الخيمة أيضاً، فيأتي من يأتي، في ما يشبه الواجب اليومي، ليجمعها بمنكاش صغير في حفرة أعدت، خصيصاً، لإحراقها.

كل يوم يرتفع النشيش الذي يحدثه احتراق لحم نيء، باكراً، قبل ذهاب أولاد الملا وأولاد عفدي الى مدارسهم. وكانت برينا وأمها تتناوبان المهمة دون سؤال عن انتهائها. تفكرتا في الامر لأكثر من اسبوع ثم توقفتا. بذور لا تنتهي. قطاف في الصباح ونماء في الليل. تعاقب شيطاني يغري بالاستسلام لا بالسؤال. وحال المرأتين هي حال عفدي تماماً. فقد استبدّ به غضب اخرق بعد يومين من الذهول، واستحال الغضب، من ثم، الى شأن لا يتعدى مهمة أسندها أحدهم الى عفدي، فاستغرقت.

نعم. ذهل حين رأى الأصابع أول مرة فقطفها، فنمت في اليوم الثاني، فقطفها. ولما أدرك السخرية التي تلوح بها الزاوية بين الجدارين مثل ورقة من اوراق الملكيّة الميريّة، استشاط غضباً، فحفر الارض، وردمها، ورش عليها الكيوسين، وخبأ تحت السور بضع ترقوات من ترقوات الاغنام كتبت عليها آية الكرسي، وبال هناك، بل ترك البقرة تبول بدورها، من دون فائدة، فاستسلم. جمع بضعة مقصات، ومناكيش، ونصب خيمة فوق مثلث

الزاوية. ثم أَلَفَ ما كان يجري في الداخل المظلم كأَسْئَلته فلم يعد يخرج من الخيمة.

كانت العائلة تسمع، في فترات متقاربة من ايام ذلك الإعتكاف، جدلاً تتصاعد وتآثره نبرة بعد نبرة. فالجُمْلُ المتقطعة، أوّل الامر، باتت تتسع وتسترسل، والصوت المضطرب، الخفيض، بات اكثر ثقة ومناورة: «لا يهم. لا يهم. اعرف حدودي» تلك كانت الكلمات الأثيرة في الجدل المحتدم داخل الخيمة، بل تلك كانت لازمة كل انتصار يمكن استشفافه من صوت عفدي الواصل. ولما همّ جهور، مرة، ان يداهم الخيمة ليرى جليس أخيه، اصطدم بستار خشبي ارتفع، خلف القماش الخشن، بإحكام: لقد سور عفدي حدود ظلامه كما ينبغي. بعد ذلك نهت العائلة جهور عن اقتحام «المقام المستور»، مضيفة على خلوة الأب، في رهبة، ما يليق بها من قدسية السر: «جهور» همست زوج عفدي الى أخيه زوجها، ولما مال بعنقه صومها، دون ان ينظر اليها بعينه، كما يفعل الرجال امام المحارم بتعقّف ظاهر، أضافت: «احترم أخاك». فhez الرجل الجهم برأسه موافقا، غير انه خلط الأمور، فأقعد الحيّ الغربي وأقامه.

«أنت السبب». كل مساء ترتفع الكلمات نفسها: «أنت السبب»، حتى لتكاد الخيمة أن تنفجر ملأً. «أنت لا تفهمنا». عفدي يسترسل دون ان يترك جليسه الخفيّ فرصة للكلام: «أنت لا تفهمنا»، ويدمدم: «لا تعبر دغل الشربين. نحن نفهم ما الذي يخطر ببالك. أخذت اكثر من كفايتك، حتى انك لن تترك لنا إلا حدود هذه الأسوار الضيقة... إسمع»، وتطرق الألواح الخشبية داخل الخيمة وقد تباعدت في عبور عفدي، ثم يخشخش قماش الخيمة المنسدل على الألواح الخشبية، لافظاً جسد الرجل الى الظلام. نعم. فيما يشبه الهبوب المفاجيء يخرج عفدي من الخيمة ليلاً، بعد إطلاق كلمة «إسمع»، وهو لا يضيف شيئاً اليها، كأنها يريد لها وعيداً صرفاً.

ما من احد يرى عفدي تلك الساعة التي تشغل المكان ذاته من كل ليلة. انها ساعة جدل لا اكثر؛ ساعة ظلام تصغي العائلة اليها في اهمال بعدما كانت تصغي اليها في جدّ صارم. الخيمة وحدها تعيد ترتيب الظلام، واللغة، والصوت. الخيمة الملولة تودّ ان تضيف الى الحوار شيئاً آخر. انها ترصد ساحة المنزل نهاراً بكل ذلك العبور المضحك لكائناتها: بشر يتهايمسون، او يتشائمون، والصّبية منهم يتجاورون ناظرين شزراً بعضهم الى بعض. النساء

مشغولات بشد الأحزمة على الخصور في قسوة لتبدو ضامرة، والدجاجات تتغامز قبل ان تلتقط النحل في المساحة الرطبة حول البئر، حين يأتي شارباً ما ينسل من الدلو المثقوب. وللظلال شؤونها أيضاً في الساحة، فهي ترسم حدوداً واضحة من حول اشكالها وحجومها، بلون ضارب الى صفرة فاتحة، كأنها تحذر كائنات الضوء من الاقتراب.

الخيمة ترى هذا نهراً، وفي الليل تتململ من الحوار المُربك، بل تهتم ان تنكمش فتعلق أطرافها بالسياج الخشبي المرتفع في الداخل، لصق حدود القماش السميكة تماماً. «آه عقدي. توقّف قليلاً عن ترداد هذه الكلمة المملة» تهمس الخيمة لنفسها، أما آخر من يستسلم للنوم من العائلة، ويكون شاهداً بأذنيه على الحوار المترجرج في الظلام، فليس في وسعه إلا الشتم: «أعندك غير كلمة «اسمع؟» لو تحتق بها. لو يحتبس بولك...». غير ان الضجر يأخذ منتهى شكله، متمدداً برهة بعد اخرى، ويوماً بعد يوم، حتى يقرر جهور أن يملأ كفتي ميزان الحي الغربي المتذبذبتين بحكمته الثقيلة كصيف الشمال.

«أنت السبب» صرخ جهور وهو يدور على نفسه قرب الخيمة، ويرفع يديه في ضراعة غاضبة صوب الفراغ: «من السبب يا عقدي؟» شبعنا من «أنت السبب». والله لولا اسئلة الناس لأقمت حول الخيمة سوراً يرتفع مائة متر. من معك؟ جنت أنت فما ذنبنا؟ دفعنا الكثير لإسكات الناس»، فقاطعته امرأة عقدي: «اتكلنا عليك لتصون سمعتنا يا جهور»، فتوقف الرجل المزد وقد اتكأ بيديه على حافة الجدار الدائري للبئر، ناظراً الى الماء البعيد في القاع، حيث انعكست صورة رأسه على نحو غير واضح.

ما من سبب لينفجر على هذا النحو، وما يتلفظ به لا يعدو ترهات تليق بصبي طائش. انه يدرك هذا تماماً، ويلوم نفسه، في قراره، على ترده الى بيت اخيه كل يوم: «الأطمئن؟. انهم في خير، وهم يستطيعون الحضور إلي إذا اقتضت الضرورة». آه جهور. ثمت شيء آخر غير هذا كله يدفع بك الى المرور بساحة بيت اخيك قبل إكمال طريقك الى بيتك. فضول كالشهوة؛ فضولك جهور، وأنت لا تحفيه، حتى أنك لتود ان تغلق عيني زوج أخيك بحفنتين من الطين لتصرفها عن هذا التعرف الواضح على صورة اعماقك. لا يخفى عليها، ولن يخفى على أحد ما تعتمله نظرتك الى الخيمة. أتود أن تحرقها؟ أم تخرج أخاك الى الضوء، صارخاً به «أفق. الساحة ماتزال هي

الساحة نفسها يا عقدي؟ لكنك منصرف الى رغبة ليست هي إحراق الخيمة أو إخراج أخيك.

«أريد أن أقول كلمتين بحق الله» يهتف جهور وهو يمسك بتلابيب ثوبه كأنها سيمزقه. ويردف: «لي الحق في قول كلمتين»، مشيراً بإصبعه الى الخيمة، بينما انصرف بوجهه كله ناحية زوج أخيه وابنتها برينا. وعلى نحو مضحك تقتحم ابنة جهور، ذات الأعوام الخمسة، الساحة صوب أبيها، متقطعة الأنفاس، يصحب صراخها نشيج مريز: «بأااا»، فيتلففها الرجل ملء ذراعيه، ناسياً ما به: «إهدأي.. ماذا..»، فتتلفف البنت باختناق: «ستخفني الجن». فيربت جهور على ظهرها: «أي جن يا ابنتي؟ أنا لن اسمح لجن بإخافتك». لكن الطفلة تزداد تشبثاً بثوب أبيها، وقد دفنت وجهها بين ساقيه: «إنها في الزقاق يا أبي»، تقول ذلك بإلحاح من يرى شيئاً ظاهراً تلمسه اليد.

«من تعتقدين ان عقدي يخاطب بكل هذه الثروة؟». سأل جهور زوج أخيه قبل برهة من نفاذ صبره ذاك، فالتفت صوب الخيمة وقد صالبت يديها على صدرها: «لا أعرف. إنه يقتسم ارض موسيسانا بينه وبين شخص آخر لا يوافقه على كل شيء، لذلك يغضب عقدي»، وازدادت متسائلة: «من أعطاه الدفتر؟»، فرفع جهور حاجبيه: «أي دفتر؟»، «ذلك الذي يسجل عليه» ردت المرأة، فاسترسل جهور «يسجل ماذا؟»، فردت المرأة ثانية: «ما يسجله التجار. أنت تعرف ما يسجله التجار يا جهور. أنا لا اعرف القراءة»، فحاول الرجل الجهم قُدر ما يستطيع استجماع معرفته بأخيه فأخفق: «أكان يقرأ ويكتب؟» ساءل نفسه، ولم يكن قد ساءلها من قبل قط، ثم تفرس في وجه زوج أخيه: «أين الدفتر؟»، فردت: «الدفتر معه. اعتقد انه معه. لم نر غير صفحات ممزقة خارج الخيمة»، فسأل جهور: «وأين هي؟»، «لا أعرف أحتفظ بها الاولاد ام لا. أريناها لهم ولم نستعدها»، ثم ضيقت ما بين جفونها: «أهي مهمة؟» سألت الرجل الجهم، الذي رفع كتفيه: «وكيف لي أن أعرف؟ حاولي أن تجديها». وقد دخلت المرأة إحدى الغرف، فعلاً، وغابت لتعود، من ثم، بقصاصة صغيرة جداً: «لم أجد غير هذه. أعتقد أنها من الدفتر؟»، فرفع جهور القصاصة الى مستوى عينيه. دورها بين أنامله كأنها لا يعرف من اين يبدأ. والظاهر، حقاً، انه لا يعرف من أين يبدأ. أيعرف جهور القراءة؟. حين حمل جهور القصاصة الى مستوى عينيه لم يسأل نفسه

قط إن كان يعرف القراءة. «لماذا تغيب عني الامور اليوم؟» يسأل الرجل الجهم أعماقه، بينما تستمر القصاصة منقلبة بين الانامل الخشنة، تعلو حدودها وتُسفل.

لم يكن يميز جهور استقامة الارقام تلك اللحظة. ولم يكن يميز وضعها الصحيح امام العين اذا ارادت ان تقرأها، لكن لم يُخَفَ عليه اللون الحائل لقلم الرصاص الذي خطها. «أليست قديمة هذه القصاصة؟» سأل جهور زوج أخيه، فردت: «هذا ما قاله الاولاد أيضاً. كيف عرفت؟»، فتطلع اليها مستصغراً ولم يجب.

أكان هذا السؤال الساذج سبباً في انفجار جهور، الذي كاد ان يداهم الخيمة في لحظة حنقه؟ لا يهم ذلك الآن، بعدما تشبثت ابنته بشويه دون ان تهدئ نسيجها كلماته التي تفوه بها. وقد رفعها عن الارض قليلاً بذراعيه، هامساً في حنو: «تعال لي نرى. تعالي، سأجعل الجن تقبل يديك»، وخرج بها الى الزقاق.

حُصِي طائشة كذُكِر الإوز دحرجت كرتها الثقيلة، مصطدمة بكل شيء. البنت الصغيرة تشير بإصبعها في دلال يعلو خديها برهة بعد برهة فيتوردان، والاب ينقذ دون مساءلة. سباق بين بطش رجل وشهوات طفلة. «هذا يا أبي.. هذا جني»، وتشير الى أحد الأبواب في الرقاق، فيصدمه جهور بكتفه حتى يتخلع إطاره، وتتشقق القشرة الطينية من حوله في سور هذا المنزل أوداك. تقول الطفلة: «هذا جني» مشيرة الى أيما نافذة فتهر النافذة تحت قبضتي الرجل العمياوين. «هذا جني» وتشير الى عنزة كسول تقتطف نبتة كسولاً لصق أساس سور ما، فيضرب بها عفدي ذلك السور بعدما يمسكها من قائمتيها الخلفيتين.

كل ما في الزقاق جني أو نسل جني. وطاعة الأب غير المحدودة في سكرته الخفية المحمومة تُسَلِّم الطفلة الى هذيان سلطتها. فهي تزداد براعة في إشاراتها ثانية إثر ثانية، حتى أنها باتت تشير باليدين معاً، الى أشياء وكائنات في جهات متنافرة، كأنها تريد حصاراً أعظم لا يفوته الزقاق، والبيوت في الزقاق، والسماء التي تعلوه، ولم يلبل ذلك من قدرة الأب على متابعة اليدين الصغيرتين في شيء. انه يطيح ببابين معاً؛ بشباكين معاً؛ بدجاجة وبجدار معاً؛ بحيوان شارد في الزقاق وبالقصب الذي أكمل به بعضهم أسواراً غير مكتملة، معاً؛ بالريح وبالظهيرة معاً.

أَبُّ يَمْتَحِنُ أَبْوَتَهُ بِمَدْيٍّ يَلِيقُ بِرَجُلٍ جَهْمٍ مِثْلَ جُهورٍ، لَكِنَّهُ يَكَادُ أَنْ يَسْتَعِيدَ، فِي مَضَائِهِ الْأَبْكَمِ، ثَانِيَةً مِنْ حِكْمَةِ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَعْيِي حَدُودَهُ، ثُمَّ يَجَاوِزُ ذَلِكَ، عَائِداً، كَرَّةً أُخْرَى، إِلَى امْتِحَانِهِ الْإَعْمَى لِأَبْوَتِهِ الْعَمِيَاءِ. لَقَدْ أَشَارَتْ ابْنَتُهُ، فَجَاءَةً، إِلَى شَجَرَةِ الْكِينَا الضَّخْمَةِ الَّتِي قَسَمَتْ سُورَ مَنْزِلِ «ابْنِ بَسَنَةَ»، فَتَوَقَّفَ بِرَهَةٍ، ثُمَّ اقْتَحَمَهَا اقْتِحَاماً، فَارْتَجَّ جَسَدَهُ عَلَى جَذْعِهَا. عَادَ أَدْرَاجُهُ مَرْتَنِحاً وَأَهْوَى بِثَقْلِهِ عَلَيْهَا ثَانِيَةً، فَارْتَجَّ كَقَرَصِ جَبْنٍ تَحْثُرُ تَوّاً.

كَانَتِ الظَّهِيرَةُ تَنْسَلُ لِنَفْسِهَا مَكَاناً لَعَصْرَ ذَلِكَ النَّهَارِ أَنْ ارْتَدَّ جَذْعُ جُهورٍ عَنْ جَذْعِ شَجَرَةِ الْكِينَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، وَقَدْ تَوَالَى الْأَمْرُ، مِنْ ثَمَّ، بِحَسَبِ مَا رَأَى أَهْلُ الزَّقَاقِ كُلُّهُمْ، حَتَّى الشَّفَقِ، فَانصَرَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَالرَّجُلُ عَلَى حَالِهِ: يَتَرَاوِجُ عَنِ الْجَذْعِ وَيَهْوِي عَلَيْهِ بِكُلِّهِ. يَتَرَنِّجُ قَلِيلاً، وَيَسْتَقِيمُ بَعْدَ التَّرَنُّجِ مَتَرَاوِجاً، لِيَأْخُذَ جَسَدَهُ الْمُقْدُوفَ صَوْبَ الشَّجَرَةِ ثِقَلَهُ فِي الْمَصَادِمَةِ.

وَحَدَّةٌ، كَالزَّقَاقِ الْمُسْتَوْحِدِ وَسَطَ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ الَّتِي أَوَّتْ إِلَى مَا وَرَاءَ اسْوَارِهَا، طَوَّقَتْ جُهورٍ، وَابْنَتَهُ، وَالشَّجَرَ، فِي مَشْهَدٍ لَا تَضِيئُهُ إِلَّا قَنَادِيلُ مَخْتَنِقَةٍ مِنْ فَوْقِ سَطُوحِ الْبُيُوتِ، فَالَّذِينَ انْفَضُّوا عَنِ الْحَلَةِ الضَّيِيقَةِ، وَأَنهَوْا عِشَاءَهُمْ فِي أَوَّلِ الْغَسَقِ، عَادُوا إِلَى مِرَاقِبَةِ الرَّجُلِ الْجَهْمِ مِنَ السَّطُوحِ، وَهُمْ يَنْكَشُونَ اسْتِنَاهِمَ بِمَا اقْتَنَطَفَوْهُ مِنَ الْقَشِّ الرَّقِيقِ فِي مَكَانَسِ الْخَرْنُوبِ. وَكَانَ وَاضِحاً أَنَّ مَا مِنْ امْرَأَةٍ، أَوْ رَجُلٍ، أَوْ طِفْلِ، يَنْتَسِبُ إِلَى عَائِلَةِ «سَارِي»، يَشَارِكُ الْمَشَاهِدِينَ، الَّذِينَ ضَمُّوا مَا بَيْنَ أَجْفَانِهِمْ فِي الظَّلَامِ، مَا يَشَاهِدُونَ. فَلَقَدْ غَابَ عَنِ الْمَشْهَدِ، عَلَى نَحْوِ يَسْتَعِصِي عَلَى التَّفْسِيرِ، نَسْلُ عَقْدِي وَنَسْلُ جُهورٍ مَعاً، وَالْحَاضِرُ الْوَحِيدُ كَانَ ابْنَةُ الرَّجُلِ الْجَهْمِ، الَّتِي مَا فَتَتْ تَصْرُخَ مَلءَ وَدَجِيئِهَا، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى شَجَرَةِ الْكِينَا: «أَنَّهُ يَقْتَرِبُ يَا أَبِي. الْجَنِّي سَيَأْكُلُنِي»، وَكَانَتِ الصَّرِخَةُ تِلْكَ كَافِيَةً، بِالطَّبْعِ، لِأَنَّهُ يَسْتَمِرُّ جُهورٍ فِي اسْتِغْرَاقِهِ الْعَنِيفِ ضَدَّ الشَّجَرَةِ مِائَةَ عَامٍ. وَبَعْدَ وَقْتٍ عَادَتِ الطِّفْلَةُ إِدْرَاجَهَا إِلَى الْبَيْتِ أَيْضاً، تَارِكَةً لِأَبْيَهِهَا وَحْدَهُ أَنْ يَحَاصِرَ الظَّلَامَ بِلَهَائِهِ الْمُتَقَطِّعِ. أَمَّا مَنْ كَانُوا يَرِاقِبُونَ، مِنْ فَوْقِ السَّطُوحِ، فَقَدْ نَزَلُوا السَّلَامَ الْخَشْيِيَّةَ ذَاتَهَا الَّتِي ارْتَقَوْهَا، بَعْدَمَا نَهَرُوا عَنْ بَعْضِ إِدْرَاجِهَا دَجَاجَاتٍ رَقَدَتْ خَلْسَةً فَوْقَهَا، وَكَادُوا أَنْ يَطَّأُوهَا بِأَقْدَامِهِمْ فِي الظَّلَامِ.

لَمْ يَكُنْ عَادِيّاً لَيْلَ ذَلِكَ الزَّقَاقِ فِي الْحَيِّ الْغَرْبِيِّ: كَانَ الْفَحِيحُ الْأَخْرَسُ لَرْتِي جُهورٍ الْمُتَعَبَتِينَ يَكْشِطُ الْقَشْرَةَ الطِّينِيَّةَ لَجْدِرَانِ الْبُيُوتِ كَمَنْكَاشِ حَدِيدِي. أَمَّا صَدْيُ ارْتِطَامِ جَسَدِهِ بِالشَّجَرَةِ، حَتَّى الصَّبَاحِ، فَقَدْ قَسَمَ أَحْلَامُ

النائمين، حتى اكثرها جالاً مثل حلم «عَرْنَا حَمُو»، تاجر الغنم، بحصّادة «جون دير» الخضراء الملتمة الإلهية، الى مقاطع يرفع فيها النائم رأسه لاعناً شجرة ابن «بَسْنَه»، أصلها وفصلها. وفي الصباح التّم لفيف غير فضولي حول الشجرة من أهل الحي، والدليل على عدم فضولهم انهم كانوا ينظرون الى جهور وهم يتحدثون عن أمر ما يخص الحكومة، و«عنود» البدوية التي ترتدي زي الرجال وتتمنطق بمسدس، والثكنة العسكرية لصق الحدود التركية، وسرقة سوق «صاغة الذهب» في الحي اليهودي، وكان لابد من أحد لم ينصرف الى ما انصرفوا اليه ليعيدهم الى المشهد، وهذا ما حصل بوصول عائلة جهور كلها، وعائلة أخيه عفتي وأولاد الملا: الصغار، مع تفاوت اعمارهم، ظلوا خلف الكبار، متلصصين من كل ثغرة بين جسدين، اما الكبار فتقدموا اكثر مما ينبغي، بحسب رأي بعض الحاضرين، اذ حجبا عنهم ما يريدون رؤيته من آخر احوال جهور الجهم.

كيف غاب عن الحاضرين، حقاً، أمر الشجرة التي انهار جهور جالساً تحتها؟ ما من حديث، حتى أشدّه إحاطة بحادثة قتل القائمقام، كان يمكنه ان يُغيب ما يرى، لكن عماءة صرفت المتحدثين الى ترّهات شؤونهم، كأنها قُبِضَ للشجرة، وللجالس النازف من منخرية لصقها، أن يبقيا في المشهد اكثر، حتى يستنفدهما من لم يتأملهما بالقدر الذي يقتضيه مشهد كذاك. وقد تابعت شهقات الدهش، بعد ذلك، على نحو كالعدوى. «أوه» تتبعها «أوه» وبدأ توليد تحركات اطراف الحاضرين الى الأفواه لتجس الحروف الصوتية الزائدة من شهقاتها، هكذا، بانتظام يديره ملقّن مستور.

كانت الشجرة التي تهاوى جهور قرب جذعها قد أكملت تدرّجها اللوني، واستسلمت، من حال نباتية، إلى كمال صلد، حين تلقّف بعض النساء من آل «ساري» الرجل المضعع من منكببه وسوّينه جالساً يتكىء عليهن، ثم خطفنه خطفاً من وسط المنصرفين الى ذهول يشوبه تفكّه صريح في العيون، كأنها سيُقبلون، بعد قليل، على قهقهة ستحرق الرئات. إي، بما لا يختلف فيه اثنان، اتخذت الشجرة لون الكهرمان الأصفر الناصع، وصلابته كحجر. التشققات في اللحاء باتت على كثيف برتقالي، والورق كذلك، إنها بشفافية تشرد اللون قليلاً.

لم يبارح المكان غير بعض آل ساري الذين واكبوا الجهم، اما من تبقى من اهل الحي فلم ينصرفوا إلا عصر ذلك اليوم، بعدما استبد بهم الجوع،

وجفت حناجرهم من الكلام، فظلت الشجرة وحدها، مضيئة بهيبة، في الفصل ذاك من سور ابن بسنة، وإذ أرخى المغيب نسجه المتشقق على المكان، أرخت الشجرة أسرارها: الورقة تُفْسِحُ للورقة مكانها: انتقال متناظر كاستبدال صفوف من الحرس بصفوف أخرى: شبكة حية من الخطوط المتوازية والمتقاطعة إذا نظر الناظر الى الشجرة من الفراغ العالي، ومجرات صغيرة، كسرب غامر من الحباب، توزع الظلام أقاليم أليفة إذا نظر الناظر من سطح بعيد. غير ان مساءلات موحشة كانت تجري في مكان محاط بجدران، ويسقف، على مبعدة فرسخ واحد من المشهد الذي شطر تاريخ الحي الغربي برمته: «اتسمعنا يا جهور؟»، وكان جهور، الذي جف الدم على شاربيه، يدير وجهه في السائلين بتعب ثقل، مومساً برأسه إيجاباً. «ماذا جرى؟»، فيكتفي الرجل بإطراقة تعلو فيها عينيه مسحة من ابتسام، كأنما يقصد السخرية من جهلهم، وإذ بهم، للمرة الاولى، ان يقول شيئاً ما، تقع عيناه على طفله التي القت به في أبوته المُسْكِرَة، فلا ينطق، بل يشير اليها لتتقرب، ومن ثم يحتضنها هامساً في تأتأة: «أرأيت؟ أرأيت؟».

باتت برينا، على صغر سنها، في الشهر الذي تلا ذلك، تدير الامور في صرامة رجل، مثلما علم الأب العائلة كلها ان تكون. اخوتها، وأولاد عمها جهور، معاً، اكثروا من التشبه بالأسیاد، وهم ينفخون دخان لفافاتهم في ساحة البيت، متباهين باستئثارهم غير المُقْنَع بسلطة غير مقنعة. خيمة الأب ظلت هناك، وظل الوافدون، الذين ينقلون التبغ عبر الحدود، يؤدون ما عليهم، داخلين بعينات، خارجين بعينات، دون الحاجة إلا الى توجيه صغير من برينا يتعلق بتسديد المبالغ نقداً، أما الباقي فهم أكفل به.

لم يتغير، في الواقع، شيء من امر العائلة، برغم انصراف جهور الى صمت مطبق بعد حادثة تحوّل الشجرة، وقضاء معظم وقته ذاهباً آيباً أمام سور ابن بسنة، وهو يتفرّس في العابرين باتهام صريح في عينيه. وقد شاء «كرزو»، ابن الملا بيناف، وسط ذلك الإختلال في موازين العائلة، ان ينصرف الى دعايات لو التقطه اولاد عفدي، او جهور، متلبساً بها، لفككوه، كأمشاط حصادات القمح الآلية، مفصلاً مفصلاً، لكنه خادعهم بقناع الرزانة الذي ارتداه، وهو يسير جنباً الى جنب مع جهور، لصق السور، طوال النهار. فهم ظنوه حامياً للرجل الجهم من قالة تسمعها الأذان، او من فكاهة تُعَيِّرُهُ بصمته وشروده. اما هو، كرزو، ذو الرأس الحليق حتى الجلد، حيث لم تبق

إلا غرة دائرية منسدلة من مقدمة الرأس على الجبين، كعادة أهل الحي الغربي في الحلاقة لِصَبِيَّتِهِمْ، فكان يقيس خطواته بخطوات جهور خلسة، عاقداً يديه خلف ظهره على نحو مضحك. وكان يلتفت، بصرامة تهريجية، الى الرجل، هاتفاً: «خالي» (درج اولاد الملاً على تلك الصفة في مناداة عم زوج أبيهم)، فيلتفت الصامت الجهم قليلاً، ثم يرجع الى شروده بينما يكمل الصبي: «اهتز اساس بيت الحاج شكري وانت تنطح الشجرة. لو اطلت ساعة اخرى لانهار»، وينظر الى وجه الرجل ليرى تأثير ما يقول، مُرَقِّصاً حاجبيه المتفككين. «اصفرت الشجرة من كثرة ما تبولوا حولها»، قالها فتوقف جهور، مطيلاً النظر من تحت حطته المعقودة على رأسه كعمامة مائلة، الى وجه الصبي الذي توقف بدوره، ولما تزل يده معقودتين خلف ظهره، ثم انصرف ببصره، بغتة، صوب الاوراق العالية، في بلاهة، وأكمل مشيه المترن، بحسب طول السور، ذهاباً وإياباً، فأردف كرزو، الذي مشى المشية ذاتها، دون تقدم او تأخر، كأنه ظل الرجل الجهم: «أتعرف من يسكن مع جدي عثدي تلك الخيمة؟ ها؟»، ووضع احدي يديه وراء أذنه ليلتقط كلاماً خافئاً لم ينطق به عفدي قط. «ها؟ ها؟»، تتمم في هيئة من يمثل سماع صوتٍ ما. «ها؟ أووه. ذلك هو»، واستمر ماشياً الى جوار جهور الذي لم يتوقف.

«هو. هو. نعم يا خالي». كان كرزو يكرر الكلمة، مضيفاً اليها بعض الشهيق، والصفير، والتأوه، والنحنحة، كمن يؤكد شيئاً يعرفه الآخر، لكنه يتجاهله. وكان جهور يلتفت، بنظرة الاتهام البليدة ذاتها، الى الصبي، متوقفاً، ويكمل مشيه، بعد ذلك، على نحو آلي اكثر تبلداً من نظرتة. بيد ان كرزو يمضي في طيشه: «اصابع جميلة»، ويرفع اصابعه المنفردة، ناظراً اليها: «اصابع مثل... مثل»، ويتوقف لشرح شيئاً ظن ان جهور لم يفهمه: «لا اقصد اصابعي، بل الاصابع التي تنمو تحت خيمة جدي عفدي». ويضحك في خبث مغعضاً عينيه. «نعم يا خالي»، ويتوقف الرجل الجهم بدوره، فيضيف كرزو: «لقد سرقت بعضاً منها»، ويلتفت من حوله ليرى ان كانا وحيدين في الزقاق، ولما يتأكد له ذلك، يقول لجهور: «هات يدك»، ويمسك بيد الرجل المتبلد، الذي لا يحرك ساكناً، فيفتح قبضتها، ثم يدس فيها شيئاً داكن اللون، يابساً، فيتفرّس فيه جهور قبل ان يلقي به، ناظراً نظرة الاتهام الأبدية، ذاتها، الى الصبي الذي يكمل، وقد جراه في مشيه الوئيد المُحَكَّم كمشي البنائين يَحْمِنُون المساحات تخميناً: «والدجاجات سرقت بعضها ايضاً».

رأيتها قبل ان أتمكن من إحراق ما تجمّع منها خارج خيمة جدي عفدي . رأيت
الاصابع في مناقيرها، وكنت إذ أكشها تبتلع الاصبع بطوله وعرضه، وهي
هاربة . والله . . . »، وتطلع الى جمهور على نحو جادّ، أول مرة: «ستبت تلك
الاصابع في بطوننا . ألا تعتقد ذلك؟ أكلنا الدجاجة ذات العرف المشطوف،
والاخرى ذات الريش الازرق في الجناحين، وكلتاها ابتلعتا إصبعين»، ونظر
الى يديه متسائلاً: «لماذا هي داكنة زرقاء؟»، مُلمّحاً الى الاصابع التي يراها
خارج الخيمة، بالطبع، ومن ثم ارخى يديه وقد اخذه مشهد الشجرة التي
باتت ترسم ظلاً اصفر على ارض الزقاق: «يا خالي»، وشدّ جمهور المستغرق في
مشيته من حاشية سترته المنسدلة على قفطانه المخطّط: «ماذا فعلت
بالشجرة؟»، وأردف: «سأطفئها»، ثم ركض الى جذعها مشمراً عن قمبازه،
رافعاً احدى ساقيه كما يفعل الكلب حين يتبول . . . وتبول .
لقد وهب جمهور اعماقه الى شيء اخر، وظل بشكله - طويلاً، وعرضاً،
وجهامة - سلطان الزقاق، موكلاً شؤونه، دون قصد منه، الى كرزو . وكرزو
سيغلق الزقاق، وساء الزقاق، اذا استطاع: «أسلخت، حقاً، فرج زوج
سظامو؟ فلنسلخ فروج نساء هذا الحيّ . ستشخص حين تجفّ، وهي معلقة
الى جبل بعرض الزقاق يا خالي»، ويمد لسانه في وجه جمهور الصامت، الذي
يلجمه سلطانه الاكثر اتساعاً مما يحلم به رجل قط: «اغلقت بوابة سور ابن
حمكي عليه وعلى عائلته شهراً؟». نعم . لم يقلها جمهور الساهم، لكن «نعم»
كانت ملء تاريخ الزقاق، فقد سدّ الرجل الجهم بوابة ابن حمكي، حقاً،
بالطين، بعدما نيمى اليه علاقة هذا الرجل بسظامو الواشي، وتهدّده بالموت اذا
لجأ الى اية حيلة لإنقاذ نفسه وافراد عائلته، فقضى ابن حمكي شهراً وراء
جدران السور . واذ توسط المتوسّطون لدى جمهور، فعفا باطراقة لا همس
لكلمة فيها، كانت عائلة المحكوم عليه قد أتت على كل شيء في ساحة بيتها:
الدجاج، وورق العريشة، والبقرة، والسحالي السمينة تحت اعمدة السقيفة،
وبعض قشرة السور الطينية، في محاولة لاجتياز السور ربما . ويسترسل كرزو:
«تعال نسدّ الزقاق يا خالي»، وهو يقيس الارض، بخطواته الصغيرة، في
صرامة لا عبث فيها، مُردّفاً: «تعال نسدّ بوابات الاسوار في هذا الحي يا
خالي». وتنتفخ اوردة رقبته فجاءة: «ماذا سيفعلون؟ ها؟. انا اعرف .
سيحفرّون ثغوراً تحت الاسوار، مثلما يفعل الخلد يا خالي . سيخرجون في
الليل، وسيردمون الثغور في النهار تمويهاً»، ويعترض جمهور بجسده في محاولة

لإقناعه بمقدرته: «فلنملاً الزقاق بفخاخ الثعالب. هذا الحيّ ملكنا. الا ترى كيف تضيء الشجرة كل شيء؟».

لن يثني جهورٌ شيء عن رواجه ومجيئه امام سور ابن بسنة، حتي انضمام حشمو اليه بفخاخ لا تخطيء حقاً. اما كرزو فسيرتد عن المشهد قليلاً، بعدما بلغ الضجر منه مبلغه: جهور لن يتكلم. جهور بغل. والبغل الآخر هو حشمو، مذ اطلقوا سراحه. ضجرت الحكومة منه فأطلقت سراحه. فشلت وساطات عفدي حيث نجحت البلاهة. حشمو أبله. ضيّع الشرطة بينه وبين اولاده: «انا نصبت الفخ. لا، اولادي نصبوا الفخ».

لم يعد من متسع لطيش كرزو وسخريته. حشمو دخل الزقاق بصرامة ما عرفها تاريخه قط. جاءت به سيارة الشرطة «البليك آب» وانزلته امام بيته المهجور، فاستند الى السور المهترى وقد وضع حوائجه على الارض. دار بعينه شمالاً ويميناً دون تعيين، ثم حمل الصرة ومشى الى حيث يقع بيت عفدي وبيت اخيه جهور. انزل صرته عن كتفه تحت الشجرة الكهربائية، وقرفص مستنداً بظهره اليها، ناظراً الى كرزو والرجل الجهم دون ان ينبس بكلمة. وعلى مدى ساعتين عاده البعض وانصرف عنه البعض: «كيف؟ اين؟ اين الاولاد؟ متى؟». الخ. اسئلة عابقة بتطفل لم تعن الرجل شيئاً، وكان أبعد، حقاً، عن ان يعرف اين اولاده، ولماذا اطلقت الشرطة سراحه، واين سيمضي. لكن ثمت رائحة شدته الى المكان ذاك، كأنها أعدته الحياة، بإصرار، على القيام بالامر على نحو محسوب: يجلس تحت الشجرة أولاً، دون ان يترك لكرزو فرصة لتحويل حضوره الى سخرية. ينظر، ثانياً، الى الوجوه من غير ان تطرف عيناه. يأمر كرزو، ثالثاً، بكلمات لا ينطق بغيرها بعد ذلك، ان يحضر رفشاً وسلطاً فارغاً، اضافة الى الفخ ذاته الذي يحتمل ان يكون قد بقي مهملاً في ساحة بيته منذ ماتت خاتي. وحشمو لا يعرف ان كانت الساحة بقيت مهملة ام لا، منذ غادرها في سيارة الشرطة، غير انه، على النحو الذي لقتته الحياة لحظات حضوره في الزقاق، استشعر من هواء الساحة، حين استند الى السور بعد مغادرته السجن، أن ما من احد مرّ بالجوار ذاك منذ صباح الثلج الذي لا يُنسى. وقد عاد اليه كرزو بما طلب، كأنها اخذته نبرة صوت الأبله بسلطان لم يجده في صوت احد. واذا القى بها بين يديه تمتم متهيّباً: «أولادك عند عمي مهمد. أأدعوهم يا حشمو؟»، فرد الأبله بتباطؤ

بارد: «نعم، بعدما أُكْمِلُ هذا»، وأشار بإصبعه إشارة حصرت الزقاق كله، أفقياً.

رويداً رويداً كان سور طيني يعترض الزقاق. سورٌ يعلمون الجبلّة التي يعجبها حشمو بماء سطله وبالتراب الذي ينكسه بالرفش من الارض. وقد بدا الامر حماقة مضحكة في البداية، ولكن سكان الحي عادوا مذهولين حين رأوا السور، في اليوم التالي، اعلى من ان يقفوا عنه. وكانوا يزنون الامر كله بميزان قدرتهم على هدمه اولاً، أو أن يشكوا حماقة الرجلين اللذين يسدان الزقاق الى القادرين فيضعوا للمهزلة حدّاً، بيد أنهم فوجئوا بإصرار حشمو على المضي سريعاً في البناء، وبالتهديد الواضح في عيني جهور الذي بات يعبر عرض الزقاق على عجلٍ ينذر بفورة لن يعلم مداها أحد. كما فوجئوا بأمر آخر لم يسألوا نفوسهم فيه: الى من يشتكون؟ الى عفدي؟ انهم يحسون انكساراً غامضاً يتبدى في تحديقهم في الرجلين دون الاقدام على شيء. ويكادون يسألون: منذ متى سيطر هذا الفراغ، الذي لا سلطان لأحد فيه، عليهم؟ لكنهم يتجاهلون السؤال، عن قصد، لما فيه من ضربة تحيل أعماقهم الى قِربة لبنٍ تخضبها مائة يدٍ.

هكذا، فجأةً، يقف أهل الحي واجمين أمام سلطة جهور وحشمو. حينها يكتمل اغلاق الزقاق من جهتي الجنوب والشمال معاً، يعمدون الى فتح بوابات لهم في جهتي الشرق والغرب، بطريقة يحملونها الكثير من المرح، ومن التفاخر بذكاء لا محل لإعلانه: «فليقفلا الشارع، وساء الشارع، وليبقيا هناك الى الابد سنمضي من الجهة الاخرى»، وقد بقي الرجلان حقاً: جهور يقيس الزقاق الذي يتوسط عرضه السوران، من اوله الى آخره، وحشمو ينصب الفخ الحديدي الضخم، كل ليلة، امام بوابة احد المنازل، بالتسلسل، عسى ان يخالف مخالف حكمة عزلتهما، فيتصيدها.

البيوت متصلة على طول الزقاق، من الجهتين، كما هي حال بيوت الحي الغربي بعامة، بحيث يستطيع شخص، او حيوان، ان يعبر المسافة كلها متنقلاً من سطح الى سطح، وكانت ثمت فواصل لا يؤبه لها، ويمكن تجاوزتها بقفزة صبي، تماماً مثلما يفعل كرزو الذي يرفع جلاببه الى ما فوق ركبتيه، ثم يعبر الفجوات. وكان كرزو يستطيع، على هذا النحو، ان يرصد الزقاق الذي سده جهور وحشمو من جهة، وان يشهد، بخطوات قليلة، متسارعة، الزقاق الغربي الموازي للزقاق المسدود، من جهة اخرى. ولقد بدا له المشهد كله،

من فوق، على قدر كبير من الفكاهة، حتى لم يعد يبارح المكان الا ليعود اليه، ملقياً بظله الى هنا او هناك، بحسب ما تميل به الشمس. وكرزومأسور بأن يسدد ظله، كرمية حجر، الى منتصف اشياء الزقاقين، مبتعداً او متقدماً، مائلاً الى اليمين، او الشمال، متطاولاً على اصابع قدميه، او مُحنياً جذعه، كما يفعل معاريو البيوت اللَّبَنِيَّة وهم يقومون بخيوط القنب استقامة الجدران. انه يُسْقِط ظله على نافذة هنا، او دجاجة هناك؛ على طفل او شجرة؛ على باب او على حجر. مغتبطاً بهذا الاتساع الذي يحسه، اول مرة، لحدود جسده الصغير، غير ان غبطة اكثر سراً و سطوة كانت تتسلق صدغيه في دغدغة كدغدغة الريش، وهو يلمس بظله الاشياء كأنها أنامله هي التي تلمسها، فيستغرقه الامر، منزلقاً على أوراق شجرة الكينا الكهرمانية، وكيان الذرة في ساحة بيت «مردان»، والنافذة المستورة بشبكة سلكية في بيت «جومرد»، والمدحلة الحجرية فوق سطح بيت «كروم». وكان اكثر ما باغته في نزحته الغريبة ذيل تيس يسير الهوينى، حتى لقد بدا له ان ظله، ذاته، كان شارداً فأيقظه ذيل التيس، باهتزازة. «يا الله» يتمتم كرزو بعثوره على هذا الامتداد الذي يشكله ظلُّه لأعضائه، ويتمنى استقرار الشمس على الشروق، او الغروب، من دون غيرهما، ليتسنى له أن يتحرى الزقاق المسدود كله، او الزقاق الواقع الى غربي الزقاق المسدود.

كان ثمت بوابتان فقط، قد أبقى عليهما مفتوحتين على الزقاق المسدود: بوابة بيت عقدي، وبوابة بيت جهور، برغم ان عائلتي الرجلتين اضطرتا، أسوة بالحي، الى فتح بوابتين لهما على الزقاق المجاور، غرباً. وكانتا تمّدان جهور وحشمو بالزاد، وتتركان لهما، بعدئذ، استيطان ذلك القبر الطويل، كما درجت برينا على تسمية مملكتهما. لكنهما كانا حيَّين، في الفراغ ذاك، كأكمل ما يكون الحي: فحشمو، اذ استعصى عليه تصيّد أي من سكان الحي الغربي بفخه، يومئذ الى جهور، على نحو دوري، ان يقترب من الفخ، وقد بلغت البلاهة من حركاته مبلغها، بعد وقت بدا فيه حكيماً، وجهور يتمنع، وهو الصّامت، بإشارات من رأسه، فيحاول حشمو القاء الرجل في الفخ بدفع من يديه، فيتعاركان دائرين حول الفكين الحديديين، وقد أغبرت أطراف جلبابيهما.

كرزو يلتهم المشهد التهاماً من مَكَمَنِهِ على السطوح: الغبار الذي يعلو على أثر عراك الرجلين لا يعلو سوى متر، ثم يهدأ على اكثر الاجسام قرباً اليه.

واذ يهدأ الرجلان، بدورهما، بعد كل عراك موزون، ومتعاقب بانتظام لا خلل فيه، يمضي حشمو الى الجهة الشمالية، بخطوات متسارعة، كأنها هو على موعد، بينما يلتفت جهور، في مكانه، بنظرة الإتهام ذاتها الى اعماقه المَشُوقَة كأرض الزقاق، قبل ان يستقر جالساً تحت الشجرة الكهربائية التي تتوسط سور ابن بسنة.

لقد بات جهور يقضي معظم وقته جالساً، على غير عادته منذ انقلاب الشجرة، بينما احتل حشمو بهرولته الزقاق كله رائحاً غادياً، يستطلع في ذلك الفراغ الترابي حلمه الأكمل الذي ينبض كشعاع فوق المعدن الملتصع لألف فخ، متين متجاور، رُبِطَتْ سلاسلها الى اوتاد حديدية حتى لا يبتعد بها اكثر الفرائس قوة قيد أنملة. لكنه كان يتوقف في آناء قليلة، محدّقا في الرؤوس الصغيرة التي تسرق النظر اليه من بوابة بيت عفدي، ثم يكمل هرولته، هامساً: «سترون. . سترون». ولم يكن وعيده هذا موجّهاً الى غير اولاده هو، الذين باتوا يستأذنون خالهم مهمد لرؤية والدهم، مرة في اليوم، من البوابة التي لا يفتحونها اكثر مما تسع لمدّ أعناقهم خارجاً. لكنهم كانوا متفكّهين، لا فضوليين، برغم مشهدهم المتلصص الذي يوحى بذلك، وكانوا يهمسون، بدورهم، إثر مرور والدهم بهم: «ستري يا خصية القنفذ»، وهم يلوّحون بأيديهم المفتوحة في وجهه.

إن كرزو يمنع اولاد حشمو من تسلق السلالم الى السطوح، لذلك يكتفون بمرصدهم من البوابة، بينما يستأثر، هو، بانتشاره غير المحدود على رقعة الزقاق وما تضمّه. ولشدّ ما استرسل في تملكه للسطوح حتى غداً مُراً هائجاً يمنع حتى الدجاج من بلوغها، وبات غائر العينين بعمق كأنها يخفي في محجريها ما يضيق به الحيّ كلّ: «برينا» يهمس كرزو الاسم، وقد درج على مناداة زوج ابيه باسمها مثلها مثل صديقين، فتتفرّسه المرأة وهي تستشعر رنيناً غير عادي في همس صبيّها: «هات يا روجي» قاصدة ان يفصح عما يريد، فيطأ طيء الصبي متمتاً: «لماذا لا نتقل الى الزقاق المسدود؟»، فترفع برينا كتفيها تساوياً: «ولماذا نتقل اليه؟»، ثم تردف في ما يشبه دعابة كثيية: «لنسقط في فخ حشمو؟»، فيزداد كرزو طأطأة، ويزداد صوته رصانة: «أتريدون ذلك أيضاً؟». فتستوضحه برينا: «نريد ماذا؟»، فلا يرد كرزو، بل يرفع رأسه متطلعاً اليها في أسى.

لقد كانا صديقين، ودرجا على ان يبحثا الشؤون الصغيرة، بعامة،

معاً، مذ اختفى الملاً بيناف. وكانت برينا تستأنس به، ويستأنس كرزوها، متواطئين، دون تصميم، على تعويض ما فاتهما بقدر مُفْتَضِّح لا تخطيء العين لعبته: هي أمه، وهوزوجها. ولربما اختلطت الأمور قليلاً فعاتبته برينا على اهماله، كصبي، هذا الشأن أو ذاك، لكنه كان يرد الصاع صاعين على سلطة انوثتها الضيقة، منجزاً ما تطلبه منه في صمت، فتضيق المرأة أيما ضيق بصمت الصبي المتعمد فتسترضيه، برهة بعد أخرى، حتى يلين، ثانية، تحت طرقات انوثتها التي تهز أعماقه أولاً، فالساحة، فخيمة أبيها، فالسور، فالبوابة، فالزقاق، فجلبابي حشمو وجهور، فالسور الشمالي، فالجنوبي، فالشجرة الكهرمانية، فالحي الغربي كله، من المسجد الصغير حتى سوق الجزارين.

أنوثة كوسوسة الريح بين أوراق الدرة العريضة؛ وهمس بين الصبي والمرأة كاشد ما يكون الهمس إحكاماً ورنيناً: «تريدون ان تكونوا...»، ويكمل الصبي بعينه ما لا يطيق إكماله بلسانه، فتستوضحه المرأة من جديد: «ماذا نريد ان نكون يا كرزو؟». فيغمض الصبي عينيه في عصبية، ثم يلطم يديه على جبينه دلالة انفعال مباغت يضاف الى انفعال مُسْتَحْكِم: «اما من احد رأى ذلك بحق الله؟»، واذ يرى زوج ابيه حائرة في لغز كلامه، يمسك بيدها وهو يكاد يجرها جراً: «تعالى. تعالى»، ثم يصعد بها السلم الى السطوح.

من حق عيني كرزو ان تكونا غائرتين هكذا، حتى لا يتوضح أهما هازلتان أم آسيتان. وقد استشعرت برينا، لبرهة عابرة، ان عينيها تزوغان عن الخارج المرئي فترتدان على أعماقها، إذ ما من خيال يستسلم، واضحاً، هكذا، بيناً، صلباً، مفصلاً تفصيلاً، كما يستسلم مدى الزقاقين: المسدود وما يجاوزه غرباً، بحكم انها لا تستطيع ان ترى غيرهما من السطوح المترامية. وكان كرزو ينظر الى وجهها، لا الى ما تراه، مبتسماً في تدرج، بحسب انقلابات وجه المرأة، التي باتت تنتقل، شبه متضرعة، من جهة الى أخرى، كأنها تقارن بين مشهد ونظيره، آمله، بحركات يديها المتوسلتين، ان توقف الواقع المتخبط في هذيانه. لكن المرئي كان يترقق، كجدول، تحت المرصد العالي، حيث تقف المرأة والصبي، والساء، معاً، متبّعاً سلطانه على الأشكال.

يقول كرزو، في عرضه المقتضب للمسألة: «الزقاق المسدود يحفظ لرؤوسنا أشكالها، كما هي. اما الزقاق الآخر...»، وتضيف برينا: «ليس

الزقاق الآخر، وحده، بل الحي الغربي، برمته، يا كرزو»، وthemس في تأكيد
 مرير: «الحي الغربي برمته». اذ ذاك يرى الصبي في كلامها ما يشده الى تكرار
 عتابه السابق: «أتريدون ان تكونوا مثلهم؟ فلننتقل الى الزقاق المسدود»،
 وكأنها يستحكم العياء بالمرأة فترخي كتفيها، وأهدأها، معاً، في حيرة ثقيلة.
 لا يعرف أحد، بالطبع، من دُهل، أول مرة، حين رأى ظلال الرؤوس
 المنعكسة على جدران البيوت، او السائرة قرب اشخاصها على الأرصفة. غير
 أن امرأاً ما شَهِقَ، في هذا المكان او في ذاك، مشيراً بيده الى ظله، او ظل
 غيره، بعدما ظن المسألة فكاهة، لوهلة عارضة، ثم استدرك انه يقظان، وأن
 ما من احد يمازح أحداً: لقد انعكست ظلال الرؤوس، في الحي الغربي كله،
 انعكاساً اتخذ هيئة رأس كلب. واذا يتحسّس المتحسّس حدود هامته،
 ويلمسها آدميةً كما أَلْفَها، ثم يرى ما اتخذ ظلها من شكل، يصاب بدوار
 خفيف، ويأجفالة تدرج كُرة صغيرة من الشوك على مدى العمود الفقري.
 كانت زمرُ الناس تتحلق أمام البوابات، تفصل أمتار قليلة بين الواحدة
 والاخرى؛ وكانت ككرات من الزئبق تُلَمَسُ فتتجزأ، ومن ثم تتجاذب
 لتتحد، فتُلَمَس، ثانية، فتتجزأ. زمرُ تضيقُ الحلقات، وتوسعها، في جداولها
 العصبي، متلمسة رؤوسها، ناظرة الى الظلال الكلبية على الجدران او
 التراب، تأخذها نوبة من تَفَكُّه أسود حيناً، مقهقهة في تشنج، ومن بعدُ
 تنقلب الأصوات المتفكهة الى عويل خافت، متعاقب بين بوابة وجارتها، رتيب
 كرفيف جناحي ذبابة الحمار. وبين ساعة واخرى لا يتمالك حتى اكثر الناس
 استسلاماً لقدره البهلول، إلا أن يقارن، بنظرات كبندول الساعة، بين الظل
 وبين الرأس الذي يعكس ذلك الظل: كم هو أليف، معهود، فوق الكتفين،
 وغريب محير على الأرض.

امتحان مضحك استند الى وسائده في هواء ذلك الحي، غير ان كرزو،
 وحده، أمسك بالرقعة المضحكة كلها، ومن ثم أشرك برينا في ما لم يُطق
 احتمالاً: «انظري»، وقد نظرت المرأة، في تمعن، فارتجّ كبدها. لذلك هرولت
 من هذه الجهة الى تلك الجهة، ومن تلك الى هذه، تقارن ما تراه بنظيره وهي
 تدس بيدها تحت ثوبها، من فتحة العنق، متلمسة ثديها الأيسر، ومن ثم
 تعصره كأنها تبدّد زوبعة الكرب التي احتبست فيه. ولم تكن، بالتأكيد، تريد
 هصر الشدي، بل ذلك الثقل الذي مس صدرها، والتصق به، دون أن
 تتمكن من تحديد موقعه: فوق الجلد، أو تحته؛ قرب الشريان الأهر، أو

الشعيرات الدموية حول الحلمة التي انتصبت فاختلج من فوقها القماش الكشمير.

لقد رأيت برينا الفرق الذي يشبه قشعريرةً حامضةً: الحبي الغربي، كله، ترتسم ظلال الرؤوس فيه كارتسام رؤوس الكلاب، والغيب، وحده، يدري، كيف تحتفظ الرؤوس بأشكالها الأدمية، بينما تتخذ الظلال فكاهتها السوداء تلك. أما الزقاق المسدود فظل قاطناه، جهور وحشمو، محتفظين بالظلمين الطبيعيين لانعكاس رأسيهما. وكان كرزو قد أقدم، من قبل، على النظر الى ظل رأسه في الزقاق المسدود كرهة، وفي زقاق آخر من أزقة الحي الغربي كرهة ثانية، فوقع على الفارق، لذلك جهر بنصيحته الخشنة الى برينا: «فلننتقل».

«فلننتقل»، تلك كانت كلمة «زيركة»، أم برينا، ليل نهار، إثر الحرب الغربية التي اشتعلت على تخوم حقول الذرة، في القاطع الشمالي الغربي، من الحدود التركية الى الهلالية فامتداداً الى قرية «هيمو»، وفي القاطع الجنوبي الغربي، من انعطاف نهر «جغجغ» تحت سفوح الهضبة التي يشغل المطار الغريب مساحة ما من سطحها، حتى قرية «حلكو».

قوس متصل من الذرة العالية، غرباً، كاد يدفع بمن حلوا تخوم المدينة الى ان يكملوا رحيلهم. وكانت تلك الفترة مصادفةً للشهر الثالث من استقرار عقدي هناك، بعد نزوحه من قرية «موسيساننا». ولقد كان البيت الذي تعهد المتعهد ببنائه في عشرة ايام، لعقدي، أول بيت مسور يشغل منتصف العراء المطرز ببعض الأحراش بين مثلث الطريق الاسفلتي المؤدي الى مدينة الحسكة جنوباً، مروراً بالمبغى الموحش قبل نقله الى شمالي المدينة، لصق الحدود التركية، الذي يجمع الصبية زجاجات الجعة الفارغة من حوله، وانتهاءً «بالهلالية» غرباً. ومن ثم، أي: في السنوات العشر التي تلت، كادت تتصل رقعة العراء تلك، فلا يبقى مكان لبناء جديد. وبرينا تذكر كلمة «فلننتقل» ذات عصر من صيف ذلك العام، اذ صاحبها عويل أزرقت منه جبين أمها.

كان العارفون في العائلة قد اطلقوا بضع نعاج على كومة من الملح، ولما التهمته على آخره ارتمت، بالتباع، على حوض الماء تخفف به حرقة أحشائها، فأطلق عقدي، إذ ذاك، طلقتين من بندقيته الفرنسية في الهواء يحفلها، فأجفلت. وكان السائد في اعتقادهم ان اللعبة كلها، بدءاً بازرداد الملح الذي تحبه الحيوانات بعمامة، مروراً بتزاحمها على الماء، وانتهاءً بالطلقات التي تحفلها،

إنما تجعل إخصاب النعاج أكيداً، فتلد الواحدة منها ولُوداً تحمل سَبْعاً في سبع سنين، لكن الطلقتين اللتين ترداد صداهما في الهواء الثقيل بالمكائد التي جثمت على الحقول، كادت أن تنقلا الحرب الغريبة إلى الضاحية التي تقطنها العائلة، إذ أطلت من وسط كيزان الذرة المتدلّية في تعب ثقيل، على حين غرة، مئات من فزاعات الطيور بخرقها الملائى قشاً، لكنها لم تجاوز الحقل الغربي، بل ظلت واقفة ترصد بوجوهها المستديرة المنتفخة، التي لا عيون فيها، رقعة العراء الواقعة إلى الشرق من الحقل، حيث بيت عفدي، وعائلة عفدي، ونعاج عفدي الملتفة بعضها على بعض في دعر صامت لا يقل عن دعر أصحابها، وإذا لم تقع الفزاعات على نائمة واحدة، طوال نصف النهار، بعد دوي الطلقتين، انسلت إلى داخل الحقل المديد ثانيةً، لا صاحبةً كما جاءت، بل في هدوء، كمن لا يريد إيقاظ النبات الشارد في اشتغاله على إتيان الحيل.

في أوائل صيفين متعاقبين كانت تلك الحرب تطلق نفيها الخافت، ومن ثم تسترسل عابثة بكل شيء، طوال الفصل الواحد منها: أي، تحديداً، عندما تبدأ الكيزان الصغيرة في اكتناز حليب ذي طعم حلو، وتكون الحبوب، آنئذ، متخفية تحت شعر أشقر طويل التيلة، يغطيه ورق رخص لم تغو بواطنه الرطبة شمس من شمس ذلك المكان، ومن ثم تنتهي مع بعثرة رياح الخريف للذرة وللورق معاً، بعدما يتركه زارعوه لحصاد الرعب، لا لحصادهم.

حصل الأمر على هذا النحو في الصيف الأول، أما في الصيف الثاني فقد علت النباتات دون سقاية أحد، أو رعايته، متهية لموعدها الأحق، وحروبها الحمقاء، في كل مكان كانت تشغله من قبل، بانتظام لا زيادة في مساحته، ولا تقديم في وقته. والأمر، على اختصاره، بحسب ما تذكره برينا، هو أن الفزاعات التي نصبها أصحاب الحقول بكثرة بين الذرة، حتى لم يكن ليفصل بين الواحدة والأخرى بضع خطوات، بسبب من غزوات الغربان المتعاقبة، ما لبثت أن لجأت إلى عصيان محير، فتطرد الغربان وتلتهم، هي، كيزان الذرة، في البداية، ومن ثم يغزو بعضها بعضاً لاقطاع مساحات من هذا الحقل أو من ذاك، إذ كانت الناس تري، في وضوح النهار، تلك الكائنات التي لا تلوح إلا رؤوسها المستطيلة، ذاهبة آية، يتطاير من فوقها ورق ذي خشخشة موحشة. وكانت الحقول، بدورها، تقترب أو تبتعد، كأنها تنزلق الأرض الترابية بها بدفع من يدين قادرتين كالغسق الذي يغطي الغرب بجهامة مرة.

لم يكن صاحباً قط ذلك النهب المتواتر على مدى التخوم، والدليل الأوضح على فداحة ما يجري كان اهتزاز أوراق الذرة، وانتقال الفزاعات من جهة الى جهة؛ تلك الفزاعات التي اختفت بعد الصيف الاول، لتظهر في الصيف التالي اكثر بطشاً وامتلاءً بالقش مما كانت عليه، وبخاصة بعد الفصول المتعاقبة التي فتت أسماها، وشققت خشباتها المتصلبة، فتهرأت واقفة دون ان تتساقط مثلما تساقط أسواق الذرة، لتعود، من ثم، ذاهبة آية، على مدى التخوم، تقتحم أو تتراجع لتقتحم، حتى ليتطاير حشوها من القش أحمر قانياً، فيصل نثاره الى سوق المدينة ذاتها، في هبوب الريح صوب الشرق، أما كيف كان يصير ذلك القش أحمر فلم يتوقف عنده المتسائلون طويلاً.

هكذا، طوال صيفين، اختزلت ام برينا الكلام الى بضعة حروف: «فلنتقل»، ولا تصيف شيئاً قط، بل ترجع الى عاداتها في وضع يدها على فمها تكتمه على الفرع الذي يتخبط تحت لسانها. لكن، في الصيف الثالث، لم تقم للذرة قائمة، ولم يعد المزارعون الى زراعته إلا بعد ست سنوات، فظلت «زبركة» تضع يدها على فمها، بالنحو ذاته، إنما دون ان تبدر منها، هذه المرات، كلمة «فلنتقل»، التي لن يتذكر عقدي قط انه سمعها من زوجه الهادئة. اما برينا فتسمع رنين الكلمة بكل الصور التي تتداعى من جرائه، كنقل صناديق الثياب، التي تصطدم، أبداً، حين رفعها عن الأرض، بعظام سيقان حاملها فيتأوهون، وكذلك بنقل أكياس المؤونة من عدس، وطحين، ونخالة، وملح، وسكر، وتبغ، وبرغل، وبعض الزبيب والتمر المجفف، وما يستدعيه الأمر من وقوف برينا، ذاتها، بمخرز وخيط خشن لترتق جنبات تلك الأكياس، التي فتحت الفئران فيها ما يكفي ليندلق المحتوى كومات هرمية في الزوايا، ولربما وقع اولاد عقدي، كعادتهم حين يرصدون الاشياء الثقيلة التي تمكث طويلاً في أمكنتها، على فئران صغيرة جداً، لما ترل مغمضة العيون، ذات جلود وردية تغري بالشفقة، فحملوها الى دجاجاتهم الشرسة، فتمزقها الدجاجات.

برينا لا تدري ماذا تفعل. برينا حائرة في دعر بين الزقاق المسدود وغيره من الزقاقات. برينا تشارك إخوتها، وجيرانها، فكاهتم، وضحكهم من ذلك التحول في الظلال. وبرينا تتمنى، كغيرها، لو تحتجب الشمس لتضع حداً للمهزلة. وبرينا تتفكر، بعد كل هذا، وعلى نحو مفاجيء، في الموضع الذي

يمكن ان تختاره لحيمة أبيها في الزقاق المسدود اذا انتقلت العائلة حقاً. غير ان الذعر الذي انتاب الحي الغربي، في أيامه الاولى من اكتشاف المهزلة، بات ينحسر قليلاً قليلاً امام تأمل أصاب بعدواه الصغار والكبار معاً، فلم يعد يُرى أحد من أهل الحي إلا عاقداً يديه من وراء ظهره، مطرقاً يتفكر فما يقدر اكثر الكلاب شراسة، بنباحه، ان يلهمه عن تفكره. وكان الصبية، برؤوسهم الحليقة إلا غُرَّرها الطويلة المتدلّية على الجباه، يَلُوحُونَ في الأزقة على كثير من الطرافة، وقد عقدوا أيديهم وراء ظهورهم كالكبار، وأطرقوا ماشين في هم.

ما من أحد كان يشتغل بعد ذلك الاستغراق، أو ينصرف الى رزق، بل يستهلك ما أدخر من مؤونة ليرجع الى مشيه، قرب سوربيته، (كل قرب سوربيته) متفكراً. ولقد بسط التأمل، على غير توقُّع، سلطانه على باقي أجزاء المدينة، فاعتكفت الناس، في الجهات كلها، على التزام أسوار بيوتها، رائحة غادية، تنظر الى الأعلى والأسفل، واليمين والشمال، ومن ثم تغمض عيونها كأنها تستكمل رصد الجهة التي لن تراها العيون، قط، في مدى ما تراه. لكن «حشمو» و«جهور» عكفا، بخلاف الآخرين، على الاشتغال على صنع سلام في زقاقهما، اذ باتا يقتحمان الساحات ليلاً، بعد حفر ممرات في الاسوار، ومن ثم يعودان بها اقتطعاها بمنشاريهما من جذوع اشجار الكينا التي لا تخلو ساحة منها. وكانت الناس تفيق على اقتحامهما فتُخلّي بينهما وبين ما يريدان، مُغضبة في إشفاق.

من أربعة الى ستة سلام كانت ترتفع، يوماً بعد آخر، لتتكىء على أسوار البيوت، بمسافة لا تتعدى خطوات قليلة بين الواحد والآخر، حتى لَغدا الزقاق دغلاً من قضبان أفقية وعمودية، ومن ثم توسط هذا كله سلّم كهرماني علا أضعاف ما علت السلام الاخرى، متكئاً على السور العرضي الذي سدّ به الرجلان الزقاق من جنوبه، بهيّا باقتدار، فارداً ظلّه الأصفر على الظلال بحسب الدوان الأبكم لشمس ذلك المكان. وكان واضحاً لعيني كرزو المتفرستين، أبداً، أن جذوعاً كثيرة قد اقتطعت من الشجرة الكهرمانية، لكن بصيرة الصبي لم تقع على الحكمة في لعبة جهور وحشمو، وإذ ساءل برينا في الامر ردّت برينا: «اسألها».

«كرزو» لن يسأل أحداً، وقد تعود ألا يسأل، لأن الكبار، أجمعين، يستصغرونه حين لا يملكون أجوبة، ويستصغرون الأجوبة حين يملكونها فلا

يقولونها. . انه يعرف، تحديداً، من الذي يحاوره عقدي في خيمته المغلقة، ويعرف من أوماً اليه، مبتسماً، من بين الجمع الذي احاط بالشجرة الكهربائية، التي صارت كهربائية، تحت ضربات جسد جهور بن ساري الشبيهة بنطحات تيس. لقد شاء لنفسه، دون أن يخيره أحد، أن يكون أميناً على سر اللعبة كلها، فبات متجرداً من فضوله ككهل يستعجل ما تبقى. ويضرب، أنى جلس، على فخذ، مردداً في أعماقه، من غير ان يظهر على وجهه شيء من تساؤله: «لماذا يختارني أخي؟».

لم يكن سؤال كرزو، هذا، يعادل، بأية حال، سؤاله عن سلام جهور وحشمو اللذين بسطا سلطانها الغريب، لا على أرض الزقاق المسدود، بل على هوائه أيضاً. كانا يصعدانها مستطلعين الجهات شرقاً، وغرباً، من فوق الأسوار، كأنها يحاذران أن يباغتهما أحد، اما السلم الكهربائي العالي، فكان واضحاً أنه أقيم لغرض آخر غير الرصد، إذ كانا يصعدانه، تناوباً، وقد غطى أحدهما رأسه بحطته فلا يرى شيء من وجهه، ثم يجلس على القمة كشبح، ضارباً صدره، بين حين وآخر، بجمع يده، كمن يندب على عزيز ميت. ولربما جارهما كرزو، باستخفاف، ضارباً بقبضته على صدره، لكنه كان يستطلع، بدوره، من السطوح التي يتنقل فوقها كهر، دون قصد صريح، مدى الازقة الأخرى، وساحات البيوت، مدفوعاً بغريزة لا تستجلى. وبقينا، لو تساءل احد عن هذا الحذر كله لما وقع على بينة تستجبه. فما هم إن اقتحمت الناس الزقاق المسدود؟ ما من أحد في منجى من أن يرتسم ظل رأسه على شكل رأس الكلب، والاستسلام للمسألة خير من البقاء أسير ذلك الزقاق الذي يبقى للرؤوس هيبته الأدمية. زقاق. زقاق. هبة الغيب التي لا ترد. هكذا، دون مساءلة، مُنح الزقاق المسدود سلطته الغريبة على الظلال. زقاق. زقاق أوحده لا يتعدّد إلا في ترداد كرزو للكلمة، حتى باتت الكلمة، ذاتها، متهدلة لا تستوقف المعنى.

لقد مضت الأمور، رويداً رويداً، إثر أيام التأمل الكبير في المدينة، على نحو لا تسيطر على مداها إلا تفاصيلها الباهتة. فخيمة عقدي الحائلة اللون ظلت على حالها، وظل الحوار، الذي حفظه كرزو بحروفه، جارياً بين الرجل المعتكف وضيئه الخفي: «اسمع». هكذا تتردد الكلمة، إضافة الى الكلمة الأخرى: «أنت السبب». اما الباب الذي بقي مفتوحاً، في سور بيت عقدي، على الزقاق المسدود فقد بقي مفتوحاً على حاله، وبهذا كان لتلك

العائلة، وحدها، بابان على الأزقة. وكذا الدجاجات لم تحُد عن نهجها: تميل برؤوسها شمالاً ويميناً في تدرّج، فتتأوج أعرافها في الحركة البليدة. وهي تتفكر، بدورها، أن ما تراه طافح بالبلادة أيضاً: ساحة الدار، وصعود كرزو وبرينا المتعاقب الى السطوح، وتحسس الأدميين لرؤوسهم، والجللاء الغريب للكائنات كلها، إلّا جهور وحشمو، عن الزقاق المسدود، الذي كان في مقدورها ان تَحْطُرَ فيه، حيناً بعد آخر، في اختيال ملكيّ لا يزاحمها فيه أحد. أي، بكلام واضح، لم يتلفّت امرؤ إلّا الى شاغله، وكذا كان أمر الحيوان والنبات، بدءاً بشجرة الكينا الكهربائية، وانتهاء بعباد الشمس الذابل على تخوم حقول الحليّين شمالاً.

ما من مسألة تهزّ أحداً الآن. غير أن برينا، وحدها، تنتفض كحنكليس الطين، وهي تكاد تضرب على أحشائها لوماً: «كيف نسيت سينم؟». نعم، سينم. أي عميان كان هؤلاء الذين لم يلتفتوا الى البلهاء التي انبثق بطنها، رويداً رويداً، فرفع ثوبها كقوس الهضبة؟ أم سينم أخبرت برينا، في همس يقطرُ عرقاً، فغرقت برينا من رأسها حتى باطن ركبتها. ولقد كانت الناس في سهوفها يفيقون على شيء: حبلت أنثى أم وضعت؛ مات امرؤ أم عاش. لكن المراتين تجاذبتا الخبر على نحو يفيض تفهّماً، بإيحاءات رصينة مقتضبة. وكان واضحاً أن برينا تحاول، بين الجملة والأخرى، والإيحاء وأختها، عدّة الشهور التي تفصل بين ما بلغه حبلُ البلهاء، الآن، وزواجها من بيكاس، فما تتوقّع. يدها المتهدلة على يمينها تنقبض إصبعاً إصبعاً، وتتلوها اليسرى إصبعاً إصبعاً، ثم تنبسطان لتعاودا العُدّ. وفي يسر تخلّت عن ذلك، في اللحظات التالية، غير عابئة إن زادت الشهور أم عراها النقصان في تكوين جنين سينم. وكانت، برغم المباغثة، يتدرج على ساحتها فيض من حنان مُنْسَرِحٍ، ومن لهفة تتقاذز مع الكلمات: «أحضري سينم يا زوج عمّي. سأعني بها.. سترين..». أمّا زوج مهمد بن كوجري فكانت تحبس، امام لهفة المرأة الصغيرة، بحث أعماقها عن كلام تُقنّع به الآخرين. إذ، يقيناً، لا مكان للقول إن هذا الجنين هو ابن كائن اسمه بيكاس، وُلِدَ، ومات، ودفن في اليوم ذاته؛ بل اختفى ودُفنت الوسادة.

أفي مُكَنَّة أحد أن يجد بلاغةً تعيد نَسَبَ الدم الى الدم في هذه الحال؟ لو كان بيناف حاضراً لنفث دخان لفافته من منخريه، مطرقاً، قبل ان يرفع عينيه الى أخيه مهمد: «فلنصحّح المسألة كلها»، ولسوف يحيط أخوه الهادي

وجهه بيديه غير معقّب، فيسترسل دون انتظار شيء: «إذا لم يصدقوا فليفضلوا الى المقبرة». ويصمت متأثراً بصمت أخيه، عارفاً أنه لم يلمس رضى، بكلامه، من نفس الرجل المطرق، متلفتاً من حوله في إعياء خائق. ولما يزيد الصمت ثقلاً يقف على ركبتيه في عصبية: «قل شيئاً. أليس لديك ما تقوله؟»، فيرفع مهاد رأسه وقد علا جبينه إشفاق على نفسه وعلى أخيه: «بعد كل هذه الشهور!! بعد كل هذه الشهور!!»، ولم يكن واضحاً أن كان يسأل بيناف، أم يستسلم، لكن الملاً يعود الى الاسترخاء في جلسته، وفي نفث دخان لفافته: «فلنتفكّر. سيدبرها الله». ويتمتم مهمد: «كم مرة سيدبرها الله يا ملاً؟». «الى الأبد» يشدد الملاً على الكلمات وهي تخرج من تحت شاربيه الكثين، رافعاً كفه الى مستوى عينيه كأنها سيلطم نفسه: «الى الأبد. عليه ان يتدبر هذا البلاء الى الأبد»، وترتخي كفه بعد ذلك كمن يأسف على كلام لا يليق به، مطلقاً تآوهاً خفيفاً: «أوه. إلهي»، ويعقد لفافة جديدة قبل أن يطفىء التي بين شفتيه.

يقينا، ما من اقناع حتى لو كان الملاً حاضراً. وحده عقدي، بسطوته، يقدر على إسكات الأفواه والأعين معاً، لكن عقدي لا يبارح الخيمة المغلقة، مسترسلاً في مجادلاته حول ما يمكن أن يتقاسمه الأباطرة الغائبون. ولقد ضاقت المشورة حتى بات كرزو يدلي بحذائه فيها: «البت مجنونة يا برينا. قولي للناس إن بطنها مجنون أيضاً»، فتتظر برينا الى فكاهته في نفاذ صبر: «راقب الزقاق بحق الله، فذلك أفضل ما تفعله».

كانت المساجلات قائمة طوال يومين بين برينا وزوج مهمد، حتى عرف أولاد الملاً وعقدي، معاً، بوقائعها التي كانت الغلبة فيها لبرينا: «سأعود بها الى بيتنا - بيت الملاً. سنعود كلنا»، هذا ما قرّره المرأة الصغيرة، وقد فرح بقرارها أولاد الملاً حقاً، بعدما لزموا بيت عقدي مكرهين، تحت سطوة اولاده وترفعهم الذي لم ينتقص منه أيّ حدث. وفي اليوم الذي حملت المرأة، والصّبية، متاعهم في لفائف وصّرر، وتوجّهوا الى الباب المطل على الزقاق الغربي، وفي حين وطأت أقدامهم العتبة التي تفصل ملكية آل عقدي عن أرض الدولة المشاع (المشاع دون قصد)، مدّ أولاد الملاً ألسنتهم للأولاد الآخرين، الذين لم تبدر منهم بادرة ردّ فعل قط، بل ظلّوا يحدقون في الراحلين بعيون صارمة حتى اختفوا.

شجيرة الزيتون، وحدها، تستدير بعيون أوراقها على الجهات في

الساحة الفارغة؛ تلك الشجيرة التي لن تكبر من وحدتها قط، وهي تتفرّس، رويداً رويداً، منذ أمدٍ لا يقدّره إلاّ النبات، في أبواب الغرف الشمالية، والغرف الشرقية من ساحة بين الملاً بيناف. شجيرة زيتون مهملة، ترتدّ، برهة بعد أخرى، على المضيق المظلم في جذعها الرقيق، وغصونها الرقيقة، بعدما أعيها المناخ الشمالي المستهتر عن أن تتسع حدودُ مباحجِ ورقها، وغصونها، على الفراغ المثلث بسائته، وبضوئه.

شجيرة وحيدة حتى لو دخل الى الساحة آباء آباء الملاً، لا برينا وأولاده فحسب. لكنهم، اذ دخلوا، تنفّست الشجيرة الصعداء، لأن ثمت من سيقاسمها وحدتها الآن. ولذلك، بحسب ما يمكن التكهن به، وفقاً لتمايل الغصون، واهتزاز الورق كأنها تميل به رعشة من جهة الى اخرى، أبدت الشجيرة المذعورة من ذاتها بعض احتفاء شابّه ثقل واضح، فاحتفى الداخلون بها، بدورهم، وهم يملأون الفناء صخباً بمتاعهم القليل.

أتستطيع شجيرة ممتهنة الى هذا الحدّ، (من أتى بها أيها الإله؟) أن تروي ما غاب عنه الرواة منذ غادرت العائلة البيت، إثر اختفاء الملاً؟ هي لن تحكي على كل حال، برغم ضجرها الواضح من ذلك الإهمال، ومن أساها في تلك الوحدة المؤبّدة، بغياب الناس أو بحضورهم، لكن جدران الغرف المتقابلة، شمالاً وشرقاً، تفصح عن وعيد متبادل بينها وبين شجيرة الزيتون. الغُرفُ حانقةٌ ككائنات حيّة حانقة. يتقشّر عن جدرانها الملائط الطيني الرقيق بفعل الصخب الأبكم للنبات، كأنها هي قلوب تنبض تباعاً، متجاوزة، يهيب احدها بالآخر فيفبق على ذعر. فلقد كان يُشغل تلك الجدران ان ترى الشجيرة الساخرة تلك عاكفة على ما هي عليه من نماء لم يزدّد ولم ينقص. والجدران تخمّن، وفق حساب مُضنن، أن الشجيرة تنقص ذلك تقصّداً، بنحو من اللهو، أو المازحة المُرّة، لذلك تعيا عن كتمان وعيدها الذي يلوح شقوفاً طويلة تنبثق منها نباتات معرّشة قزما، اصفرت أطراف وريقاتها.

على كل حال، عكفت العائلة العائدة، في يومها ذاك، على تنظيف الغرف، ونكش الأرض المحيطة بشجيرة الزيتون، ومسح الأقفال ببعض الزيت. وهي لم تنس، بالطبع، أن تحفر حفرة صغيرة لتملأها بالماء للدجاجات التي ستحضرها غداً، عوض الحفرة القديمة المندثرة. غير أن سينم، وحدها، لم تلتفت كثيراً الى ما يجري، ولم يطلب منها أحد، عن قصد من الشفقة على عقلها وبطنها معاً، بل كانت تحدّق، وهي تعبر عرض الساحة

جيئةً وذهاباً، في باب الغرفة الشمالية، دون هأهأة، كأننا نحاول، لمرة واحدة في حياتها المهدورة كمخيلتها، أن تمسك بخيط ما يعيدها الى نسيج حيٍّ . ولما أبصرتها برينا، بغتةً، على حالها تلك، توقفت عن كناسة العتبة الواطئة، ناظرةً الى البلهاء في حذرٍ من يباغت شخصاً في هيئة لا تليق به، ثم استدركت ذاتها فطأطأت، قبل أن ترفع رأسها، ثانية، على صوت يتنامى فرحاً: «عليه أن يقول: كوكو. بيكاس ديك». وكانت سينم، حين نطقها بالكلمات تلك، تقترب من باب الغرفة الشمالية، لتفتحه وتدلف الى الداخل، ومن ثم تردفه من ورائها، في هدوء، لتنبعث من مزلاجه النحاسي طقطقاتٌ تندرج على مدى الساحة.

الفصل الخامس

الأجنحة الهائلة البيضاء تخفق خفقاً عنيماً فيغطي الأرض ريشها المتطاير من الأفق الى الأفق، وما من شيء يتحرك في فناء بيت الملا، حتى شجيرة الزيتون. اما في الأعلى، فكان السلك ذاته، الذي يعبر من جهة الى اخرى، يتمايل بحفنة الزراير التي حطت عليه، متشبته به بمخالبها حتى لا تجتثها الريح القوية، وكان ريشها يرتفع صفّاً صفّاً كأنها يتخلله مشط خفي. بياض مديد ومرتفع. اجنحة هائلة بيضاء: هكذا ضرب الثلج بأوتاده هناك، ورفع خيامه. وكان ثلجاً مبكراً جداً في اقتحامه، عجولاً، امهل الخريف بعض أيامه الأول، ومن ثم أخلّ فأَنَقَصَهَا. لكن من يعاتب الثلج؟ ابيض غريق، تلتقطه الزراير السوداء بمناقيرها لترفعه الى المسافة. بل أبيض أبله، طاووسي، عار من النمنمة الرحيمة التي تحرر الشكل من شبهه. ابيض الى غاية البياض. رآكن الى لعبة لونه. جاهل، وعليه سياء البطش. ثلج؛ وإذا يرفع كرزو عينيه الى السلك يظللها منه ومن رياحه اللاسعة يتمم: «ثلج كلب، وابن كلب». ولربما مسح «زيوان» بخار الانفاس عن زجاج النافذة من الداخل، ناظراً الى أخيه، ومن ثم الى الزراير متمماً بدوره: «ثلج كلب وابن كلب». ولم يكن «زيوان» يرى من اقتحام الثلج الغريب هذا إلا ان يعود الى فخاخه.

على حين غرة، غطى «الثلج» المدينة. افاقت الناس صباحاً فرأت بيوتها غارقة حتى منتصف ابوابها في البياض المتلائيء، أما من كان قد افاق فجراً، للصلاة، فقد عكف عائداً الى فراشه حين اعياء تفسيره للبرد وللباب

الموصد معاً. وبدأب اشتغل المشتغلون، في ما بعد، ليحرّروا الابواب أولاً، والممرات والطرق ثانياً، بقليل من الاسئلة عما فجأهم بهذا الانقلاب. ولربما كانوا على حق في ذلك الإهمال المقصود للاسئلة، اذ استنفدوا، ليومين، من قبل، كل دَهْشِهِم وفُضُولِ اعماقهم، في تخمين اسباب الغبار الذي غطى كل شيء. وكان غباراً لجوجاً، ينفذ من الجدران ومن الجلود الآدمية. واعقبته، من ثم، ريح باردة كادت تحتث خيمة عفدي (هذا ما قالته زيركة لابنتها برينا)، لولا ان هبّ اولاده فتعلقوا باطرافها المُخَلَّخَة.

ومن الذي سيقف طويلاً باسئلته امام غبار، وريح، وثلج، يرثُ احدهم الآخر بصخب او من دونه، وقد تعود ان يشهد ما يهدم الاسئلة؟ الرؤوس لم تزل ظلالها على الحال تلك من انعكاسها الكلبي، أعلى الثلج كانت الظلال ام على الطين. السلام ترتفع في الزقاق المسدود، والتأمل المستشري بعدواه لم يبارح: الأيدي خلف الظهور، والرقاب منحنية على الضائع الذي لن تجده. المسجد ابتعد. نعم، المسجد ابتعد عن رقعته جنوبي الشارع المعبد الوحيد، الذي يصل القامشلي بعامودا، وبغيرها. ففي يوم الجمعة (الذي صادف اليوم الاول من هياج الغبار) خرج المصلون بعد انقضاء الصلاة من باب المسجد، فلم يجدوا احذيتهم التي تعودوا ان يتركوها خارجاً، بل رأوا عوضاً عنها، جداول رقيقة من الماء سرعان ما اتسع جريها، تسلسل إلى الداخل. تعودوا، ثم رفعوا جلايبهم حتى الرقاب مع ارتفاع الماء في ارض المسجد. وكان الأدهى انهم، حين نظروا من الباب الواسع، او من الشبابيك الواسعة، لم يجدوا الشارع او البيوت التي تحف بالمسجد من الشرق والغرب والشمال، كأنها دفعت يدً بالمسجد الى الجنوب، حيث يعبر فرع من نهر جججغ قرب الهضبة التي يعلوها المطار. نعم. الأعين لا تخطيء الأمكنة التي تعرفها، برغم الغبار الذي ضرب بأقفاله على المسافات.

الماء. الماء. «استوى بعرشه على الماء». تلك كانت الجملة الاولى في خطبة الملا احمد، بعد الحمد لله وشكره على نعمه، «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ». «من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب» هكذا خلّقنا الله. ماء. ماء. والملا احمد يتفصّد عرقاً فيمسح جبينه بمنديله البني الصغير: «تسقون ارضكم بالماء فتتئم لكم الثمرات. خذوا الماء في ايديكم، وانظروه منسلاً من الراحات. من سيقبض على الماء؟ نوح. أكان. . أكان البط لولا. . اكانت آباركم رحمة. . اكان اولادكم؛ واتم؛ وعظام آبائكم؛

ولهائكم؟ كلاب الماء. سننونات الماء. ستسألون عن قطرة يوم القيامة فلا تجدون غير الغسلين. انظروا الحراشف؛ انظروا أَرْجُلَ الإوزِ والضفادع؛ انظروا الشجرَ الحمار»، ويلقي امام المسجد نظرة من حوله في استهجان مَنْ يرى استهجاناً: «هاها. الشجر. سترونه راكضاً. سترون زعانفه وغلاصمه، انظروا» وكشف عن طوق جُبَّتِه: «هذه غلاصمي» فكادت الناس ان تهب واقفة وهي ترى تحت وَدَجِي الخطيب غلصمين يفتحان وينغلقان في تُوْدِه: «أرأيتم؟» هكذا بادرهم الملا احمد، وادف: «اجلسوا» في صيغة امر لم يتمالك المصلون معها إلا ان يجلسوا متممين. واذ ساد هدوء ثقيل بعد برهات من ذلك، استرسل الخطيب في خطبته: «تلمسوا اوداجكم» فتلمسها الجالسون على نحو آلي يشوبه الفزع: «من اين جئتم؟» سأل الإمام سؤاله الذي لا يعني به احداً. «جئتم من هناك» اضاف في خشونة وهو يشير باصابعه العشرة الى اللامكان: «من الظلام. من الظلام. من الظل البارد، المُسْتَفْجِل، القوي، المحبوك كالسجادة؛ من ظل الظل؛ من الظل الذي لا لون له سوى لونه؛ من ظل كرسيه». وتلفت الى كل اتجاه هامساً: «كرسيه. .»، ثم ارخى يديه مطرقاً ليجعل الصمت اكثر ثقلاً تحت شفاة الجالسين. «كرسيه» وانتفض بعد القاء الكلمة ككرة: «الكرسي - العرش، العرش - الكرسي. ربكم الذي وسع كرسيه السماوات والارض. ربكم الجالس في فراغ حكمته. نعم، في فراغ لا تدركه الكلمة، او الشعاعات، او الصلاة نفسها». واستدرك: «لا. للصلاة يد كجناح تلمس الكرسي خفقة خفقة، دون ان تبلغ الفراغ الذي. .» ومسح جبينه بمنديله، مردفاً في اختصار واضح: «الفراغ، هناك. ربكم في مكان وكرسيه في مكان، وانتم في ظل الكرسي، في الظلام الاشدّ جمالاً ايها. .» وانتبه، بدوره الى الماء الذي تسلل من البوابة الكبيرة دفقة دفقة، رخيلاً هادئاً كأنها يصغي، فكشف عن طوق جُبَّتِه: «هذه غلاصمي».

منذ أول حملة في خطبة الملا أحمد استشعر المصلون رائحة الماء؛ رائحة الغرين والقصب القرم النفاذة على ضفتي نهر الجعجع، لكن لم يفتح أحدٌ أحدًا بسؤاله عن الرائحة تلك، إذ كان الوقت وقت خشوع. بيد لما بلغ الأمر مبلغه، واستقرّ الماء تحت منبر الخطيب، أسرّ الجالس إلى الجالس بما اعتمل في نفسه، وكيف كتم ما كان ينبغي ألا يُكتم. وقد ادعى كل امرئ السبق في بصيرته وفي منخريه، لكن المسألة كانت اكتملت. قال الملا أحمد: «هذه غلاصمي»، ومن بعدُ فجأهم: «تلمسوا اوداجكم» فوقعوا على

غلاصم، بدورهم، تحت الأوج، فدار بهم المسجد قليلاً من الفجاءة : رجال بغلاصم . متى خرجوا من الأنهر بحقّ الله؟ . لقد صرخ الملاّ أحمد : «جئتم من هناك» فما الذي قصده بقوله؟ الظلام؟ ظلام الكرسي أو ظلّه؟ ألاّ بدّ للمرأة من غلاصم إن وُلد في الظلّ؟ ، وقد نسوا أمر غلاصمهم في حمى البحث عن أحذيتهم . «أين نحن؟» ردّدها كل من خرج من الباب . وإذ استفحل الهمس المتسائل أوقفهم الملاّ أحمد بصرخته من المحراب الذي لم يبارحه : «ما حاجتكم إلى الأحذية؟ استخدموا غلاصمكم» .

استقر الفخ الاول تحت السلك العالي، حيث استقرت الزرازير . «زيوان» لم يضيّع فرصته، وكان «كرزو» يراقبه سارحاً بفكره الى شيء آخر، من نافذة الغرفة الشرقية . اما في الغرفة الشمالية، فكانت انفاس «سينم» تستقر بخاراً تتسع حلقة على زجاج النافذة المطلّة على الساحة البيضاء .

برينا كانت تنظر الى الساحة بدورها، من خلف رقبة كرزو الشبيهة برقبة ابيه في انحنائها . وكانت تضم الى جنبها طفلي زوجها الآخرين، «عاني» و«همزات» اللذين بلغا الآن، على التابع، السابعة والخامسة من عمرهما . لكنها تستقر ببصرها، بعد ان تدور به الساحة، على نافذة الغرفة الشمالية، كأنها تحتاح الداخل، ومن ثم تحيط بالمرأة البلهاء منصتة الى خفقات جسد الجنين : «كم هودافي؟ كم هوجي . تحرّك، تحرّك، بين يدي»، وكانت تفتح يديها كمن يتلقّى هبة، من مكانها هناك، في الغرفة الشرقية، وعيناها لا تبارحان الجدار الذي يستر سينم، واعماق سينم، وما خلف سينم وأعمالها . هدهدة، دافئة كانت تؤرجح المكان كله، بثلجه، وزرازيره،

وفخاخه، في انتظار الوليد الذي سيحمل، بين ساعة وأخرى، إلى برينا تعويضاً لن تملك سواه . وهي لم تتفكّر قط في تبرير للمسألة . لم تتفكر في الوقت الذي سيّلي . لم تتفكر في زائريها، وفي مساء لا them . ستغلق البوابة مثلما أغلقتها «خاتي»، من قبل، حين جاءها «بيكاس»، وهمّها أن ترى حفيدها الذي لن تُقنّع أحداً بأنه حفيدها .

في نزق بارد تتسع مملكة برينا، ويتسع العبث الضارب ببلاغته الصارمة في ثلج الساحة، وفي نزق، أيضاً، تندرج صرخات الطفل الخفيضة على المكان كله، حين تدخل برينا إلى غرفة سينم، أو تخرج منها، لاهثة : «هاتوا بالأقمطة . هاتوا بحساء العدس . هاتوا . . .» . أوامر على غير هدى يخرج بعض كلماتها وتضيع الأخرى تحت اللسان .

هكذا، بدأت عائلة الملا الغائب مساءها ذاك، وسط فوانيس ضئيلة اللهب تعدو بها أشباح عبر الساحة. وقد حضر ولادة ابن بيكاس، غير المصرح به، أم برينا، وأم سينم، والقابلة التي احضراها، بعدما تولى كرزو، ذاته - وهو يشتم كل ما حوله - تبليغ المرأتين همساً، بحسب رغبة زوج أبيه: «ستلد سينم». وقد كاد أن يقع كرزو في ملاسنة مع أولاد عفدي الذين اخشوشنوا معه أن دخوله ساحة بيتهم، عصر ذلك اليوم، لكنه جاوزهم ركضاً، واقتحم الباب المغلق دون أن يخلع حذاءه. ولما خرج مصحوباً بأمهم، جمع كرة من الثلج وأهوى بها على خيمة عفدي، التي علا حوافها ثلج سميك، من خلف ظهر المرأة، التي عبرت البوابة من قبله، فنوعده أولاد عفدي بحركات من الأيدي تشير إشارات تنم عن الذبح. وقد رد كرزو، بدوره، بإشارات سفيهة، قبل أن يصير خارجاً، الى جهة الزقاق الغربي.

ما كان على أحد أن يسأل عما يجري في الزقاق المغلق، إثر اقتحام الثلج العجول لأقاليم الشمال، لكن ذلك لم يكن يمنع، بأية حال، أن تظل للزقاق شؤونه التي يتناوب على اختبارها كل من جهور وحشمو. وكانا الوحيدين اللذين لم يربكهما الثلج المبكر جداً، اذ عمداً، منذ الندف الأولى، إلى صعود السلاّم وهبوطها، ماسحين عن أخشابها ما يعلق بها من خثارة الساء، أما السلم الكهرماني فكان كفيلاً بنفسه، يزداد التماعه المضيء الاصفر كلما ازداد الهطول الابيض كثافةً. غير أن ساحة بيت عفدي، التي كانت تغوص في ثلجها أرجل الدجاجات السارحة، لم يشغلها شيء قط، وظلت منطوية على نفسها، كالخيمة المنطوية على نفسها في زاوية السور، تميد فتتسع، ومن ثم تنطوي فتضيق، دون أن تدع لأحد فرصة الوقوع على سرّها. وكان مفهوماً أن يغفل القابعون داخل الغرف، من عائلة عفدي، عن احوال الساحة، لكن ما من عذر للخيمة المنتصبة هناك، تلك السادرة في محاورات هامسة داخل ظلام أعماقها.

ثلج على سطح الخيمة. ثلج ينزلق رويداً رويداً عن الحواف المائلة فتطغى خشخشة انزلاقه على صوت عفدي: «أعرفهم واحداً واحداً. أكلوا كلابهم من الجوع، وها هم يتناولون علي!!». ثم يسود صمت لبرهة، قبل أن يردف: «دوّن في دفترك انني سأخذ قرية ترسبي أيضاً. هل أظلمك بهذه القسمة؟».

من يدوّن كلام عفدي في خيمته المغلقة كأعماق دجاج الساحة؟ إنه هو

السبب، كما يردّد عقدي. الضيف الخفي هو سبب المسألة كلها، وهو يدوّن في دفتره ما يتقاسمه مع عقدي من رقعة الشمال المديدة. تلك هي الحكاية، مختزلة، منذ اعتكاف الرجل الجهم. وكان سؤال كرزو الوحيد، قبل الرحيل عن منزل عائلة برينا، منصباً على مدى جهل عقدي بالتحول الذي أصاب ظلال الرؤوس: «كيف له أن يرى من قبره هذا؟»، ويدور حتى يواجه الشمس، تاركاً لظله أن يسقط على جدار الخيمة، ومن ثم ينبج ككلب، ضارباً بكفه على القماش السميك الذي يعلوه الغبار: «تعال ننبج معاً يا جدي». ويبصق متمناً: «يا جد الكلاب».

كانت أوكار النمل تتجاور من حول الخيمة بانتظام: فتحات صغيرة مخروطية بما يحوطها من تراب ناعم، وغدو ورواح، من كائنات يتقرى بعضها البعض بقرون استشعاره فلا يصطدم الخارج بالداخل قط، بالرغم من العجلة الواضحة في حركاتها. ولربما عمد كرزو إلى الحيلة المعروفة في إشعال الخصام بين نملتين، ليخفف قليلاً من انتظاره الممل لما يمكن أن ييدر عن الخيمة. والخيمة لا تثير فضول أحد سواه. إنها منسية، وهذا ما يغيظ الصبي، فيرفع نملتين، بين أصابع يديه، ثم يدانیهما حتى تلتقط إحداهما الأخرى، من الغضب، بكلاّبتيّ فمها. إذ ذاك يُنزلهما كرزو إلى الأرض ويفلتها، فيأخذ العراك مداه، ولا ينتهي إلاّ بقطع رأس واحدة منها.

النمل الأسود نمل غضوب، يرتدّ مهاجماً إصبعك إذا لامسته بها. وهو جشع، يخبىء من الحنطة ما يكفي مؤونة شتاء لعائلة من أربعة أنفار. ولقد كان دأب الناس، في بدايات الخريف تحديداً، أن تنكب على حفر أوكار النمل بعمق مترين، في الغالب، متبّعة الممرات الباطنية، حتى تعثر على «المخازن» فتنهبها، وكان على النساء، من ثم، أن تحضر غرايلها، الصغيرة منها والكبيرة معاً، ليجري فصل الحَب المختلط. غير أن زوج مهمد بن كوچري، أم سينم، كانت معتكفة ذلك النهار، الذي صرخ فيه عقدي بضيفه: «سأخذ قرية ترّسبي»، على غربة النخالة، لتمزج القشور الخشنة منها بالتبن لبقرتها الوديدة كابنتها. وفي الوقت ذاته الذي كان كرزو يضرب بكفه القماش السميك لخيمة عقدي، كانت سينم تضرب بكفها على دلو البشر في ساحة بيت أبيها منصتة، إلى الصدى الممتزج بهأهاتها، وقد استندت ببطنها المنتفخ على حافة الدائرة الحجرية للفوّهة، برغم أن امها حذرته مرتين من

قبل: «ألا تحسبن يا عنكبوت الحظيرة بانتفاخك هذا؟ لا تستندي إلى الحافة هكذا، ستقتلين الحشرة التي تحملينها».

ما همّ إن قتلت سينم ذلك التعب الذي أقلق أحشائها بانتفاخه العصيّ على فهمها؟ كانت تتأمل نفسها، في لحظات غير مُحْتَسِبَةٍ من تأمل طارئ وغريب، متمسكة تلك الكرة التي تدفع سرّتها أماماً كزهرة طائشة: «بطني. بطني»، تطلق الكلمة في حبور كحبور طفل بقوس بوله، وقد أخذت الهاهأة الصاخبة منها مأخذها. أما أمها فَعَيْت وهي تدير السرّ على محمله بأن تشد بحزام على وسط ابنتها حتى ليكاد الوليد أن ينزلق خارجاً، أو يراحم موضع الرئتين. ولكم حثّتها، أول اعراض الحمل وأواسطه، أن ترفع عشرين دلواً، كل يوم، من مياه البئر، وأن تصعد السلم وتهبطه مائة مرّة، لكنها بكت - أم سينم - إذ رأت ابنتها منزلقة على الوحل الذي يُجدّثه ما يندلق من الدلو حول البئر عادة، يتنازعها الأئین والهاهأة البلهاء معاً، وهي تمسك بأحشائها، دون أن ترفع وجهها الغائص، جانبياً، في الوحل الداكن. وأم سينم، منذ ذلك اليوم، لم تحث ابنتها على شيء ثقيل من هذا: «ليكن ما يكون. هذا امتحان الله، وتعويض بالنعمة على البلاء».

«امتحان الله». كان الملاّ بيناف يكرر كلمتي «امتحان الله» كثيراً كلما حاول شرح الأمر لأخيه «مهمد»، لكن برينا لا تنطق بكلمة واحدة ذلك المساء، حيث يضيء المصباح الشاحب خصلة من الشعر أَفْلَتَتْ بتمهّلٍ على طول صدغها وفكها، بينما راحت تمسّد القابلة، من وراء ظهر أمها وأم سينم، بأواني من «الجنكو» وبأقمطة كثيرة، وهي بادية الجذَل. ومن ثم هبت منطلقة إلى ظلام الساحة، وتمتعت دون أن ترى مَنْ تكلمه في ذلك البرد الصامت: «إذهب إلى بافي كازمو، وقل له ان يهيء عربته وجواذيه وله عشر ليرات»، ومدّت يدها بالنقود إلى كرزو الذي تعرف أنه يقف هناك، في الظلام، منتشراً كالسندف البيضاء التي توقفت قليلاً لتسترسل أشدّ هطولاً، بعد ذلك. «هاك» همست، فتناول الصبي النقود ومضى على عجل نحو بوابة السور.

أكرمت برينا القابلة فأنتها بعربة لا تخرج في ليل كذاك عادة، ثم واكتبتها حتى البوابة بمصباح يتدلى لسانه المضيء ككلب عطشان. وإذا أردفت البوابة كادت تركض عائدة عبر المسافة التي لا تزيد على مائة متر، لكنها، شفقة على شعلة المصباح المتمايلة في وهن، ارتأت أن تهول، حتى دون أن تلتفت إلى شبح الصبي الملتصق بالحائط، تحت النافذة. ولما دخلت علقت المصباح إلى

جوار مصباح آخر أكبر خاماً، ثم جثت، كرة أخرى، في الموضع ذاته، خلف المرأتين اللتين انصرفتا إلى شغلها مع سينم ووليدها. وكانت سينم، على غير عهدها بما تعودته، تجس هأهاتها وهي ترفع رأسها، بين ثانية وأخرى، في ذهولٍ شفيفٍ، ناظرة الى وجه الوليد الذي لا يبدو منه، في ظلال المصباحين، غير فم مزوم وأنف أفطس كبير على نحو واضح، وعلى نحو واضح، أكثر من المرأتين الأخريين، كانت أم سينم تطحن الاسئلة الصامتة تحت رحي أعماقها، وهي تغوص بنظراتها، عميقاً، تحت جبهة ابنتها فلا تقع إلا على فراغٍ يتناهشه إوزٌ غضبان. «ابنتي». نعم، «ابنتي»: كلمة تبقى تحت لسانها الذي تعض عليه داخل فمها المغلق. وما الذي، بحق، يمكن أن تضيفه الى كلمة «ابنتي»؟. لسنين لم يمكن لأي حوار معنى، لذلك اختزلته مع بلهائها إلى اشارات بلهاء، وجمل غير مكتملة، وأنصاف حروف، وتأتآت، وشتائم. وفي ودها، الآن، ان تقول شيئاً آخر، فلا يسعها غير خيط مالح من الدمع يصل العين بزواية الفم. وعينها اليمنى، تحديداً، هي التي بدأت الكلام. مراراً بكت زوج مهمد في الشهرين الأخيرين من حمل ابنتها، إشفافاً، ولم يكن يشغلها، قط، أن تقدم هي، أو زوجها، تفسيراً لأحد. إنها غير مدينين بجواب حتى لله، بعدما شهدت هذه اللامدينة انزلاق مسجدها جنوباً، وعواصف غبار بلا نذير، وثلوجاً تثير القهقهة في فصل كان ينبغي على الناس أن تنتظر فيه أول المطر وهي جالسة على عتبات ابوابها، مشيرة الى رفوف الكراكي المترددة في عبور الشمال الدافئ حتى أعماق أنهاره الصغيرة. بل الأكثر صدقاً أن أم سينم كانت تبكي إشفافاً على كل شيء: على ابنتها، وعفدي، وجهور، والملا بيناف، وخاقي، وحشمو، والرؤوس التي ترتسم ظلالها على هيئة رؤوس الكلاب. إنها تبكي لما يضيفه البكاء من خشوع على هذا العبث كله، الذي لا تدرك منه إلا انتفاخ بطن ابنتها: «البكاء، دون ادعاء ذلك امام الناس، يقي أرواحنا من غواية الضحك الذي يذهب بالهبة». هذا ما يقوله زوجها، وهي لا تفهم من ذلك إلا ان للبكاء حشمة لا يهتكها احد يوم القيامة، ولا يعترض الباكين ملائكة من الملائكة، أتى مضوا على وجوههم في أنحاء أرض الحساب ذات المقامات. غير أن ابنتها كانت تجرف بهأهاتها الملائكة القورين، فينسون حتى أحذيتهم النورانية وهم يهرولون خارجين من ساحة بيت مهمد. والبلهاء، طوال الشهرين الأخيرين من فترة حملها، اللذين ملأتهما أمها بكاءً أخرس، لم يخامرها قط أن تكون المسألة إلا لعباً. وهي،

بأي حال، لا ترى في كل ما تراه غير هزل يدغدغ الحياة. ولطالما كشفت عن بطنها مستطلعةً، في هذه الزاوية، أو في تلك، حين باتت تدرك، من كثرة من انتهروها، أن الآخرين لا يستحبون ذلك، ولربما عمدت إلى أن تحبو، وهي تقارن جذعها بجذع البقرة فيزيدها خيالها المتكور على ذاته صخباً، فينتهرها من ينتهرها، من جديد، إذ يفضحها صخبها. وها هي ترفع رأسها قليلاً، دون هأهأ، محدقة في وجه وليدها الذي لا ترى منه غير أنفه وفمه. أما كرزو فكان يجهد من مكمنه البارد أن يرى أكثر مما يراه، لاعناً ظهر المرأتين (زوج مهمد وزوج عقدي) المشتغلتين على أشياء لا يراها، مستديرأ بين الحين والآخر بعينيه إلى شباك الغرفة الشرقية، وقد وضع راحتيه بين فخذه، ليشير إشارات مهددة إلى الرؤوس التي تتزاحم معتمة في ما يعكسه مصباح الداخل من ظلالها، جاهدة، بدورها، أن ترى، لكنها، يقيناً، لم تكن ترى إشارات كرزو المتوعدة، بل الشباك الشحيح بضوئه، كأنها تهرب الغرفة الشمالية، رويداً، رويداً، إلى حدود أخرى للظلام.

إنهم أولاد الملاً الثلاثة، زيوان وأخواه «عاني» و«حمزات»، من ينظرون إلى الخارج، حاجبين براحتهم الصغيرة ضوء المصباح عن عيونهم الملتصقة بالزجاج حتى يروا الساحة، وهم يتتبعون كرزو بأعينهم ليكون دليلهم إلى ما يجري. وبرغم أن الظلام يقتحم الأرض مبكراً في طقس كذاك، فقد ظلوا محدقين في شبح أخيههم. وإذا تساوت الأشكال تحت خمائل الساحة المعتمة لم يتراجعوا: الراحات والأعين تزداد التصاقاً بزجاج النافذة، والأنوف تشم الخطى الخفية، حتى ليكادون أن يمدوا أيديهم، في لحظة فضول كبيرة كالحمى، عبر الساحة كلها، إلى جدار الغرفة الشمالية ليزيحوه، من أساسه، كباب خزانة خشبي، كاشفين المشهد على عريه.

والمشهد عارٍ، في الداخل، على كل حال: ولادة كأية ولادة. تعب، وأقمطة، وحساء محلى من السميد والخبز، وأحاديث فكهة، وفضول أطفال. غير أن ما كان ينقص هذه الولادة، لتكون كمثيلاتهما، هو انتفاء الزائرين تماماً، عدا مهمد، الذي مرّ بالساحة مروراً، في ذلك الظلام. وقد توقف عند شبح كرزو دون أن يجاوزه، ثم سأله بضعة أسئلة وعاد أدراجه كما جاء. وإذا مرت ساعة، أو ما يزيد قليلاً، بدأت حركة النساء الثلاث، في الداخل، تشهد يقظة قلقة. وكان كرزو، دون أن يسمع كلمة واحدة منهن،

يتأمل انقلاب الإشارات في الأيدي، وتبدلات الوجوه المقنعة بظلال المصباحين، مبتسماً ابتسامة مكر يخفيها الظلام، لكنه أجفل قليلاً من صرير البوابة الكبيرة، فالتفت محدقاً في إمعان، دون أن يسعه الشعاع المنسرب تحت طبقة الثلج من رؤية شيء. حينذاك تقدم بنفسه صوب البوابة، وإذ قاربها توضّح له العراء الرمادي الذي يلي الدقة الخشبية المفتوحة قليلاً. همس: «تفضل»، كأنها يداري ارتياحه بنبرة مؤدبة. وبالطبع لم يتفضل أحد بالدخول، فتقدم أكثر حتى العتبة، ثم مدّ عنقه خارجاً، مديراً عينيه في اتجاه اليمين واليسار، من غير أن يرى كائناً، أو شبح كائن. واذ هم بردّ البوابة المفتوحة سمع خشخشة خطى في الثلج، فانتفض في اتجاه الخارج من جديد، دون أن يجاوز العتبة مما اغتلى فيه من فزع خفيف كدغدغة.

لم ير كرزو أحداً يمضي، غير أنه لمس الخطى المبتعدة لمساً بيديه لا بأذنيه، فخطا بدوره في اتجاه الشمال، حيث الخلاء الواسع الذي لا يوقفه غير خيط قصير من البيوت، ودغل ينتهي بأسلاك شائكة تفصل البر التركي عن البر السوري. ولم يخامر كرزو، في تتبعه الغريب للخطى الغريبة، خوف قط. بل كان اقرب الى الغضب بانفعاله، يكاد يهرول بإصرار من يعرف أن امراً ما فاته مراراً، وها هو الآن مشرف على إدراكه، لاهثاً: «انتظري، انتظري يا كلب»، ثم يتوقف مهدداً وهو ينشج: «سأخبرهم، والله، أنك كنت هنا طول الوقت: قرب الشجرة الكهربائية، وفي خيمة عقدي، وفي الرقاق المسدود، سأخبرهم...» ويحتبس الكلام في حنجرتة التي تلين تحت دغدغة الدمع الساخنة فوق وجنتيه، لكنه، إذ يستدرك حاله كمغلوب على امره، يتمتم بضع كلمات يائسة: «أنت لم تره بعد. أنت لم تر الوليد بعد. . يا».

جهامة تتفجر بين الثلج والظلام. النساء الثلاث يغلقن بهرولتهن القلقة، في الغرفة الضيقة، ما يحاول كرزو أن يستجليه، في التصاقه الخائب بالنافذة. وهو سادر، في الأرجح، بين خيبته وبين ما يراه بعينه دون أن يمس قلبه، كأنها يتناوبان، هو والمشهد، على الهرب، أحدهما من الآخر. والساحة سادرة بدورها: شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط من وحشها تنفض عن ورقها، في تمايل حسابي، رقائق الثلج التي لم تتكثف بعد. وهي ترى الآن، كما كانت ترى في كل آن، في الظلام أو في خلافه، الجهات الأربع بحسب تتاليها المنطقي: الغرفة الشرقية، والبوابة المتصلة بجدار الغرفة وبالسور معاً. والسور الغربي الذي ينتهي بجدار غرفة التنور. ومن ثم الغرفة

الشمالية التي تتصل، بسقفها، ببيت يجاورها، وقد وحدتها زاوية مشتركة بضلعين: شماليّ وغربيّ، وفي الجنوب ثُمّت غرفة التنور، والحظيرة الضيقة، وجدار خلفي لأحد البيوت التي تطل بأبوابها جنوباً، ممتدّ كسور عال بين آخر جدار للحظيرة وبين الغرفة الشرقية، حيث تتزاحم الوجوه الصغيرة على استجلاء شبح كرزو. وفي مُكنة شجيرة الزيتون هذه، عدا الجهات الأربع التي تراها، أن تتأمل السماء أيضاً. بل أن تتأمل، تحديداً، تلك التويجات الباردة البيضاء التي تفتتها يد ذكورية من الأعلى الضائع في علوه. وهي، بعد كل هذا، تحاول، مثل كرزو، أن ترى المشهد الذي يخفيه زجاج النافذة الغارق في الشحوب، لكنها لا تقدر أن تتناول على جذورها، مثلما يفعل الصبي بتطاوله على أصابع قدميه، فتغمرها لوعة لا تخفيها إلا الشبكة الرمادية المنسوجة من ثلج وظلام.

لقد تعودت شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، في غياب العائلة، أن تتفنّن في إبداء حنقها على تلك الوحدة المقدّرة عليها عن سابق إصرار واضح، ومُحكّم. ولم تكن تأبه، بحق، لهؤلاء الذين تتدحرج ظلّهم البنفسجية من خلفهم على الساحة المهجورة. وهم، دون حاجة إلى تمعّن أو حصافة، كائنات لا تراها إلا الشجرة، بدلالة أن العصافير، وهي الأكثر ريبة بين طيور الشمال، لم تلاحظ مرورها. بيد أنها، يوماً بعد يوم، ألقت حضورهم الخفيف، متسلية كشجرة وحيدة، بالتأمل المرح في أحوالهم، حتي أنها صارت تفتقدهم حين يغيبون ساعات الفجر، فلا يظهرون، بعدئذ، إلا قبيل الظهيرة. وكانت تتكهّن، كثيراً، بالذي يفعله هؤلاء - ذوو الملامح الضائعة تحت الشعور الطويلة، والعباءات التي يجرونها أذيالها وراءهم - في ساعات غيابهم تلك. وهي - الشجيرة التي لن تكبر قط - لم تكن مفطومة على أن تُغضي قط حين ينظر إليها أحد ما: «الشجر لا يغضي». تلك بديهة النبات، إذ لا يُفترض أن كائناً، أيّاً كان، قد يلتقي بصره ببصر جذوع تحمل أغصاناً تحمل أوراقاً وثقاراً. تلك بديهة النبات، لكن شجيرة الزيتون هذه تُغضي تماماً حين يتأملها ذاك الغارق في بياض عباته وشعره، وفي بياض عينيه أيضاً، والمتأبط دفتراً أزرق حال لون دفتيه. وكانت في إغصائها تكاد أن تلم غصونها وأوراقها لثماً. والشجيرة، وهذا ما حيّرها، كانت ترى الجهات بكليتها: من هذه الورقة ومن تلك؛ من هذا الغصين ومن ذاك، فكيف يحصرها الكائن ذو الدفتر حصراً بنظرة تحيلها عيناً واحدة في قبالة عين واحدة؟

انه، يقيناً، رقيب المكان المهجور عليها، كما هي رقيب المكان المهجور عليه وعلى الجمهرة الشبيهة به. ولقد طالت فترات المجابهة، بتتالي الوقت، بينها وبين الكائن ذاك، حتى أجفلها، ذات مرة، مقترباً اقتراباً غطاها بظله النفسجي، فأحسّت به كما لم تحس، من قبل، بشيء آخر، قط.

إنها تعرف ما تتركه الريح، قويّها، ورخيّها، بين الغصون؛ وتعرف نهبَ البرد ونهب الحر. تعرف الغبار الطائش والمطر الوديع، وخلافهما. ولكل معرفة من هذه أثر يسري بأهوائه الى أعماق جذورها، خريفاً مرة وحامضاً مرة، مرّاً مرة وحلوّاً مرة. مرّاً مرة وما بين هذا وذاك، مرة أخرى. غير أن لظل الكائن الحامل دفتره مذاقاً شيقاً؛ مذاقاً كسيادة جذر قويٍّ أو كسيادة ثمرة قوية؛ مذاقاً كانتظار مُفْعَمٍ بالعذوبة أو بالشهوة. أما حركة يد ذلك الأبيض من ثيابه حتى عينيه فكانت أشبه بحركة رؤوم عهديتها الشجيرة من قبل. إذ دأبت تلك اليد، مراراً، على أن تُقَلِّبَ بعضُ الورقات، كأنها تتفحص عافية الشجرة طُراً، في رافة من يُقَلِّقُ طفلاً بقبله لا يحيد عنها. وراعها كم الحركة تلك شبيهة بما كانت يد الملائك بيناف تهرقه، بأناملها الخشنة من أثر الوضوء في البرد، على أوراقها. ولقد كانت الشجرة تتأمل أنامل الرجل الوقور، زوج برينا، بخدجاتٍ ولّهية، ولو مكّنها الكلام منه لاستوقفته وهويقلب ورقاتها، داعية كل عطف فيه أن ينثني على غصين منها: «أغمرني بك قبل أن تأخذك الظلال». وللظلال، في عرف الشجيرة التي لن تكبر قط، مقام قَلِقٍ: الظلال لعبة طائشة. الظلال هي ضجر الكتلة من كثافة الكتلة.

لم يكن غير الظلال في الساحة المهجورة، قبل رجوع برينا بأولاد زوجها إلى البيت. وكانت الشجيرة عاكفة على تصنيفها بحسب اللون والشكل والرائحة. نعم. «للظلال رائحة». هذا ما عرفته هذه النبتة الغبراء التي لم يجاوز طولها المتر، وقد تنسّم الظل النفسجي الذي كساها فألفته على مزيج من رائحة الملائك بيناف. وهي تعرف رائحة الملائك بيناف العالقة بها وبالتراب الذي من حولها. وإذا تحاول تحديدها يستعصي التحديد: «رائحة. . . كماذا؟». إنها مترفة باختلافها على كل حال، وها للكائن الأبيض الغارق في بياضه نسب ما، برائحة ظله، إلى الرجل الوقور الذي أخذته الظلال، بحسب تخمين الشجيرة، لذلك استأنست يده. وها هي ترى، الآن، من المكان ذاته، شبح كرزو المهول في الظلام صوب البوابة، بعدما أحسّت مثله، تماماً، بأن أحداً ما يسترق النظر الى الساحة، من وراء الدّقة التي فتحتها على بعض

مصراعها. وكمثل كرزو، أيضاً، تعرف من يقف هناك؛ تعرف الخطى الأكيذة التي تخشخش في الثلج، ذاهبة في الاتجاه ذاته؛ إلى ضجر الكثافة من كتلتها.

ما من تحديد للمسألة في برهة الراهن، تحت صرخات الوليد الآتي من أحشاء سينم بكل جهالة تلك الأحشاء. وما من تحديد للمسألة في البرهة التالية التي شهدت إنقلاب حركات النساء في غرفة سينم: «المسألة!! أية مسألة؟» قد تهمس أعماق أحد ما، وهو على حقٍّ يقيناً، مثله مثل كرزو والشجيرة، إذ أن صورة أم سينم وأم برينا، وهما تخرجان معاً، ملتصقتين، في دھول يتبيّنه الثلج وسور الساحة، يوقظ الكلّ (الهواء، وما يلّمسه الهواء) على مهزلة دخلت بيت الملائ، ثانية، بعد تسعة أشهر من تشردھا. ومُختَصِرُ اللعبة كلّھا، أن سينم أنجبت ابناً ذكراً على هيئة أبيه في انقلاباته، وما كادت تحلّ الساعة الثانية من ولادته حتى كان يتحسس شاربیه كمن يتفكّر في اعتذار مناسب. وكانت برينا تفكّر، بدورها، في اعتذار مناسب، لا إلى أحد، بل إلى نفسها: «لا بأس»، ومن ثم تتطلع من حولها كأنها تستنجد: «أين أنت يا بيناف؟».

كان على أم سينم وأم برينا أن تعودا الى الداخل من جديد، بعد ذلك الهرب الذي لا تعرفان لماذا اقدمتا عليه، وقد تبعهما كرزو، مستغلاً دھولهما، وشرودهما عنه، فألقى برينا ممسكة بيد ابن ابنها المستند بظهره إلى مخدة عالية، وهي تسأله في هدوء ثقیل: «ماذا نسّمیک؟»، فابتسم الوليد الذي اقتسمت ملامحہ الغامضة ظلال المصباحين، ملتفتاً إلى أمه المفتوحة الفم على هأهة محبسة: «ماذا ستسميني يا أمي؟»، فانطلقت الهأهة عارمةً من بين شفتي البلهاء التي لم ترفع رأسها المعصوب عن المخدة. «أووہ» تتم ابن بيكاس مستدركاً، وأردف: «خُلِقْتُ من الهأهة يا أمي». وتفرس فيها في حنان رجولي: «لقد ملكت كل شيء». ثم جال ببصره على وجهي المرأتين المختلفتين في ثيابهما الثقيلة كروحيهما، وجاوزهما إلى وجه كرزو الغارق في الظل من خلف المرأتين، مبتسماً: «أنت كرزو، إذا؟ حيرتني يا ابن جدي»، فلم يعقب كرزو، بل نطقت برينا: «أتعرفه أيضاً؟ حيرك بماذا يا . .»، فأكمل ابن ابنها ما لم تقله هي في جملتها: «بيكاس». فلاكن بيكاس الثاني يا جدي. هذا هو اسمي». «بيكاس» رددت برينا بعده، وأكملت: «ليكن يا بيكاس. قل بـم

حَيْرِكْ كرزو؟»، فنظر بيكاس الثاني إلى كرزو، لا إلى جدته: «حَيْرِنِي بلعبته».

ليس على أحد أن يغرق في شروح تتصل بشروح، لذلك تواطأ الحاضرون، من كرزو الى البلهاء، على مجاوزة ما يستوقف عادةً. فإن وردت كلمة «حيرني بلعبته» على لسان بيكاس الثاني، فما من داع لاستيضاحه في أمر اللعبة التي يعينها. والأجدي أن تتم المجادلات، من ثم، على انفراد: أم سينم ستسأل أم برينا عن المحنة الجديدة. برينا ستسأل كرزو عن اقتحامه للغرفة. سينم ستسأل ابنها إن كان ديكاً. كرزو سيسأل بيكاس الثاني عن الذي يعنيه بكلمة «حيرتني بلعبتك». ابن سينم المحير سيسأل برينا عن مدى تعبها من العبء الذي حملها أبوه، والذي سيحملها، هو، الآن. شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط، ستسأل الشبح المقرب، رويداً رويداً، صومها، وهو ينظر في اتجاه نافذة غرفة سينم، عن الملا بيناف. وسيسأل الثلج الظلام عن قلقه الظاهر هذه الليلة.

أسئلة، أو بقايا أسئلة. غير أن العيون يقظى على المشهد: الآدميون، والشجيرة، والثلج والظلام، واللامرثيون، يرقب أحدهم الآخر في فضول منمّق لا خوف فيه، أو قلق. لعبة تُستكمل، وليل يزحف زحفاً في اتجاه الغد، كجريح قابض على أحشائه خوف أن تندلق. وصوت ليس إلا صوت كرزو وهو يخاصم أم سينم التي نهرته على وجوده في الغرفة: «إذهبي أنتِ الى بيتك. سأبقى هنا»، فترد عليه برينا: «إخجل يا كرزو من زوج عمك». ومن ثم يرتفع، على غير تقدير، صوت سينم ذاتها: «أبي لا ينام»، فتهمس أمها: «نامي أنتِ يا ابنتي. أبوك نائم الآن».

ما الذي ألهم سينم جملتها تلك؟ مهمد بن كوجري رجلٌ وديع وصموت. تقيٌ وعفيفٌ. مكتفٍ، ولا أسئلة لديه عن أحوال العالم. زوجه أبوه ذو القرنين، حسين بن حسو الميرسيني بن كوجري، من «عيشانة» بنت «أوسي بدرخان» وهو لم يزل صبيّاً. ويزعم الزاعمون أنه دخل عليها بعد ستين من وجودها في عهده. وكان دافع حسين الجلي هو تقربُه الغامض من «أوسي» الذي لا نفوذ له على أحد، بل يحمل في جسمه ما يحار أي نفوذ في فهم ذلك. وللغرائب، بحسب عرف الناس في الشمال، كرامات. وما من تفسير لإقدام حسين على تزويج ابنه الصبي غير ذلك. والأمر، برمته، أن «أوسي» أصيب بطلقة في الحرب التي دارت بين الاكراد والبدو في قرية «قولو»، وقد انتقل، من

ثم، مع المتقلبين من أمثال حسين بن كوجري، الى قرية موسيسانا، لكن جراحه التي حشاها تراباً ليوقف النزيف، آن أصيب، تفتقت عن حرشوف أخضر، امتد بأوراقه الشوكية، من الكتف الأيمن الى العنق، نزولاً الى الثدي الأيسر.

أكان التراب الذي حشا به جراحه مختلطاً ببذور الحرشوف؟ من يدري؟ غير أن الرجل كان يصِّرح أنه لا يشعر بأي ألم من نمو ذلك النبات في جسده، برغم اضطرابه الى قدَّ ثيابه في المستوى الذي ينمو النبات فيه. ويات ذهوله الذي اعتراه، أول الأمر، يتحول، يوماً بعد آخر، الى خيلاء، رأى فيها الآخرون قسطاً من امتحانٍ إلهيٍّ جدير بالتكريم. ولهذا تقدم حسين بن كوجري إليه طالباً يد ابنته فوهبها «أوسي» له. وبعد أيام من انتقال ابنة «أوسي» إلى بيت حسين، انتقل الرجل ذو الحرشوف الى مقبرة موسيسانا. فلقد غطى النبات جسده حتى غدا ظهوره بين الناس مستحيلاً، وغدا ارتداؤه للثياب امراً كالتعذيب. وإذا حاول بعض أهله تشذيب ذلك الحرشوف بالمقص الذي يستخدمونه لجزّ الصوف، هزَّهم صراخ الرجل كأنها يقتطعون اعضاءه، فكفوا عن ذلك. غير أن الحرشوف امتد وفاض، فكان الرجل، إذا مشى، يجرّ وراءه ذيلًا من النبات كذيل العباءة. ولما اصفرَّ حرشوف البرية، في ربيع ذلك العام، اصفرَّ «أوسي» بدوره، ثم بيس ومات. ومذ دفنوه في مقبرة موسيسانا، بات الحرشوف يغطيها كل ربيع، من أول قبر في جهة القبلة إلى آخر قبر. فاستبدَّ بأهل الموتى غضب لم يخفوه، وهم يتعوذون بالله أن مروورهم بقبر «أوسي». بل تنبّه اولاد أوسي، في ما بعد، على محاولات غير مكتملة لنش القبر، فغطوه برصْفٍ من الحجارة الثقيلة في دائرة قطرها أربعة أمتار.

«أبي لا ينام» تكرر سينم كلماتها، فلا يردّ امها، بل يرد بيكاس الثاني: «إذا نمت يا أمي ينم جدي ايضاً»، فتغطي سينم وجهها، على حين غرة، بالحاف، ثم تفسِّره على النحو المفاجيء ذاته، كما يفعل الأطفال حين يلهون، مهاهئة: «نامت الدجاجة. نامت البئر. نام السور. نام كلش. نامت بريخانة. نام الشباك...». فتقاطعها برينا: «كلنا سننام يا سينم. ألسنت جوعانة؟»، غير أن البلهاء تجاوز السؤال، محتوية، بغتة، رأس ابنها بين ذراعيها: «أنت ديك».

بيكاس الثاني يزداد اتساعاً، خلية خلية، شعرة شعرة، عظمة عظمة،

ثَنِيَّةٌ ثَنِيَّةٌ، غَضْرُوفاً غَضْرُوفاً، مَفْصَلاً مَفْصَلاً، تَجْعِيدَةً تَجْعِيدَةً، ظَلاً ظَلاً، عَمَقاً عَمَقاً، وَكَثَافَةً كَثَافَةً. بِيكَاسِ الثَّانِي يَخْتَزِلُ كَلَامَ الْآخَرِينَ إِلَى حُرُوفٍ تَعَجَّبُ، وَبَعْضُ الْإِشَارَاتِ الْعَمِيَاءِ فِي الْمَلَامَحِ الْحَائِثَةِ. وَالْحَاضِرُونَ، يَقِيناً، (أَرْبَعُ نِسَاءٍ وَصَبِيٍّ) يَسْتَأْهِلُونَ هَذَا الْإِخْتِرَالَ، وَهَذَا التَّقْتِيرُ فِي الشَّرْحِ وَفِي غَيْرِهِ. فَالْجَمِيعُ مَرَّوًا، مِنْ قَبْلِ، بِمَا يَرُونَهُ الْآنَ، وَبِيكَاسِ الثَّانِي، عَلَى غَيْرِ عَهْدِهِمْ بِأَبِيهِ، مَلُولٌ حَتَّى الْإِعْيَاءِ. ضَجَرٌ مِنَ الْأَسْئَلَةِ، مُتَأَفِّفٌ: «أَسْتَبْقُونَ مِنْ حَوْلِي هَكَذَا؟ دَعُوا أُمِّي تَتَنَفَّسَ، وَدَعُونِي أُنْتَفَسَ». فَيَلْتَصِقُ الْجَالِسُونَ مِنْ حَوْلِهِ بِالْأَرْضِ بِكَلاَبَاتٍ خَفِيَّةٍ، ثُمَّ يَتَمَلَّمُونَ فَيَخْلَعُونَهَا نَاهِضِينَ كَالْأَشْبَاحِ: «أَنْتَرَكْ مَعَ أُمِّكَ؟» يَقُولُ صَوْتٌ مَا عَلَى اللَّاتَعِيِّينَ، فِيرِدُ الْمُنْكِيءِ الْغَامِضُ، ابْنُ ظِلٍّ يَحْمِلُ دَفْتَرَهُ الْأَزْرَقَ أَبَدًا: «لَا. سَأُخْرِجُ أَنَا، وَلَتَبْقُوا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ».

حِينَ انْسَلَّ بِيكَاسِ الثَّانِي مِنْ تَحْتِ اللَّحَافِ السَّمِيكِ لَمْ يَكُنْ عَارِيًّا، بَلْ يَرْتَدِي ثِيَابًا نِسَائِيَّةً هِيَ بَعْضُ مِنْ ثِيَابِ بَرِينَا نَفْسَهَا، الَّتِي لَمْ تَغْفَلَ عَنْ أَمْرِ كَهَذَا، فَأَحْضَرَتْ لِحْفِيدَهَا مَا لَمْ تَجِدْ غَيْرَهُ فِي بَيْتِهَا. وَحِينَ شَارَفَ الْبَابَ اسْتَوْقَفَتْهُ جَدَّتُهُ: «أَأَنْتِ خَارِجٌ حَقًّا؟»، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِبْ، بَلْ مَدَّ يَدَهُ إِلَى مَقْبِضِ الْبَابِ فَأَدَارَهُ، ثُمَّ خَرَجَ تَوَاكِبَهُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً: «قَدَمَاكَ حَافِتَانِ. الْبَرْدُ. خُذِ اللَّحَافَ». وَإِذَا أَوْصَدَهُ مِنْ خَلْفِهِ كَادَ يَتَنَفَّسُ الظَّلَامَ كُلَّهُ مَلءَ رُثْيَتِهِ: «هَآؤُنَا». وَتَقْدُمُ حَافِيًّا فِي الثَّلَجِ صَوْبَ شَجِيرَةِ الزَّيْتُونِ. تَأْمَلُهَا كَمَنْ يَرَى فِي اللَّيْلِ أَعْمَقَ أَعْمَاقِ جَذُورِهَا، ثُمَّ دَارَ مِنْ حَوْلِهَا نِصْفَ دَوْرَةٍ، مُبْتَسِمًا، وَاتَّجَهَ إِلَى الْبَوَابَةِ الْكَبِيرَةِ فِي السُّورِ، مُتَغَاضِيًّا عَنْ خُطَوَاتِ كُرْزُو الْخَفِيفَةِ الَّتِي تَبَعَتْهُ. فَتَحَهَا، وَدَلَفَ خَارِجًا.

ثُمَّتُ أَمْرٌ يَحْصُلُ اتِّفَاقًا وَسَطَ الظَّلَامِ الْمَهِيْمِ، وَكُرْزُو يَعِدُ خُطَوَاتِ ابْنِ أَخِيهِ إِلَى الْجَهَةِ الْمَعْلُومَةِ تَمَامًا: «كُنْتُ أَعْرِفُ» يَقُولُ الصَّبِيُّ لِنَفْسِهِ. «كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ هُنَا». ثُمَّ جَلَسَ الْقَرْفِصَاءَ لَصِقَ السُّورِ، وَهُوَ يَمَعِنُ النَّظَرَ فِي شَبَحِينَ يَسْتَغْرِقَانِ فِي عُنَاقٍ طَوِيلٍ، وَيَنْفَضِلَانِ مَسَافَةً خَطَوَتَيْنِ بَعْدَ ذَلِكَ، يَتَفَرَّسُ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ، ثُمَّ يَمْضِيَانِ شِمَالًا. وَإِذْ تَقْدَمُ كُرْزُو خَلْفَهُمَا، بِالْخَفَّةِ ذَاتِهَا، عَثَرَ فِي مَكَانٍ عُنَاقَهُمَا عَلَى مُسْتَطِيلٍ رَمَادِيٍّ، لَمْ يَكُنْ غَيْرَ دَفْتَرِ حَالٍ لَوْنُ دَفْتِيهِ فَمَا يُمَيِّزُ قَطُّ، فِي ذَلِكَ الظَّلَامِ. وَضَعَهُ كُرْزُو تَحْتَ إِبْطِهِ فِي إِهْمَالٍ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ الْحَيْرَةُ: أَيْمُضِي قُدَمًا أَمْ يَرْجِعُ؟ وَآثَرُ، بَغْتَةً، إِنْ يَرْجِعُ، هَامِسًا فِي قَرَارَتِهِ: «لَنْ يَبْتَعِدَا».

لم يكن كرزو في حاجة الى شرح شيء حين دخل غرفة سينم المضطجعة بذلك الدفتر. ألفت النساء الأربع عليه نظرة غير مستفسرة قط، ثم عدّلتن النظرة تلك فيما بينهن فأمست استجلاءً وفضولاً حول سير آبائهن. وكن يتناوبن - أم سينم وأم برينا وبرينا ذاتها - الكلام، في حمى يرتفع فيها الحرف المهموس وأخوه معاً، كأنها يضربن بذاكراتهن المبسوطة، كمراوح القش، تلك اليعاسيب اللجوجة التي تحمل الحاضر من جدار إلى جدار في الغرفة الضيقة. ومن العسير، بالطبع، شرح إقدامهن على سرد سير الآباء، على هذا النحو من الإستغراق الذي أنساهن ما هن فيه. تنفّ تداخل: شهادات لا حدود لها، وبسالات لا حدود لها. قرون من شعور لكل الرجال. حواجب معقودة على كثافتها. قامات منحنية في خفر ذكوري من أثر التواضع. عيون لا تحدّق بل توميء. جباه بغضون قد تبني العصافير أعشاشها فيها. أنامل طويلة، وراحت واسعة تقبض على حقل بأكمله. أقدام مفلطحة كما ينبغي ان تكون أقدام رجال يزنون الأرض من تحتهم، وأعضاء أخرى يجري الكلام عنها في همس ندي.

آباء يجدرُ بأيّ أن ينتسب اليهم. آباء متهورون يخترقون أعماق أبنائهم من الطفولة حتى الشيخوخة، فيخلخلونهم. وسينم ترفع رأسها بغتة، قائلة: «ابي لا ينام»، فبرد كرزو في لؤم لا يخفى: «ليس على أحد أن ينام». وليس على أحد، يقيناً، أن ينام في هذه الفوضى الغامرة للطقس وللوقائع. فحشمو وجهور يتناوبان الصعود الى قمة السّلم الكهربائي ككشافين على صارية؛ وعفدي يقتسم، بصوت عال، أقاليم لم يرها، بينه وبين الظلام في خيمته. وقرية «الهلالية» تغرق في دوي الطلقات التي لا تهدأ بين المهرّبين وخفر الحدود؛ ونهر «جغجج» تلتحم ضفاف فرعيه بالثلج الذي يتمدّد قليلاً قليلاً فوق الماء كأغصان الغرب. وشجيرة الزيتون التي لن تكبر قط، من وحشتها، تنفض من همس صوت تعرفه يسأل شخصاً تعرفه: «أين الدفتر؟». وكرزو يتجاهل نظرات برينا إلى الدفتر الملتصق بأضلاع الرقيقة تحت إبطه، وهي حيرى في مقارنته بالذي كان زوجها يتأمل فيه فضة رعبه. اما الحال التي وصلت دغل «الهلالية» بدغل «نصيبين» فكانت إمعاناً من الشال في حبكتة المضحكة: فما من ورقة سقطت من شجرة في الدغل ذاك إلا سقط مثلها في الدغل هذا. ما تطاول غصن في دغل الهلالية إلا تطاول مثله في دغل نصيبين. ما مال جذع شجرة في دغل الهلالية إلا مال مثله في دغل نصيبين.

ما انحدر جذر في تراب دغل الهلالية أعمقَ إلّا انحدر مثله، أعمقَ، في تراب دغل نصيين. أيُّ غصن في دغل الهلالية يرى، من عليائه، ما يراه غصن في دغل نصيين. أية ورقة في دغل الهلالية ترى، الى اسفل وإلى أعلى، ما تراه ورقة في دغل نصيين. أيُّ جذر في دغل الهلالية يشمّ الذي يشمه جذر في دغل نصيين: كل دغل يحصر المدى بياصرتين: باصرتيه وباصرة الدغل الآخر. تقاطعُ، وتخاطرُ، يهيمنان حتى ليكاد النسغ في شجرة من دغل الهلالية أن يسيل من جذع شجرة في دغل نصيين إذا تجرّح.

اقتسام نباتي للرؤى كلّها، وللمكان كله، والثلج والظلام اللذان يهرقان المسافة فتضيّق كبؤبؤ، أو تتسع كبؤبؤ، يرفعان طرقاتهما على بوابة بيت الملا بيناف، فتلتفت برينا متسائلة: «كرزو؟»، واذ تقع عيناها عليه عاكفاً على صفحات الدفتر قرب المدفأة تومىء: «الباب. افتح الباب»، فينهض الصبي متثاقلاً، وقد ضمّ الدفتر ثانية تحت إبطه، ثم يمضي ليفتح البوابة المرتفعة في ظلام الجهة الشرقية.

كان الوهج البنفسجي قاسياً على عيني كرزو حين فتح البوابة: رجال متحلّقون في ثبات صارم، لاتبين من رؤوسهم إلّا خصل شعر على الجانبين، مشعة بفعل الضوء الذي يحجبونه بظهورهم. ولم يفتن كرزو، من المفاجأة، ان يسأل نفسه عن مصدر الضوء، وهو العارف ان لا ضوء في ذلك الزقاق، او في غيره، من بيتهم حتى وسط المدينة، حيث ترتفع، هناك، قرب المباني الحكومية، بعض الأعمدة ذات الفاكهة الزجاجية في الأعلى، وقد أحس طعماً حامضاً تحت لسانه، وخدراً في ارنبتى انفه حين مضى أولئك الرجال، على مهل، إثر سؤال صغير، وهو يلمح بغالاً مضية تتبعهم، فتختلط ظلالهم بذعره الصامت.

«اين ابن بيكاس؟» كان هذا هو سؤال احدهم، بصوت خافت ذي رنين قسّم إجابة الصبي إلى مقاطع مرتعشة: «لا. . . خرج. . . رأيتهما يمشيان. . . نعم. . . هناك»، فاستداروا الى حيث اشار، ومضوا. غير أن كرزو، برغم ذلك الثقل الغريب في دمه، وفي حدقتي عينيه، أثر الوقوف أمام البوابة، وقد راعه أن أولئك الرجال توقفوا بعد مدى غير بعيد، متحلّقين، من جديد، حول شبحين التقوهما اتفاقاً، وقد حدّد شكلهما الضوء ذاته الذي يلف ظهور البعض وجوانب من وجوه البعض الآخر، فتقدم مستأنساً وقد عرف ابن اخيه بيكاس الثاني، لكن ابن سينم هذا فض الحلقة متجهاً صوب الصبي،

بخطى نصف عجولة يُسْتَمُّ منها نفاذٌ صبر، أو تعنيفٌ، لا بدُّ منه، وإذ قاربه رفع يديه مباعداً ما بين أصابعهما، نافخاً: «من أنت يا كرزو؟».

سينم تتكىء على مرفقيها وهي ترفع نفسها صوب الوسادة لصق الجدار، ناظرة إلى أمها في اعتذار طفولي لا مبرر له، كأنها تقترف ذنباً، برغم هأهأتها التي توحى بشيء آخر. وسينم لا تخفي، كونها بلهاء، ذلك التساؤل الأحق الذي استبد بها: «أين بطني؟» منحنية برقبته صوب نصفها السفلي، مسترسلةً وهي تضرب كفاً بكف: «خرج الديك»، وسط النظرات المشفقة للنساء الأخريات اللواقى لم يتوقفن عن سرد سير آبائهن: «هكذا انهار ابن كرزو الدقوري». «هكذا أهوى عليه بالخيزرانة فتجمد سبعة أشهر من فزعه». «هكذا وُضِعَ العقال في رقبته فاسترسل الزبد من فمه حتى آخر بيت هناك».

«لا. كلب كالبقية. وثق به فأغمد في أضلاعه، من القفص الصدري حتى العمود الفقري، شيش التنور، لكنه تحامل على جرحه فخنقه بيديه، وظل جالساً، أربعة أيام، لصق جدار بيته، لا يبارحه ليلاً أو نهاراً، بينما تجدد امرأته النار المشتعلة في الحطب كلما خبت. وإذ حضر بعض الدرك الخيالة من عامودا أشار إليهم أن يتقدموا فتقدموا. وبينما هم في قبالة أخرج الشيش، الذي بقي مغمداً هناك أربعة أيام، من بين أضلاعه، أصفر كأنها غسيل بالزعفران، وأحني برأسه إلى الخلف، حتى لامس الجدار، هامساً: «أصاب الشيش شجرة ورد في الجنة».

ما من شيء سيوقف النساء عن رواياتهن، كأنها يبتعدن قليلاً قليلاً عن ريشة الملهاة الساقطة من فراغ أعماقهن على سجادة الغرفة. سيثرثن حتى يضعن أبأوهن في مهاوي الكلام. سيخترعن ويسترسلن، نافخات في الاستفاضات أرواحاً ميتة. ستؤكد واحدتهن ما تقوله الأخرى بإحناء من رأسها لتمضي، هي، في سرد ما ستؤكدته الثالثة بإحناء من رأسها أيضاً. وإذ ستفتق جهاجهن الصغيرة عن تويجات الكذب الصغيرة، ستمهل إحداهن الأخرى فائضاً في الطنين، ضماناً لدورها هي، حتى تستنفذ المتحدثة أنفاسها.

ثلاث نساء: أم وابنتها، وجدة ولبد الإبنة، وعراء أبيض محدّد بسور تفضي بوابته إلى عراء أبهى، قلق من شهوته إلى مدى لا يساكنه أنسي أو وحشي، لكنه راضخ، في ذل، لخطوات رجال يستديرون بلحاهم البنفسجية إلى حيث يقترب ابن بيكاس من كرزو، صارخاً به: «من أنت يا

كرزو؟». والصبي يجار من سؤال ابن أخيه، فيتمتم: «أنا؟»، ثم يتدارك نفسه: «وماذا أكون غير كرزو؟». غير أن سؤالاً آخر يحلعه من أعماقه المندلقة: «أين الدفتر؟»، فيلتفت الى مصدر الصوت المتسلل من بين حلقة الرجال الغريبيين، فلا يلمح إلا نصف وجه معتم، بعيد قليلاً، لكن أنفاسه الثقيلة تلمس غرة الصبي كأنها هو على مقربة أنمل منه. ويغيم المشهد، برّمته، في عيني كرزو، دون أن يصدق: «الدفتر؟»، ناظراً الى يديه الفارغتين، وقد رفعهما على نحو يوحى بالدعاء: «أين الدفتر؟» ويستدير برأسه الى الخلف، صوب بيت أبيه: «أظنني نسيته هناك».

كان الدفتر معه حين خرج، غير أن انزلاقه من تحت إبطه، هنا أو هناك، سهواً، لا يبدل من دهشه العامر بالصوت الذي فجأه لبرهة، وهو العارف، طوال الوقت أن صاحب الصوت لم يبارح المكان: «كان هنا. والله كان هنا» يردد الصبي الصامت في أعماقه، مضيقاً بصوت مجفل مرتعش: «أين أبي يا بيكاس؟». وبيكاس لا يرد، لأنه استدار، كأنها هو عازف عن إجابة الصبي على سؤاله. لكن كرزو يتقدم من ورائه، مزماً أن يسأله ثانية، فيستوقفه «بيكاس الثاني»: «انت لجوج. إسأل جدك عقدي ساري».

لم يكن مهماً أن يسأل احداً، فالظلام الرمادي مثقل بحركة الرجال الغامضين، وعينا الصبي لا تستوعبان فترتان إلى حدود معرفتهما بالأشكال، تماماً كما ترد عينا سينم إلى حدود أقاليمها الصغيرة، هناك، في المكامن التي تقضم الجهات منها مسافاتها. أو تنكمش كحلزونات مذعورة. وسينم، من مكانها الدافئ تحت اللحاف السميك، لا تصغي الى آباء النسوة الخارجين من ظلال المصباحين الشاحبين في الغرفة، بل إلى العماء الملقى كوشاح على الخارج كله، سارحة معه سرحانه الأعمى، حيث يخرج والدها من جهة الزقاق الذي أغلقه جهور وحشمو، وتخرج هي من جهة الزقاق الغربي الموازي لذلك المغلق، ملتفة حول نفسها، في المركز الذي يتحول فيه ظل رأسها الى هيئة كلبية، وهي تصرخ: «أنا لست أمي. أنا صبي». هكذا رددت ما رددوه على مسامعها، حين كانت امها ترضع، دون سبب واضح، خروفاً في يومه الثالث، من ثديها. ولما همت هي، بدورها، ان تعري صدرها، قيل لها إنها صبي، لأن الصبي لا يملك ثديين مريضين أو ناهدين. غير أن ثدييها كانا على حجم يؤبه له، وإذ بوغت بظل رأسها الغريب قالت ما قالت دون أن تحاجج نفسها على ذلك، بل كادت تضيف كلمات أخرى من مثل: «انا

سروال»، أو «وسَّع الغربالَ يا ربَّ». والكلمة الأخيرة من اختلاقات أمها المتباهية، في هدوء شديد، بإيراد حِكمٍ من هذا النوع، وهي تفسّر الغربال على أنه الرَّحْم، يَسْقُطُ الطالِح منه ويبقى فيه الصالح. وكان على الله أن يوسّع قليلاً، بحكمته، في ثقب الغربال لتسقط سينم. لكنّ ما حدث لا يُردّ، فبقيت البلهاء. والبلهاء تنس بحكمة أمها على خلاف القصد منها. ببغاء. هكذا، عليها أن تكون ببغاءٍ جحيمٍ باردٍ، منتشر كالثلج الذي يحاصر الأرض بمنجنيقاته البيضاء، ناظراً في غضبٍ إلى الأعلى البعيد كيباضه. أما والدها الذي يخرج من الجهة الأخرى المسدودة، فيهمس، إذ يفجؤه ظل رأسه على هيئة آدمية، لا كلبية: «ساحيني أيتها البلهاء، يا ابنتي، ويا سندي الرحيم». وهو يذكر ابنته، لا سواها، بسبب من خصامهما المضحك قبل قليل من ذلك، فلقد عَنَفَهَا على إلقاء حجارة في البئر، منحنية على مائها بذلك الانتفاخ المُتَرَف الذي يتوسطه سُرَّتُها: «تفسدين الماء، وأنت لا تساوين دلواً منه»، ثم شدّها من إحدى جديلتها حتى انها ترنّحت، وكادت تسقط على جنب، وإذ تمالكت البلهاء استقامتها ثانية، قالت وهي تُهاهيء: «الماء حفرة يا أبي، وأنت حارس الحفرة» فردّ عليها: «وأنت مصيبة»، فوافقته بغتة: «أنا مصيبة. البئر مصيبة، وأنت مجنون»، فهمّ مغضباً، وهو الهادىء أن يصفعها، لكنها استرسلت في كلام جمد يد الرجل من خجله: «أحبك يا أبي. أحبّ ظلّك»، والتفت صوب البئر: «البئر تسرقك» فحار «مهمد بن كوچري» بأيّ يجيب، ثم استدار ماضياً إلى جهة الزقاق المسدود.

«لماذا علي أن أسأل عقدي ساري؟» يتمم كرزو. أثمت من يستطيع أن يسأل عقدي ساري، على أية حال؟. الخيمة موصدة، من الداخل، بالأخشاب وبأشياء أخرى لا يعرفها غير ساكنها. ولربما أخفاها الثلج، الآن، تماماً، وليس على أحد إبداء قلقٍ ما حول الأمر، فالتواطؤ محكمٌ. ففي اليوم الاول، أو الثاني، أو الثالث، أو أيّ يوم يشاء فيه الثلج أن يحتضن الخيمة من أوتادها إلى عمدها، سيلتفت اولاده، واحدهم إلى الآخر، مذكرين بعضهم البعض بأصغر أثر، أو أكبر أثر، ضائع في ساحة البيت، متغافلين عن الأكثر وضوحاً وثقلاً، أيّ: الخيمة. الأم ستنادي في دجاجاتها الراكنات إلى حيث تتسني لها المخابيء، وهي تذرّ فتاتٍ خبز على الصّحفة الباردة البيضاء، ساهية، عمداً، عن مكان الخيمة. بضع دجاجات سيعبرن الهضبة الثلجية الصغيرة، التي ليست غير الخيمة المدفونة تحت طبقة من الندف، كأنها كن

يعبرنها منذ مائتي عام، على نحو عادي مُشْبَعٌ بعاديّته. البئر، وسط الساحة، ستبقي مغلقة على مائها. وحدهنّ الحيوانات التي في الحظيرة قد يختلن صخباً خفيفاً، لا على اختفاء الخيمة وساكنها، بالطبع، بل طلباً لزاد، او دلالاً كعهده الحيوان بذلك.

من القادر ان يتكهّن بالمجرى الساخر لسخرية الثلج في عبوره الشمال شبراً شبراً؟. وكرزو، الذي يتساءل قليلاً عن مغزى ما قاله بيكاس الثاني عن وجوب مساءلة عفدي، ينسى المُساءلة كلّها، عائداً أدراجهِ صوب البيت، وهو يتقرّى بعينه الساهمتين، وبقدميه، خطّ مجيئه الضائع، عسى يقع على أثر للدفتر. ويتوقف، من ثم، على مبعده خطوات من بوّابة السور حين يسمع من يتتبع خطاه، وإذ يلتفت يرى شبحين يلحقان به في تَوْدَةٍ.

كان أولاد الملا الثلاثة الآخرون نائمين لَمّا فُتح كرزو الباب، هامساً: «ادخلا». لكن بيكاس الثاني، الذي ألقى من الباب نظرة شاحبة كشحوبه على الأولاد الراقدين في ظل مصباح محتضر، لم يدخل، بل التفت إلى باب الغرفة الثانية في الجهة الشرقية، سائلاً: «من يرقد هناك؟»، فردّ الصبي: «لا أحد. لكنها باردة، ولا مدفأة فيها»، فتمتم ابن سينم: «ليكن»، واتجه صوبها بالشبح الآخر الذي يتبعه. وحين صارا داخلها أغلقا الباب من ورائهما، فلم يتمالك كرزو نفسه، إذ بقي وحيداً في الساحة العمياء، إلا أن يعرض خدماته بإحساس موحش: «سأشعل لكما المصباح. لن تعرفا أين هو»، وتقدم مهرولاً، بيد أن الصوت الخفيض الذي أتاها، من الداخل، رده على عقبيه: «لا نريد المصباح».

خلال إحدى عشرة سنة رفض «باران بن ساري»، جد عفدي ساري أبي برينا، وجد جدّ برينا، قبل انتقاله من «عامودا» إلى «موسيسانا»، أن تشعل زوجه المصباح في حضوره: «الظلامُ رفاهيةُ الكائن»، وكان يغادر بيته مع المغيب الذي يطول قدومه صيفاً، ويحل على عجل في الشتاء، ذاهباً إلى السور الذي يسميه «حدوداً». ولم يكن ذلك السور سورَ مكانٍ مملوكٍ، بل يقوم، متعرّجاً على حافة اخدود ربما كان نهراً ذات يوم. سور قديم بلبّاتٍ ترابية متراصّة محوّّة، خلّفته الرعاة، أو الفلاحون الذين أقاموا هناك، في وقت خلا. غير ان «باران» رأى فيه حدوداً بين الأرض من جهة، وبين الواقع الإلهي من جهة أخرى: «هناك» ويشير بإصبعه إلى الأفق في ما وراء السور: «هناك يدور النورجُ الأقوى بقواطعه الذهبية. هناك النعمة».

ما من حمار، أو رجل، أو طفل، أو امرأة، إلا رأى ما خلف ذلك السور، عدا «باران». بضع خطوات ويجد المرء نفسه في الجهة الأخرى من السور غير المديد، حيث تستمر الأرض هي ذاتها، ما قبله وما بعده، ترابية ذات أخاديد من أثر الجرف والسيول التي تتحدّر من الجهة الشرقية. ولكن «باران» يقسّم بذلك السور الهواء، والوقت، والخيال جميعاً: «هناك. . . هناك. . .». إحدى عشرة سنة مصباحه قلبه، وسكّينته السور، حتى انهار بما حفرت المياه في أساسه فانهار «باران». وكان لا يستثيره في ما تبقى من حياته، في ما يعد، سوى المصاييح: «إنكم تعمونني عن رؤيته» ويشير إلى شيء غامض متسع كحدقتي عينيه.

«لا يريدان المصباح؟ تفو» يقول كرزو، وهو ينظر في غضب صبياني الى الباب الذي أوصده بيكاس الثاني. أما بيكاس الثاني فيشير، على الشبح الذي يرافقه: «تفضل»، كأنها يرى البساط البني الذي اهترأت حوافه قليلاً. ويجلس هو، بدوره، مستنداً بظهره إلى الحائط البارد: «الأمر هكذا، إذاً»، يتمتم من غير أن ينظر إلى الجالس أمامه، فيوميء الشبح برأسه: «نعم. هكذا هو الأمر». فيسترسل بيكاس الثاني: «كيف حصل كل هذا دون معرفتي؟»، ويحييه الجالس أمامه: «ليس في مُكنتك ان تقع على كل شيء. فانتك أمور كثيرة، وسيفوتك غيرها». إذ ذاك يتحدث بيكاس الثاني قليلاً: «أنا وأبي أغدقنا عليكم، جميعاً، نعمة أن ترجعوا إلى هذا المكان»، فيرد الآخر: «كنا سنرجع على أية حال. لا فرق بين هذا المكان وغيره. ونحن لسنا عزلاء هذه المرة. انظر»، وأخرج شيئاً ما من تحت عباءته السميكة: «معنا آلاتنا». فدمدم ابن بيكاس: «ومعي ألي».

«ستستمررون هكذا، سلالتم كلها، وسنكون حاضرين بدءاً من الآن». يقول الشبح في لهجة تهديد لا تُخفى. عندئذ ينهض بيكاس الثاني واقفاً: «لا أحب غرورك. فلنُنهِ الحوار»، غير أن الشبح لا ينهض، بل ينحني في جلسته متكئاً على مرفقه الشمال وهو يمسّد بيده اليمنى وجهه الذي لا يرى: «قد تعرف أشياء كثيرة يا صاحبي، لكنك لا تلم بشيء مما تستسِرُّه آتي أو تُسرُّ إلي»، فيرد ابن بيكاس الواقف: «أرايت توائمى الاثني عشر داخلين معي؟»، فيتتمم الشبح: «لا» وهو يلتفت في هدوء من حوله، فيخبط بيكاس الثاني على البساط: «أنت محدود كآلتك». إذ ذاك ينهض الشبح بدوره في مواجهة الشخص الآخر، هاتفاً: «ستخبط حين أسرد عليك بعض ما

تفعل آلي»، فإرد ابن سينم : «ستتخط أنت، وتنفجر آلتك حين أسرد عليك بعضاً من المي» .

كرزو يدور من حول شجرة الزيتون التي لن تكبر، قط، من وحشتها، عازفاً عن الدخول إلى غرفة النساء . وبدا للشجرة وحدها، التي تراه في ذلك الظلام، أن الصبي استبدت به الحيرة للمرة الأولى . وكان يعتمد في دورانه غرز عقي قدميه في الثلج على نحو منتظم، ناظراً تارة إلى غرفة ابن أخيه، وأخرى إلى غرفة سينم، ثم يلتفت إلى الشجرة غامراً : «تعالى نلحق ببيكاس»، فلا تردّ الشجرة بالطبع، إذ عليها، كحدث نباتي جرت وقائعها في هذه الساحة مصادفةً، أن تلتزم بإضرابها الخاص عن مخاطبة الأنواع الأخرى من حولها، وكرزو منها، وكذلك الزرايزر، والثلج، والغيوم . لكنها لا تنسى لمسات الشبح الذي كان يمر بالساحة غارقاً في بياض عباءته، وبياض شعره وعينه، وهو يحمل دفتر أزرق حال لون غلافه . وهي ترتعش رعشات خفيفة، الآن، إذ تشم في رائحة الصبي شيئاً من رائحة الشبح ذاك، فتكاد تلم أوراقها على عذوبة تخفق كجناح خفيف، ثم تحجم بحكم أن ذلك لا يليق بها، راهناً .

كانت الآلة الغريبة ترتفع بين يدي الشبح إلى المستوى اللائق ببصري رجلين يحدّق أحدهما في الآخر، ومن ثم تهبط بها اليدان ذاتهما حتى تستقر على الأرض . وإذا تمرّ برهة صامتة بعد تلك الحركة يفتح الشبح ما بين القضيبين الخشبيين المتصلين، كل بالآخر من أحد طرفيه، بأسلاك نحاسية، بينما تدلّت من ثقب، على امتدادهما، شراشيب تنتهي بمجسّات فضية تعبق منها رائحة أحماض نفاذة : «هكذا» يتمم الشبح : «ضع كل إصبع على مجسّ، وسيعطيك كل شيء، من حولك، حواسه وهواجسه، حتى لكأنك دورته، وفلكه . فإن التفت إلى ذاتك اقتنصت ما فاتك في انشغالك بأمر عن آخر . بل لربما بكيت اليوم من ألم أصابك البارحة، أو قبل البارحة» . فإرفع ابن بيكاس يده مقاطعاً : «لا أريد أن أبكي اليوم ممّا لم أبك منه البارحة . وأنتك هذه لا تليق بمقام من يحملون دفتر أزرق مثلنا» . «وماذا في دفتركم؟» يسأل الشبح الغاضب، فإرد ابن سينم : «فيه ما أتعب جدي أيها الأبله» . ويتغاضى الشبح عن الإهانة الخفيفة في جواب الجالس أمامه، سائلاً على نحو مفاجئ : «أأنت أنت من نصب الفخ لخاتي؟»، فيجفل ابن بيكاس : «أنا؟ ما هذا الهراء؟»، «نعم» يرد الشبح، ويضيف : «لماذا أغويت مجيدو بن عفدي تلك

الليلة؟»، فينهض بيكاس الثاني محتدماً: «أهذه اسئلة أم مزاح سمح؟»، فيرد الشيخ في برود: «ستدرك أنك كنت حاضراً في الذي سألتك فيه، حين ترجع إلى هناك»، فيسأله ابن بيكاس: «إلى أين؟» «إلى ما فاتك ايها الأبله» يتمتم الشيخ.

الوقت يسرق جسد ابن بيكاس كما سرق، من قبل، جسد أبيه: ذؤابات بيضاء تزداد استطالة في ذلك الظلام، وعضل يتهدّل من تحت الثوب النسائي الذي يرتديه. الكتفان تتقوّسان، والأصابع تزداد يباساً في مفاصلها. الصوت يكتنز ويتهدّج قليلاً. بل كل شيء في ذلك الجسد، اختصاراً، يأخذ هَبْتَهُ من الوقت، لكن الخوف لا يطأ عتبة أعماقه، إذ هو واثق، على نحو مُحَيَّر، أن ما ينتظره سيستظره، حتى لو تباطأ في الذهاب إليه ألف عام، لذلك يحدّق في الشيخ الذي أمامه، سائلاً في احتدام مكتوم: «وما الذي فاتني؟» فيتسم الشيخ ابتسامة لا يراها سواه، دون أن يجيب. وكأنها ينتظر ابن بيكاس ذلك، فيمدّ يديه في اتجاه الجالس أمامه: «تعال معي إلى هناك»، وإذ يهمس الشيخ: «إلى أين؟» ينفخ بيكاس الثاني الكلام نفخاً من مكانه المعتم: «إلى ألمي». وما تكاد تمضي برهة حتى يرشح الشيخ عرقاً أخضر، قطرة قطرة، كأنها يعتصر دغل «نصيين» نَفْسُهُ من مسامه.

ينتصف الليل، أو ينحدر قليلاً إلى جهة الفجر. غرفة النساء لم يبارحها ضوءها، والأكيد أن قصص الأباء هي التي تُبقي الملهاة اليقظانة في كمالها. كرزو الملتصق بالباب، من الخارج، يرتجف ارتجافاً خشناً من برده، لكنه لا يبارح المكان. الشجيرة، التي لن تكبر قط من وحشتها، غافية في حاضرها النباتي. ثلج الساحة مستسلم للسماء الرمادية المعتمة، المستسلمة، بدورها، لزقاقات الحي الغربي، وللعرء الممتد مما بعد بوابة بيت الملا بيناف حتى الثكنة الفرنسية في الشمال الشرقي. أما دغل نصيين فيشهد حشداً غريباً من البغال، والأشباح، والآلات الخشبية الضخمة الشبيهة بالنوارج، غير أن لها سلام عالية في منتصفها، كأنها سيستطلع منها الكشافة تلك المدينة الضائعة في الجهات. والواضح، يقيناً، أن ذلك الحشد يهيء لأمر غريب، فالإشارات، والإلياءات تتحول، في برهتها، إلى نفير يقرب الأرتال أو يبعد ما بينها، فيما يشتعل البخار الصاعد من الأفواه والأنوف اشتعلاً تحت اللآلئ البنفسجية الخافتة للهياكل الحيوانية والبشرية معاً. ومن ثم تتصل موجات جديدة من تلك الكائنات الخارجة في ظلام الشجر، حتى يمتلئ المكان بين

دغل نصيبين ودغل الهلالية، على شكل قوس مديد، متحد، صلب، ينذر بحماقة غيبية أسيرة ككل الحماقات.

يتكىء بيكاس الثاني بظهره إلى الجدار، بينما يزحف الشبح زحفاً، في الغرفة، من جدار إلى آخر، مُتَهَدِّمُ الهيكل، لا يكاد يسمع من تبعه كلمات ابن بيكاس: «أرأيت؟ أرأيت كبده المتآكل؟ أرأيت عينيه السائلتين على خديه؟ أرأيت الشرخ الكبير في ثديها؟ أرأيت الجمجمة الرخوة كُفَطِر «قولو»؟ أرأيت كيف خيَطُوا الفخذين، أحدهما إلى الثاني، بالمسلة الحديدية وخيَط القُنْب؟ أرأيت أحشاءها، هناك، مندلقة تماماً تحت الميزاب؟ أرأيت ما يكسرُ الإِبْنُ في أعماق أبيه، وما يكسرُ الأبُ في أعماق ابنه؟ أرأيت امه؟ ها؟ ستعصر قلبُ ابنها لأنه شبيه بقلب أبيه. أرأيت الهضبة أيها الحمار؟ الهضبة. . الهضبة؟ قلبي هناك، بين الجرار المدفونة، وغدي مغبر بما تثيره أقدام الماعز على سفح طوروس الشرقي. أنا، بيكاس الثاني، ابن سينم، فُخُّ أُمِّي البلهاء، أنا ابن أخي هذا. .»، ونهض على عجل، فاتحاً الباب بدفعٍ كاد يخلع مصراعيه: «هذا. .» مشيراً إلى كرزو الممتزج بالثلج وبالظلام، مضيئاً: «هذا، هذا هو الذي يخبىء عني بقية الليل».

كان ابن بيكاس يسرد الكلام على الشبح دون تراثب، أو تحديد في قصده، ملقياً الضمائر والحروف القاءً مختلطاً حتى خروجه من الغرفة على النحو المهتاج ذاك. ولَمَّا صار إلى الساحة، وقال ما قاله في إشارته إلى كرزو، توقف لاهثاً، ومن ثم خطا بضع خطوات في اتجاه الصبي ليتوقف ثانية كمن استدرك أمراً فات، وبغته عاد على أعقابهِ، في عَجَلٍ، مثلما خرج، وإذا صار داخل غرفة الشبح أوصد الباب من خلفه بركلة قوية، صارخاً: «انهض، كلهم هنا» وأشار بيده إلى الجدار الجنوبي للغرفة، ولما التفت الشبح إلى ورائه لم يجد الجدار: كان عمقٌ ما، مضاءٌ بضوءٍ خافت، قد جرف مسافة الغرفة، حتى باتت أشبه بسرداب طويل جداً، تتقابل على جهتيه أبواب كثيرة، بينما يكاد الشبح وابن بيكاس أن يضيّعهما البصر، إذا نظَرَ إليهما من الجهة الجنوبية الأقصى، وهما هناك، لصق الجدار الشمالي الباهت، غير المضاء.

الحشد يتقدّم. دغل نصيبين يتقدم بأكمله، وكذلك دغل الهلالية. الحماقة تهبىء منجنيقاتها. ليل صلب وصخب صلب يروّعان الثلج المعرّش بشهواته على الأشكال كلها، وما من سؤال ترفعه المدينة. حشمو وجهور، وحدهما، في الزقاق المسدود البعيد عن الحشد المتقدم، يصعدان، معاً،

سلامهما على نحو متوجّس، وثمت ضربات عنيفة على شيء معدني داخل خيمة عفدي ساري، حتى أن الدجاجات الراقدة في مكان ما من الساحة تفتح عيونها، ثم ترجع فتغمضها إذ تهدأ الضربات. كرزو يلتصق بجدار الغرفة المضاءة حيث تسهر النساء، محدّقاً بعينيه الذابلتين من البرد في الباب الذي يخفي خلفه بيكاس الثاني والشبح. شجيرة الزيتون تتقرّى أعماق جذعها بحثاً عما يهدىء النسغ البطيء. السماء تتقلّب كنائم قلق، والثبات للثلج وحده.

الحشد يتقدم.

«أنظر» يقول بيكاس الثاني، فينظر الشبح إلى حيث يشير. ويهمس مردفاً: «إنه يخرج الآن»، فيومئ الشبح برأسه: «إنني اراه». وهما، بالطبع، يريان، في أول بايين متقابلين في السرداب، من يخرج عارياً من أحدهما داخلاً الى الآخر، على عجل. إذ ذاك يتقدمان ليتفحصا ما رأياه، محاولين فتح الباب الذي دخل منه الشخص العاري فيجدانه مقفلاً. يتطلعان، أحدهما الى الثاني، ثم يكملان مشيهما في اتجاه الابواب المتقابلة الأخرى في السرداب المضاء بسراج لا يستطيعان تمييزه في ركنه البعيد. لكنها يتوقفان بعد قليل، قبل أن يجتازا بايين آخرين متقابلين، إذ يخرج رجل وامرأة في هيئة غريبة، نصف عاريين، وهما يدحرجان صخرة من باب الى باب، ثم يوصدانه خلفهما برتاج يحس بيكاس الثاني والشبح بصليله في عظامهما.

كان على ابن بيكاس والشبح أن يتأمّلا، طويلاً، تلك الأبواب المتقابلة، دون أن يسأل أحدهما الآخر عما يجري. وهما، بالطبع، لن يسألا، ففي الذي يدعيان من المعرفة ما يجعلهما يترفعان عن ذلك، نكايّة أو تعالياً، ورغم الغرابة التي يتفتّح عنها السرداب: خرج العاري الذي رأياه أولاً، ثم خرج الرجل والمرأة، ثم حشد من البغال من الباب الثالث، داخلاً إلى ما يقابله (كيف اتسع المكان لها؟)، ثم خرجت فزاعات راكضة من الباب الرابع، ومن الخامس خرجت جنازة مهيبة لتختفي في الباب الذي يقابله، ومن ثم خرجت عربتا «حنطور» تجرهما الخيول من الباب السادس، داخلتين الى الباب المقابل، ومن السابع تسابق رجال بينادق فرنسية الى الباب المقابل، ومن الباب الثامن خرجت ثلة من الدرك ما كادت تصل الى الباب المقابل حتى عادت أدراجها، بضع خطوات، ناظرة في اتجاه الرجلين، وقد توقف الشبح وابن بيكاس في قبالتهم، لا يبديان حركة ولا همّ بيدونها: العيون تتقرّى

الأشكال هنا او هناك، ومن ثم تكمل ثلة الدرك مرورها الى الباب الذي يقابل الباب الثامن، من دون أن يرفع أي عن الآخر عينيه.

الحشد الغريب يتقدم بنوارجه الضخمة وبيغاله المضئعة، صاعداً، على شكل طوق، هضبة الهلالية من الغرب، والهضبة الوطيفة التي تعلوها الثكنة الفرنسية من جهة الشرق. المدينة نائمة. السماء نائمة. الثلج منصرف الى أحواله. كرزو يصفق بيديه قرب نافذة غرفة سينم المضاء ليجدد دورة الدم فيهما. سينم همس، لأول مرة: «برينا. برينا» فتلفت المرأة المصغية إلى امها وأم البلهاء: «هيه سينم؟». «ابني» همس البلهاء في صرامة واضحة، مردفة: «أين ابني؟»، فتدهش برينا قليلاً: «إبنك»، ثم تلتفت من حولها مستنجدة: «لا أدري». وتقوم إلى الباب فتفتحه فتري كرزو الذابل تحت ضوء الشباك الشحيح: «كرزو» تقول الاسم في إشفاق: «ترفق بنفسك يا صبي. ما الذي تفعله؟» فلا يرد الصبي الذاهل بعينه الغائرتين. «كرزو» تكرر برينا نداءها، وتضيف: «أين ابن سينم؟». وكأنها أفاق كرزو على صفقة. غار رأسه بين كتفيه، بينما دار وجهه الخالي الآ من الذهول صوب المرأة، وما لبث أن ركض إلى البوابة صارخاً: «كلهم هنا»، مغادراً ساحة البيت كاللحم.

دُهِشت برينا لبرهة من حركة الصبي، ثم ما لبثت أن ردت الباب تحت إحساسها بهبوب ريح خفيفة باردة، ناظرة إلى النساء الثلاث في الغرفة، تتوسلهن جواباً دون أن تنبس بكلمة. لكن من سيرد؟ سينم على حالها، يغطي اللحاف جذعها كله، ووجهها مبتسم لِمَا لَن يراه أحد. المرأتان الأخريان مستغرقتان في سرد سيرة ابويهما. تصغي إحداهن بالطريقة ذاتها التي تتكلم بها، كأنها لا تتكلمان، ولا تصغيان، برغم الحديث وسجاله. وهما، قطعاً، سادرتان عن دهش برينا وسؤالها غير المنطوق. وهي، نفسها، تكاد تغمض عينيها عن كل شيء؛ تكاد تخرج، مثل كرزو، راکضة الى الفراغ الأبيض المديد، لكنها تواسي نفسها بشبح الملاء بيناف داخلاً، على حين غرة، من الباب، هذه الساعة أو تلك، هامساً في وقاره المعتاد: «جئت ببيكاس معي». وتحاول برينا أن تتلمس ملامح بيكاس في أعماقها فلا تتمكن إلا من وجه غارق في شحوب المصباح. وإذا تجاهد أن تقع على ملامح زوجها، على نحو فجائي، تنتفض: ملامح زوجها تستعصي عليها أيضاً، فترفع يدها إلى جبينها المتماوج بفعل اللهب المتماوج، بغتة، في المصباح: «أوو»، ثم ترخي تلك اليد، محدقة في فراغ الحائط: «لحيتك خشنة»، وتبتسم لنفسها على كلام

لن يسمعه غيرها، متذكّرة ليلة زفافها إلى الرجل الوقور.

بيكاس الثاني يقول للشبح أن يرجعاً عن المضيّ في اتجاه الأبواب الأخرى، فلا يصغي. وفي كل خطوة يخطوونها ترتفع همهمات من خلف الأبواب الموصدة، كأنها يهيم أناس بمغادرة الغرف لكنهم لا يخرجون. ويعاود ابن بيكاس طرح سؤاله المختنق على الذي معه: «إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟»، فيرد الشبح، بعد برهة: «لست ذاهباً إلى مكان. إنهم هم الذين يأتون»، ويحدّق في عيني صاحبه مستفسراً: «أكانت هذه الغرف موجودة قبل لحظات قليلة؟»، وإذا يرد ابن بيكاس سلباً، يضيف الشبح: «إنها ليست موجودة الآن أيضاً. المسألة مزاح، فلا تتصنّع هذه الحيرة»، غير أن ابن بيكاس يشده من رُذْنِ عباءته مستوقفاً: «انظر» فينظر الشبح، متوقفاً، إلى الباب التاسع الذي تفتح عن شخصين على هيئة الشبح وبيكاس الثاني، ذاتهما. «إنهما. . .» تمتما معاً، وأمسك أحدهما بَعْضِ الآخر.

الحشد يتقدم بنوارجه الضخمة، ويبوّت المدينة لا ينظر بعضها إلى بعض، أو إلى الأفق المشيح بالبياض الغامض، المحتشد، الذي تطوي فيه الموجة الرمادية، المعتمّة، ما قبلها، لتطوى بالموجة التي تلي. فاليوت لا تملك عيوناً، كما تعلمون، والشبابيك، التي يجري الفرض على أنها نظرات الجدران إلى ما لا يحتاج إلى نظر، مغلقة، باهتة، وكسلى. وكذلك الزقاقات في الحي الغربي، بل في أيّ حيٍّ آخر، فهي لا تستطيع أن ترتفع إلى ما فوق مستوى الأسطح لترى ما يجري. الزقاقات زقاقات. الزقاقات محكومة بالألّا ترتفع قط، فهي متمدّدة بأطوالها، تعبت عبثاً غير محتشم بالجدران الأنثوية، وبالهواء والثلج الأنثويين. أيّ، في بساطة لا بساطة بعدها، ما من أحد سيصرخ منذراً. ولماذا الإنذار، بحق؟ حشد ما يتقدم في إصرار ملول يستأهل نظرة واحدة من عين نصف مغمضة، ليعود الناظر، بعد ذلك، إلى نومه، لا أكثر. غير أن المستحكمتين بتاريخ مطرّز كاللقالق على المخدّات - أم برينا وأم سينم - تفتحان عيونهما على حشد لا يتقدم، بل يقف هناك، في مرمى أعماقهما المنبسطة كصحفة الطعام: «أبي. . .» تقول إحداهن، فلا تنتظر الأخرى حتى تقول، هي أيضاً، على عجل: «وأبي. . .». «اسمعي» تقول الواحدة، فترد الثانية: «اسمعي. . .». «إنه»، «إنه. . .». كلام يتقاطع في كثير من مفاصله. كلام يتداخل بصوتين ممتزجين عجولين. يد هذه ترتفع لتخفض يد تلك، لكن الشفاه الأربع تتحرك الحركة ذاتها، في الآن ذاته: «لو كان أبي حياً لحرق

سيارة البيك أب» تقول أم سينم، فتمتم أم برينا: «نعم . نعم . لو كان أبي في محل أبيك لفعل ذلك ايضاً . أبي . .»، فتكمل أم سينم دون إنذار: «أولاد أخي حرصوه على شراء البيك أب . قلنا: ما لك وما للبيك أب؟ ليس لديك ما تنقله يا كلش بهذا الحيوان»، وترفع يدها عالياً: «والله أحسنا أن السيارة الكلبة تدبر له شيئاً». وترد أم برينا من غير مبرر: «كل السيارات أولاد حرام . نحن، ايضاً، أحسنا أنها تدبر شيئاً». وترفع أم سينم حاجبيها: «أنتم ايضاً؟ أرايتم السيارة؟». «لا» ترد المرأة الأخرى، مردفة: «لكن السيارة سيارة . نحن نعرف ذلك»، فتبادرها أم سينم: «لا بد أنكم رأيتموها . ها؟ والله، حين كانوا يديرونها بذلك القضيبي الحديدي، من المقدمة، كان قلبي يطير . يطير مثل . . .» وتقاطعها أم برينا: «كان قلبنا يطير ايضاً . .»، وتمعن أم سينم النظر فيها بغتة: «لماذا يطير قلبكم؟». «يطير» ترد الأخرى، رافعة منكبيها على نحو متسائل: «يطير . السيارات تطير القلب، وكان إحساسنا . .»، فتمعن أم سينم في سؤالها المفعم بالشك: «والله كنتم تعرفون أنتم ايضاً . .»، وتتساءل أم برينا: «نعرف ماذا؟»، فتقول الأخرى: «تعرفون ما تدبره السيارة . لم تقولوا شيئاً . سَكُتُم»، «لا، والله يا عيشانة» ترد أم برينا، مضيفة: «مالنا وما للسيارة . نحن لم نرها، ولم نسمع أن أخاك اشتراها . والله . . .»، فتوقفها عيشانة بنت أوسي بدرخان، أم سينم، متممة في صرامة: «الكل كان يعرف يا زيركة، والكل سكت»، وتحفض عينيها في استسلام: «مصباحا السيارة كانا مثل عيني الشيطان . افزعني . حين رأيتهما، أول مرة، فزعت . كانتا جاحظتين كعيني الشيطان . والشبك الصفحي، من أمام، كان مثل فم . . مثل فم . .» وتلفت إلى زيركة: «يشبه فم من؟»، فترد زيركة، أم برينا: «مثل فم القحبة». فتصمت أم سينم متفكرة في تشبيه جليستها: «القحبة؟ أرايت السيارة؟»، وترفع أم برينا يديها متبرمة من السؤال: «رأيت مؤخرتي» .

لقد اشترى كلش، أخو عيشانة، خال سينم، سيارة «بيك أب» بإلحاح من أولاده، حين قدموا الى مدينة القامشلي، تباهياً . وكانت العادة أن يحوز هذا النوع من الآلات من يملكون حقول قمح أو شعير، ويضطرون إلى مواكبة الحصادات الآلية بها، ونقل المؤونة الخفيفة من المدينة إلى العاملين في شؤون الحصاد صيفاً . غير أن كلش البسيط لم يجيب تلك الرغبة اللجوجة في عيون أولاده: «نشترى بيك أب؟ نشترىها، وليكن ما يكون». وتعاقب، من

ثم، أولاده الستة على قيادتها دون سابق معرفة، حتى تمكنوا منها، وسط هتافات يومية في الحقل الذي يجاور بيتهم. إلا أن أكثرهم افتتاناً بتلك الآلة، بعد ذلك، كان «كلش» ذاته، برغم أنه لم يُبدِ أية حماسة لتعلّم قيادتها: «تليق بالأولاد»، هكذا يكرر امام من يرى في عينيه انبهاره وهو يتطلع إلى البيك أب. وفي أواخر الشهر الرابع من شرائها اختفت السيارة، وكلش، وابنه الأحق «سَرَسْتُ»، الملقب بـ «الهَضْب» (أي: حجر النشادر).

«اشترينا عدة صفائح من البنزين» يقول «سَرَسْتُ» بعد ظهوره، ويكمل: «وضع أبي لحافاً في السيارة يغطي به حين ينام، وكيساً من «الباقسمات» (خبز محمّر يابس)، إضافة إلى صفيحة الحلاوة. كنا نأكل بين قرية وأخرى. ولم أنم ستة أيام». والحكاية، برمتها، أن كلش تمون بما قدر عليه، وحرّض ابنه على جولة طويلة بالسيارة بين القرى، حباً، وولهاً بما تثيره من غبار كثير «يخفي عشرة رجال»، كما يقول. وكان يقف في مؤخرة البيك أب المكشوفة، ذاهلاً يتطاير جلبابه، ملوّحاً للعراء من حوله، وقد كساه الغبار حتى انقلب إلى فكاهة ذات حدقتين حمراوين. وهكذا انقضت الحال بين عراء وآخر، وهضبة وأخرى، وتخوم وتخوم، وصعود ونزول، وواد وسهل، وتراب وحصى، إلى أن كان اليوم السادس الذي بقي الأب فيه متمدداً على اللحاف الذي افترش بعضه وتغطي ببضعه الآخر، ولما جاهد «حجر النشادر» أن يوقظه، كان قد استسلم إلى فراغ الحماسة الحلوة، مختنقاً بما استنشق من الغبار.

«يوماً بعد يوم كان صوته يخفي» يقول ابنه الأحق. «بات يسعل ولا يأكل. بات يخط على صدره إذا توقفت، مشيراً أن أمضي». ويحاول التخفيف من شراسته في ما جرى، مولولاً: «لم تبق حفرة لم أصدمها، ليتعب أبي من الرّض، أو لتتعلّط السيارة»، ثم ينظر من حوله مستنجداً بأية نظرة توافقه على ما يقول، فيرى الجميع منصرفاً عنه بسمعه، وقد خيم ما يشبه عدم الاكتراث بالأمر كله. والحق، بحسب تقدير من حضروا جنازة الرجل، أو عرفوه، أن ما من أحد أبدى اكتراثاً كبيراً لموته، لكن اخته عيشانة، أم سينم، تضرب على صدرها أمام أم برينا، في الغرفة التي تتمدد فيها البلهاء: «كانت الدموع كافية لغسل مائة ميت، أما مَرَق الثياب، من كثرة ما شققها الأيدي، فقد استغرق جمعها منّا يومين، وصنعنا منها، من ثم، بساطاً بطول أربع عشرة ذراعاً، وهبناه إلى «ميروكي» العمياء».

ابن بيكاس والشبح يحذقان في شبيهيهما الخارجين من الباب التاسع ، لكن طرقات عنيفة على باب ما ، بعيد قليلاً ، تعيدهما الى يقظة كادا يجاوزانها ، ولما التفتا كانت المسافة الطويلة للسرداب تتقاصر على عجل ، كأنها استيقظت هي ذاتها ، بعدما امتدت ، فجاءةً ، وتوالدت الغرف بأبوابها المتقابلة . وبعد برهة باتت الغرفة التي كانا فيها على سابق أبعادها ، بأمّاتر قليلة ، دون مصباح ، وصوت كرزو يرتفع مع الطرقات : «كلهم هنا» ، وإذا فتح بيكاس الثاني الباب ، مُطِلاً بهيكله الغارق في سنوات عصف بها ، بغتةً ، على ظلام الساحة ، كان كرزو يركض في اتجاه البوابة ، كأنما بلغ ما توجب أن يبلغه ، وأعفى نفسه من أية مساءلة . وبالطبع ، لم يقع ابن بيكاس على أحد حين جال بعينه على الفراغ المادي ، فأوصد الباب من خلفه ، ملتفتاً في ظلام الغرفة إلى شريكه : «هذا الصبي غارق حتى غرته في هومنا» . اما كرزو فلم يكن غارقاً في شيء مما اعتقده ابن أخيه ، بل يقوم بما أوكل إليه ، أو أوكله إلى نفسه ، لا فرق : «هذه الزراير . هذه الزراير .» يتمتم في الظلام الذي يلي البوابة ، حيث يقف شخص واحد ، مُنْحَن قليلاً ، على مبعدة منه ، ثم يفتح ذراعيه على وسعهما دون أن يتقدم خطوة : «هذه الزراير . هذه الزراير» مكرراً الجملة على نحو هاذٍ ، قبل أن يرتخي جسده فيهبط ، بطيئاً ، على الثلج . لكن الشخص الواقف يتقدم صوبه ، ويرفعه قليلاً وقد سنده ب صدره ، كمن يوقظ طفلاً نائماً ، في حنوب بالغ مبلّغه .

الحشد يتقدم . صخب هامس يرمي شبكته بين الهضبتين الواطئتين ، من الهلالية غرباً ، إلى الثكنة الفرنسية شرقاً ؛ وصخب أقل همساً يعبر ساحة بيت الملا بيناف ، إثر خروج بيكاس الثاني والشبح من الغرفة المظلمة ، وهما يتجادلان : «لا خبرة لك بهذا» يقول الشبح محتدماً ، فيرد صاحبه : «وخبرتكَ كوجهك الذي تحفيه تحت العباءة» ، ويردف : «كرزو يعرف أكثر ، وكذلك سينم ، وهذه ال . . .» مشيراً إلى شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط : «هذه . نعم . ما من أحد في حاجة الى خبرة . إنس ، إنس تكن سيداً» ، وتنزل قدمه قليلاً فيتكىء على الشبح ، مغمغماً في تعب : «كلهم هنا . ما من مكان لأحد بعد الآن» ، ولما يعبران البوابة في اتجاه لا يحدّدانه ، برغم اتجاه الخطى شبالاً ، في الظاهر الذي يتبدى لعين لا ترى إلّا عن كثب ، يريان «كرزو» والذي معه ، مقبلين يسند أحدهما الآخر ، فيتجاهلانهما ، وإذا بهمس الشبح

إلى ابن بيكاس : « أليس هذا . . » يقاطعه ابن بيكاس همساً بدوره : « نعم . إنه أبي . جاء يأخذهما » .

« يأخذهما . إنه يأخذهما » تتمم برينا في أعماقها ، وهي تكاد تحس باليدين الخشتين للملأ ، تتقرّيان ثدييها ، فتجفل في مجلسها ، داخل غرفة سينم ، وقد سهت عن النساء الثلاث ، باحثة بأعماقها عن يد البعل الذي أسلمته فجر الأنوثة كله ، وقد خامرها ، آنذاك ، أنها تهبّ ما تهبّ ، في حياء فضّاح ، إلى ذكر سيأخذها نهياً ، ففجأها بحياء فضّاح تحت خشونة لحيته ، ويديه ، وصوته الذي جاهد ، كوقور ، فخنقه حتى لا يعلولهائه . ولما أفاقت ، في الصباح الأول لزواجها أخذتها عينا الرجل المحدثان في وجهها ، فلم تر من وجهه إلّا هما بعد ذلك : كانتا مكحلتين ومغروقتين كأنما يهم بالبكاء ، وقد عرفت ، من ثمّ ، أنها هكذا أبداً ، مغروقتان ، إنما يذهب الكحل وحده ، ويأتي ، كلّما عنّ للملأ أن غبشاً ما يصيبهما . وما كانت برينا لتهتمّ بغبشهما أو بسواه ، بل بذلك الظل الذي يضيفه الكحل على عيني بعلمها فيجعلها ، هي ، أكثر جسارة في دفعه إلى ما يريده منها ، آن يحجب إفصاح جسده ، ولهائه . ولذا أسّرت اليه ، ذات مرّة ، على نحو يشي بدعابة لم يُخفّ ما وراءها عن الرجل الوقور : « ضيع كحلاً على عينيك كلّما واقعتني » ، وإذ بادرها الملأ سائلاً : « أنت لا ترين عيني في الظلام ، فلماذا الكحل ؟ » ، قالت متدلّهة : « إنها هنا » وأشارت إلى عينيها هي . فكان الرجل يكتحل على مرأى منها ، مساءً ، كلّما ارادها ، فتتهيا هي له دون تصرّيح . وللملأ ، ككل رجال الشمال ، مرّة جيب مستديرة ، صغيرة ، ذات غطاءٍ من النحاس مرقش ، يطبّقه عليها فتغدو علبةً بهية توضع في جيب السترة الفضفاضة التي يرتديها ؛ وله مكحلة ، أيضاً ، من عظم الهدهد ، وكيس أزرق صغير يُحفظ فيه الكحل ، فيلقه إذا فرغ منه ، ويعقد عليه خيطاً مجدولاً من حرير نقيّ . أما ملقط الشعر الذي يزوّق به شاربيه فكان من نحاس علا زاويته صدأ أخضر . ولطالما بادلته برينا ملقطاً بملقط حين يتململ من أن الذي معه يخطيء الشعرة المقصودة ويصيب غيرها ، لكنه لم يتخلّ عن ذلك الملقط : يُخرجه من جيبه ، ويتذمّر قليلاً ، ثم يعيده إلى حيث كان . ولربما ساعدته برينا ، على كل حال ، في التقاط بعض الشعر مما يعلوجنته اليسرى ، لأن يده اليمنى تعكس ظلها على تلك الوجنة ، أبداً ، مهما استدار الرجل في اتجاهات الضوء ، فيُخفي على الملقط ما يجب أن يلتقط : « اقتلعت سلالة روحي » يقول مداعباً زوجته ، وقد تصنّع الألم ، فتطلق

هي آهة مواساة، معذرة بإشارة من عينيها وفمها المزموم: «فلتتقصف يدي التي آذتك»، فيعابثها اذ ذاك، ماداً يده إلى ثديها الذي يتدلى كنيذك صغير من قبة الجسد المنحني عليه، فتجفل: «يا لك . . يا لك . .» وترفع قامتها معاتباً في دلال: «إستح».

«سَرَسْتُ الكلب»، قالت أم سينم، فأفاقت برينا من سرحانها على اسم الابن الذي أسلم أباه إلى حماقته الحلوة، وكادت أن تشارك المرأتين، في ضجر واضح، بعضاً مما يتداولن فيه، لكنها آثرت أن تسمع فحسب، ناظرة الى البلهاء التي لا تصغي إلا إلى فراغها، في استنادها الى الوسادة والجدار معاً، وكانت تكرر، في أعماقها، اسم «سَرَسْتُ» على نحو يزيد وطأة الضجر كلما همست المرأتان بالاسم ذاك. وقد همت أن تطالبهما بالكف عن ذكر الكلمة، وأن يستبدلاها بـ «حجر النشار»، فألهاها ما تعمدان إليه من وصفه بالوسامة، برغم كل ما ألصقت به أم سينم من صفات الحماقة: «عيناه . . آه» تقول إحداهن، فتردد الأخرى: «عيناه . . آه». «أصابع يديه . . آه» تقول إحداهن، فتردد الأخرى: «نعم. أصابع يديه . . آه». أما ما نسيता أن تسردها، في جلستهما تلك، فهو أن «حجر النشار» قاد السيارة على نحو جنوني، في أثناء صعود المشيعين بجثمان أبيه الهضبة التي تفضي الى مقبرة «الهلالية»، حتى أنهم تفرقوا هِلْعِينَ، وقد ألقوا بالميت أرضاً عن أكتافهم. ولم يتوقف الأحق، من ثم، إلا قرب «عين الكبريت» في بلدة «الدرباسية»، حيث المياه الفستقية الغربية برائحتها التي لا تعلوها رائحة قط، وبيعوضها الشرس المحموم. وصعد بالبيك آب، في اليوم التالي شِمالاً، داخلأها الأرض التركية، وقد تسلّمه مخفر الحدود، في مدينة قامشلو، من الخفر الأتراك بعد تسعة أيام، فانهال السوريون عليه شتاً وركلاً يومين، ثم أعادوه الى ذويه، أما الـ «بيك آب» فصارت ملك الجانب الآخر من السياج الأناضولي، وهي مُلكِيَّة يُتعارف عليها تحت كلمة «مصادرة». لكن أحداً لم يهتم بالأمر كله، إلا عيشانة، أم سينم، ليس في ما مضى، بل في تلك الليلة التي تواطأت فيها، هي وأم برينا، على سيرة ابويهما المستسلمة للتنقيح، والإضافة، والتحوير الممكن بقدر ما تسمح مخيلة إحداهن.

. . والحشد يتقدم. لألاءة تتسلق الهضبتين، من «الهلالية» غرباً، الى الثكنة الفرنسية شرقاً، من أثر البغال المضيئة الصاعدة. الهواء يكتم أنفاسه، والبيوت تستر بالبيوت. قبور طائفة في الظلام الرمادي، والثلج يطلق صقوره

العمياء تتصيّد حماماته العمياء . إشارات كأذيال الثعالب تُجرّج فراءها الناعم من زقاق الى آخر، وحقول، مقنعة ، وسط الأحراش الصغيرة المبهوثة هنا وهناك ، تغزل أقدارها للمواسم القادمة . أما كرزو فيرتطم بعتبة بؤابة السور أولاً ، ثم يُجاوِزها فتتزلق قدمه على الثلج ؛ ثم يستوي إثر إماليته فيزفر زفيراً متقطعاً ، ويركّض صوب الغرفة التي ولدت فيها سينم ابنها : «برينا» يصرخ حتى قبل أن يدير مقبض الباب . «برينا . إنه يريدكما ، أنتِ وسينم» . فتلتفت برينا مجفلةً : «من؟» ، فلا يردّ الصبيّ الواقف في الباب ، بل يتمعن فيها ، وسط ذلك الضوء الشحيح ، كمن يُدرك أنها تعرفُ قصدهُ تماماً .

شجيرة الزيتون ، التي لن تكبر قط من وحشتها ، تعرف ، أيضاً ، قصد الصبي الذي رآته مهرولاً في الظلام . وكانت تعودت ، من كل صبيّ راکض في تلك الساحة ، على كل حال ، خبراً خفيفاً كخفة العمر ، أو ثقيلاً سيلقيه حامله على مسمع الآخرين في خفة كخفة العمر . فعلى النحو ذاته من هرولة كرزو ، الآن ، دخل أخوه «زيوان» الساحة ، قبل ما لم تحسبه الشجيرة من أيام ، صارخاً أن المرأة الأشورية ألقت بكلبها المدعو «بونجي» في التنور ، وأن زوجها ، أسفاً على الكلب ، ألقي بها في التنور ، وأن أولاده القوا به في التنور ، ثم ألقوا بأنفسهم فيه تباعاً ، فماتوا . والحقيقة لم تكن كذلك بالطبع ، ومختصرها أن المرأة انتقمت من أولادها بإحراق الكلب ، لأنهم يؤثرونه على أنفسهم فيطعمونه من طعامهم طوال الوقت ، ولا يأكلون كما تريد الأم لهم أن يأكلوا . ولمّا ألقت به في التنور احتدم زوجها لمراى الحيوان الصغير منتفضاً وسط النار وهو يثب فلا يبلغ فوهة التنور المسجّر ، فكاد ، من سخطه ولوعته ، أن يرفع زوجه عن الأرض كأنها سيلقي بها إلى حيث الأنين المختنق للكلب ، لكن أولاده حاصروه مهدّئين . وانتهى الأمر على هذا النحو ، برغم الشجار الذي امتدّ ، داخل العائلة ، لأيام ، وكانت تتخلله قرعات أحذية على الأبواب ، وانفجاراً أوّانٍ خرفية ، ولطماتٍ تنتهي بعويل خافت .

وعلى النحو ذاته ، أيضاً ، تتذكر شجيرة الزيتون أن «حشمو» دخل الساحة مهرولاً ، وهو يصرخ : «مجيدو قتل باقي جواني» ، كما دخل من قبل ، أو من بعد - لا على التعيين - أناس كثر ، مهولين بأخبار مهرولةٍ تتراوح بين مقتل إنسان أو شكوى ضد طفل ؛ مهولين بأخبار تلقى في خفة ، من ذلك التاريخ إلى الأبد . لذلك لم يكن غريباً على الشجيرة أن يأتي كرزو على هيئته تلك ، فهو سيطلق الخبر من قفص لهفته ، وسينتظر انفجار الحيرة التي يحب أن

يراها على الوجوه. وتكاد تبسم، ورقة ورقة، في الظلام ذي الوبر المدغدغ، هامة إلى نفسها بكلام لا يفهمه سوى النبات. أما كرزو الذي وارب الباب من ورائه، انقاء الوهج البارد المتسلل معه إلى غرفة سينم، فقد بدا غير متلهف إلى ردّ زوج أبيه، إذ تلهمى بالمصباحين المعلقين إلى الحائط، يزيد شعلتيهما وهجاً بعدما خبتا.

ديك ما، من تحت سقيفة معتمة لا ترى، يرفع صياحه إلى الفجر المقرب في كسل يستحق التوبيخ؛ بحسب ما تفكر شجيرة الزيتون التي لن تكبر قط من وحشتها. ديك ما، وحيد، في ذلك الظلام المستحم بسكينة من الثلج والاقدار، يمرن جسارته في أن يحيا، حتى من دون أن يجاوب صياحه ديك آخر، كما هو مألوف في مخاطبات هذا الصنف من الطير، بينا راح الشبح، وابن بيكاس، يتجادلان في توجههما إلى الشمال الشرقي، عبر العراء الذي يلي ساحة بيت الملائكة: «انت...» يقول أحدهما، فيرد الثاني: «أنت...» فلا يتسقط الثلج من جدالهما غير تلك الكلمة، كأنها يفهم الواحد صاحبه من إشارات لا يراها، وبقية كلام لا حاجة به إليها. غير أنها يقفان، بين لحظات وأخرى، ضاربين بأعقابهما في الأرض، وهما يشيران إلى الحي الغربي تارة، وإلى الجنوب تارة، أو ينحنيان متمعين في آثار خطوات سبقتهما إلى الاتجاه الذي يقصدانه. وكان ظلّاهما يرتسان، على جنبيهما، فوق الثلج، من دون أن يكون ثمت ضوء لقمر، أو لسراج، أو لمقام نوراني يعبر من هناك مصادفة. وإذ يمعنان غوصاً بأقدامهما في المخمل الرمادي البارد، يمعن الظلان غوصاً، بدورهما، كأن لهما ثقلاً على جنبي الرجلين يضارع الثقل الكثيف في هيكلتهما، حتى أن الظلّين كانا يشقان الثلج كما محراث، تماماً مثلما كان يشق مفتاح «جكرخوين»، خال الملائكة بيناف، أرض غرف بيته، وهو يحجره من ورائه جرّاً لضخامته، كلما انتقل من مكان إلى آخر. ولم يفارقه ذلك المفتاح حتى مات، وقد أوصى بدفنه إلى جانبه، لكن أحداً لم يذكر إن كانت الوصية نُفذت أم لا.

مفتاح خشبي ظلّ يكبر سنة بعد أخرى، حتى غدا، في ثلاثين سنة، أطول من قامه رجل. وظلّ «جكرخوين» وحده، بيدي دَهَشُهُ من ذلك النمو: «أوه. العقدة من هنا إلى هنا. انظر». وقيس أسفل المفتاح الخشبي بسبّابته: «انظر، لقد طال» يقول مخاطباً من يلتقيه. غير أن المحيطين به، جميعاً، لم يُبدوا دَهْشاً قط، كأنها كان يجري الذي يجري في خاطر الرجل

وحده . أما ظلّاً الشيخ وابن بيكاس فلم يكونا خاطراً من خواطر الثلج ، بل لها عمقٌ ، ورائحةٌ ، وأثرٌ ، يمكن لقيّافٍ أن يتتبعه حتى في الظلام . غير أن الندف البيضاء التي زاد تهاطها ، بغتةً ، ولم تكن ، من قبل ، إلا نثيثاً هيناً لا يؤبه له ، ألقت ستارها على كل أثر . وكان كرزو ، الذي ينتظر جواب برينا في غرفة سينم ، يفتح الباب بين برهةٍ وأخرى ، هامساً دون أن يلتفت : « انفجرت . انفجرت » في إشارة إلى الهطول المتسارع للريش السماويّ خارجاً ، وكأنها يحث برينا أن تستعجل . وبرينا مستعجلة ، حقاً ، في تمكين سينم من ارتداء ثياب ليست للبلهاء ، ومن لفها بلحاف سميك يغطيها من الرأس حتى القدمين ، وإذا انتهت من زواج ابنها لفت جسدها أيضاً بغطاء سميك ، وألقت نظرةً مبهمّةً على أمها وأم سينم معاً ، وهي تأخذ بيد ابنة الأخيرة في عبورها صوب الباب .

لم تعرِ المراتان (زوج مهمد وزوج عقدي) برينا وسينم أية التفاتة . كانتا ماضيتين ، على نحو هاذ ، في سرد باطنيهما : « أبي » تقول إحداهن ، فتردّ الأخرى : « أبي . . » . ولما أمسى الثلاثة خارجاً - كرزو وزوج أبيه وزوج أخيه - امتزج الصرير المختلق لحكايات المراتين بصرير الباب الذي أطبقته يد برينا الضجرة من ورائها .

إنها لم تسأل كرزو غير سؤال واحد لم تنتظر جوابه . قال : « إنه يريد كَيْلاً » ، فقالت : « مَنْ ؟ » ، ثم سكنت تماماً لتمضي إلى ثيابها تهيئ نفسها وتهيئ البلهاء معاً . وهي تدرك ، بباطن يُدرك الحيلة عادةً ، أن كرزو كان على قُرب خفيٍّ من الحيلِ كلّها ، ومن السخرية المُربكة التي ألقى بها رُحْمها كَنَرِدٍ على مسافة الشمال . وقد جالت ببصرها على الساحة ، حين أوصدت الباب من ورائها ، علّها تقع على ما تلهّفت ، خفيةً ، أن تراه ، فلم تلمح غير كرزو وشجيرة الزيتون التي لن تكبر ، قط ، من وحشتها ، فأومأت برأسها إلى البلهاء أن تتبعها فتبعها ، بينما وثب الصبي وثباً إلى بوابة السور ، كدليلٍ عليه أن يبدي مهارةً صغيرةً حين لا يكون واثقاً من خطواته التالية .

ومن عسى يكون واثقاً من خطواته التالية ؟ السَّلامُ على حالها في الزقاق المغلق . خيمة عقدي على حالها . ظلال الرؤوس ، في هيئتها الكلبة ، على حالها . الحشد المتقدم صوب المدينة على حاله . المسافة بين هضبة الهلالية والثكنة الفرنسية على حالها . قبر خاتي على حاله . الزرايزر التي ستهبط من علياء السِّلْك فوق ساحة بيت الملا ، والثلج ، ودغل الشربين والسرور ، ونهر

جَعَجَعُ، والريحُ الرَّحِيَّةُ، وشجيرةُ الزيتون، والأشباحُ الهائمةُ التي ضيَّعتْ إنائِها، والفضاءُ، والسَّراجان في غرفة سينم، والشفاهُ الأربع للمرأتين المنسلتين، هَمْساً، إلى رائحة أبويهما، والبيوتُ، وما بعد البيوت، وما بعدُ بعد الأفقِ المُختَصِرِ في حكايةٍ مُختَصِرةٍ، كُلِّها، طَراً، على حالِها. أمّا الفجر الذي كان يتنفس، عميقاً، تحت ثقل هباته المرئية واللامرئية، فلم يُعِرِ المكانَ غير شحوبه، تاركاً للحَيَوات والأشكال أن تمضي في طيشها. وبالطبع لم تُعِرِ الحَيَوات والأشكالُ الفجرَ غيرَ صفيها المتهكِّم، وكانت تنشقُّ وتزدوجُ فلا يعرف الفجرُ أيّاً يضيءُ وأيّاً يحجب عنه ضياءه، لذلك بلغ الشحوبُ مبلغه في المكان، وعمَّ الهمسُ والخفوتُ كأنها لن يوقظَ شيءٌ شيئاً.

«من هنا» همس كرزو، وهو يتجه شمال شرقِ العراء، فطاوعته زوج أبيه المسكة بيد سينم. ولما أوغل الثلاثة، قليلاً، في المدى المُغلق على مجون الثلج، تبدى لهم هيكلُ شاحب، منحني كأنها يعاين قدميه، وقد التفت صوبهم برأسه، في وقفته، أو خيَل لهم ذلك، فتوقفوا يتمالكون أنفاسهم. غير أن كرزو كان أولَ المتمتمين: «إنه هو»، فلم تجد برينا ما تعلق به على كلمتي الصبي، بشفتها المرتحية من أثر فكها السفلي المرتخي، غير همهمة التقطت منها سينم كلمة «هو»، فَعَلَتْ هَاهُنا: «ديك: لديك خصيتان»، وهرولت فأفَلَت رَدُّنُ ثوبها من يد برينا التي كانت تمسك به وهي تقود البلهاء.

إنهم يتقدمون، الآن، صوب بيكاس الذي ينتظرهم، بخطى أقرب إلى الهرولة التي بدأتها سينم، ولَمَّا بلغوه لم يفتح الرجل الغائص في السنين ذراعيه لهم، بل استدار ومضى، فتبعوه دون همس إلى الجهة المعلومِ بتدبير غير معلوم.



شجيرة الزيتون، التي لن تكبر قط من وحشتها، استسلمت إلى قَدَرِها النَّباتي، فلم تعد تفكر في شيء. أمّا الحشدُ المضيء، الذي كان يتقدم، صاعداً هضبة الهلالية غرباً، وهضبة الثكنة الفرنسية شرقاً، فقد اكتملت حلقةُ حصاره على المكان، حتى أن البيوت التي تملمت، باحثة عن منفذٍ، عادت فهدأت وهي ترى الزقاقات مسدودة على أتمِّها.

SHOHDY

صدر للمؤلف

- * كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج ايضاً، ط ١ : ١٩٧٣ . ط ٢ : ١٩٨١
- * هكذا أبعثر موسيسانا. ط ١ : ١٩٧٥ - ط ٢ : ١٩٨١
- * كنيسة المحارب (يوميات). ط ١ : ١٩٧٦
- * للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك. ط ١ : ١٩٧٧ . ط ٢ : ١٩٨١
- * الجمهرات. ط ١ : ١٩٧٩ . ط ٢ : ١٩٨١
- * الجندب الحديدي (سيرة الطفولة). ط ١ : ١٩٨٠ .
- * الكراكي. ط ١ : ١٩٨١ (ضمن المجموعات الخمس).
- * هاته عالياً، هات النفير على آخره (سيرة الصِّبا). ط ١ : ١٩٨٢